العدوان الثلاثي وعواقبه

بقلم الدكتور محمد عوض محمد

اليوم وقد انقضت بضعة أسابيع على تحرير بورسعيد وجلاء القوات المعتدية عن أرض مصر ، لعل من الممكن أن ننظر إلى ذلك الغزو الفاشل نظرة شاملة ، نتناوله من مبتداه إلى نهايته ، ونتأمل فى الظروف التى سبقته والتى عقبته . . .

لا شك أن عاصفة من الطغيان كانت تتلبد فى الأفق فى أواخر شهر أكتوبر ، ونستطيع الآن أن ننظر إلى حادث اختطاف الزعماء الجزائريين بأنه علامة تنذر بانفجار هذه العاصفة ؛ فقد كان هذا الحادث بالغاً أحط مراتب اللؤم والدناءة ، وقد قابله العالم كله بأشد النقد والاستهجان . لم تشذ عن ذلك دولة سوى فرنسا الآثمة وبريطانيا شريكتها ، وإسرائيل حليفتها . وانقسم العالم كله قسمين منذ ذلك اليوم : كثرة عظيمة تستهجن الجريمة وتستنكرها ، وقلة ضئيلة تباهى بارتكاب الإثم والمنكر .

وكان يوم السبت ٢٨ من أكتوبر الماضى يوم إضراب أعلنته الشعوب العربية احتجاجاً على تلك الخيانة البشعة ... ولم يكن يخطر لها أن جريمة أبشع وخيانة أشنع قد دبرت وتوشك أن تتكشف . . فى ذلك اليوم أرسلت حكومة واشنطن إنذاراً إلى رعاياها فى مصر وسورية والأردن وإسرائيل بمغادرة البلاد فوراً ؛ فقد كانت تلك الحكومة تعلم أن إسرائيل تقوم بتعبئة قواتها ، وإن كانت تجهل مبلغ ما وصلت إليه تلك التعبئة كما تجهل أغراضها على وجه الدقة . وقد ظهر بعد قليل أنها كانت تعبئة تامة كاملة تتناول الرجال والنساء والأطفال ، وأنها كانت تجرى فى خفاء شديد ، بحيث كان الأشخاص يُدعون بالبرق أو بالتليفون .. لأن إسرائيل ، وهى تبيّت العدوان ، قد أعدّت السكان لمثل هذه الحالات منذ شهور وأعوام . .

ومن البداهة التى لا ينكرها أحد أن الذى يبيت العدوان له ميزة على الآمن المطمئن القابع فى داره ؛ كما أن اللص والمغتال لهما ميزة التدبير والاستعداد والمفاجأة ، ولكن لو أن الأمر مجرد عدوان إسرائيل على مصر ، لتلاشت هذه الميزة بعد يوم أو بعض يوم ؛ لأن مصر لم تكن نائمة ولا غافلة ، ولكن العدوان الصهيونى لم يكن حادثاً مفرداً . ولو علم الصهيونيون أنهم سيقاتلون وحدهم ما فكروا فى تعبئة ولا عدوان على الأقل فى الوقت الحاضر .

لقد كان كاتب هذه السطور فى مدينة لاهور بباكستان مع زملائه من أعضاء المجلس التنفيذى لليونسكو حين طالعنا فى صباح يوم الثلاثاء ٣٠ من أكتوبر نبأ اختراق القوات الصهيونية حدود سيناء فى اليوم السابق أمام نقطة الكنتلا ، وتوغلهم بضعة عشر ميلا فى أرض مصر . ولما سألنى الزملاء عن رأيى ، قلت لهم : إن هذا ليس طريقاً يسلكه الجيش الصهيونى إذا كان غرضه أن يغزو أرض مصر بنفسه ؛ لأنه طريق فى الطرف الجنوبى من برزخ العقبة . فلو كان الجيش الصهيونى يعمل وحده ما تجرأ على الهجوم بعيداً عن قواعده إلى هذا الحد .. وقلت : إن أكبر ما أخشاه أن هذا الهجوم الجنوبىّ الإسرائيلى سيصحبه هجوم إنجليزى فرنسى من مكان آخر ، لعله أقرب إلى الشمال .

وبديهى أن يكون من السهل توغل القوات الصهيونية إلى عشرين أو ثلاثين كيلومتراً ، دون أن يلقوا مقاومة

تذكر ؛ لأن هذه هى الخطة المرسومة للدفاع عن الحدود الشرقية ؛ فليس من المصلحة فى شىء أن توضع نقط قوية مزودة بالعدة الثقيلة والرجال على الحدود نفسها ، فتكون عرضة للغدر الصهيونى المفاجئ ولسهولة التجسس عليها من وراء الحدود كما حدث فى الصابحة والكنتلا من قبل . وفضلا عن ذلك فإن كل ميل يتوغل فيه الصهيونيون يبعدهم عن مصادر الإمداد ويزيد فى مشكلات النقل والتموين ، وهو لمصلحة الدفاع والهجوم المضاد . وهكذا توغل الصهيونيون إلى النخل ، ثم توقفوا انتظارا للخطوة التالية التى يعلمون أنها آتية لا ريب فيها ، والتى لن تكون من عملهم . وقد وصف متكلم صهيونى عمل قومه بأنه : « أصغر من أن يسمى عملا حربياً وأكبر من أن يدعى عملا انتقاميا » .

الإنذار البريطانى الفرنسى

لم تمض أربع وعشرون ساعة على الزحف الصهيونى ، حتى وقف سير أنطونى إيدن رئيس الوزراء البريطانى فى مجلس العموم فى مساء يوم الثلاثاء ٣٠ من أكتوبر يعلن أنه قد وجه إنذاراً إلى حكومتى مصر وإسرائيل ، وبأن القوات البريطانية الفرنسية ستحتل « مؤقتاً » مواقع رئيسة فى كل من بور سعيد والإسماعيلية والسويس ؛ وطلب من الحكومتين « سحب » قواتهما إلى مسافة عشرة أميال شرق القناة (بالنسبة لإسرائيل) وغرب القناة (بالنسبة لمصر) مع وقف جميع الأعمال الحربية بحراً وبراً وجواً ، ومع إنذار الحكومتين بإرسال رد على هذا الإنذار النهائى خلال اثنتى عشرة ساعة ، وإلا اضطرت الدولتان إلى استخدام القوات اللازمة لتنفيذ شروط الإنذار .

ألقى رئيس الوزارة البريطانى إعلانه هذا على برلمان اكتظ بمن فيه من الأعضاء والزائرين ؛ لأن الجميع كانوا يتوقعون إعلاناً مسرحياً كهذا ، ولعل كثيراً من الأعضاء وغير الأعضاء كان يعلم طرفاً مما بيتته العدوان :

فقد نشرت جريدة التيمس برقية لمراسلها فى تل أبيب ، أرسلت يوم ٢٩ من أكتوبر عندما بدأ العدوان الإسرائيلى يقول فيها : إن مصدراً صهيونياً كبيراً أكد لمراسل التيمس اللندنية — أن الحكومة البريطانية أصبحت تنظر إلى سياسة إسرائيل ونياتها وخططها بعين «العطف» .

ويريد وزير بريطانيا الأول أن يقنع العالم ، بأن هذا القرار الهائل بتوجيه إنذار بالتدخل المسلح فى مصر الذى ينطوى على أخطار جسيمة للعالم كله ، والذى يحمل فى طياته جرثومة الحرب العالمية الثالثة — هذا القرار الضخم الهائل ، قد اتخذه جنابه على إثر حديث دار بينه فى صباح ذلك اليوم وبين رئيس وزارة فرنسا ووزير خارجيتها . وفى هذه الجلسة : تم الاتفاق على كل شىء ، ورسمت الخطة ، وحشدت القوات استعدادا ، واتخذت قرارات بالغة منتهى الخطر : كاستخدام قوات حلف الإطلنطى فى العدوان على مصر ، وتجاهل حكومة أمريكا تجاهلا تاما .

إن أحداً لم يزعم يوماً أن سير أنطونى إيدن رجل يمكن أن يتهم بالذكاء والفهم ! وقد وصفه أحد كبار الساسة فى بلاده بأنه a first-rate third-rater أى رجل من الطبقة الثالثة ، وتتمثل فيه صفاتها أحسن تمثيل ! ولكن مع التسليم بأن إيدن من ساسة الدرجة الثالثة ، فإن من الصعب أن نتصور أن يبلغ به الغباء حداً يتصور فيه أن الناس تصدق هذه الترهات التى يفوه بها ، ولم يكف عن ترديدها ، كأنه بذكائه المحدود يتوهم أن الترديد قد يلبس الزور رداء الحق !

فى هذا الإنذار العجيب تطلب بريطانيا وفرنسا من مصر أن تتراجع إلى الغرب من القناة ، وإلى إسرائيل أن تتقدم إلى الشرق من القناة . وبديهى أن الدولتين المعتديتين كانتا تعلمان تمام العلم أن مصر لن تقبل مثل هذا الإنذار ؛ لأن الإنذار لم يصغ هذه الصيغة إلا لكى ترفضه مصر .

كان بوسع هاتين الدولتين أن تنذرا إسرائيل بالعودة إلى ما وراء الحدود ، وإلى مصر مثلا بوقف الأعمال العسكرية ، حتى لا يحدث تعطيل لسير الملاحة فى قناة السويس . ومن الجائز أن يكون لمثل هذا العمل نتيجة إيجابية. وقد يراه بعض الناس عملا منطقياً ، ويحاول آخرون تبريره ، لكن بريطانيا لم تكن تريد وقف العدوان الصهيونى ، بل كان هذا العدوان جزءاً لا يتجزأ من الخطة المرسومة للغزو الثلاثى لمصر ؛ وسنسرد فيما بعد قصة التواطؤ الثلاثى مستقاة من المصادر المحايدة .

الغزو الثلاثى

لسنا بحاجة لأن نشرح قصة الغزو الثلاثى بالتفصيل ، ولكنا نورد خلاصة الأطوار الهامة لذلك الغزو فى كثير من الإيجاز إتماماً لفصول هذا البحث :

كانت الخطة المرسومة لهذا الغزو ترمى إلى أن يبدأ وينتهى ويتم كل شىء فى أثناء ثلاثة أيام أو أربعة أيام تحتل فيها مصر ، وتسقط حكومة الثورة ، وتحل محلها حكومة ترضى عنها العناصر الرجعية ، فتقبل كل شىء يطلب منها ، ولا يجرؤ أحد حتى الأمم المتحدة أن يعترض ، ما دامت الحكومة « الشرعية » قد تكونت وقبلت وباركت الغزو الثلاثى . ومتى تم تنفيذ الخطة على هذا النحو السريع اعترف الناس بالأمر الواقع ، ولا يكون هنالك وقت للتفكير فى حرب عالمية ؛ لأن الأمر انتهى بسرعة ؛ فلا معنى لأن تشن من أجله حرب جديدة.

سيقول العقلاء : ولكن هذه الخطة تنطوى على مغامرة ، وفى حالة الفشل قد تعود على الغزاة بالويل والثبور . ولكن هؤلاء العقلاء لم يكونوا هم الذين يديرون شئون فرنسا وبريطانيا ، ولذلك رسمت الخطة لكى يبدأ الغزو وينتهى قبل أن تفيق مصر أو يفيق العالم ويتحرك .

وتتألف هذه الخطة من ثلاثة عناصر أساسية :

أولا : غزو صهيونى فى جهة من سيناء يمكن التقدم فيها دون مقاومة .

والغرض من هذا الغزو الصهيونى أن يجتذب القوات المحاربة المصرية كلها إلى شبه جزيرة سيناء ، تاركاً البلاد لقمة سائغة للملتهم .

ثانياً : غزو مصر من الجو بآلاف الطائرات من أحدث طراز مخصص لقوات الحلف الإطلنطى ، وتعطيل القوات الجوية المصرية ، مع ضرب الجيش المصرى من الخلف ، وهو يحاول التراجع من سيناء

والغرض من هذا أن تكون مصر عزلاء عديمة المقاومة . أو لعلها – طبقاً لما جاء فى النشرات الملقاة من الجو – أن تسقط الحكومة ، وتفتح أبوابها للغزاة على الرحب والسعة !

ثالثاً : تنزل القوات المعتدية على أرض ذهب جيشها إلى سيناء ، وسقطت حكومتها ، فتحتلها بقوات من الجو ومن البحر ، وتنزل منزلا آمناً مطمئناً لا يزعجها شىء خصوصاً بعد أن يتم لها تحطيم محطة « إذاعة صوت العرب . »

هذه هى العناصر الثلاثة التى تتألف منها تلك الخطة ، وأكبر الظن أنه كان مقدراً لكل خطوة يوم كامل من أربع وعشرين ساعة . وكان هذا فى نظر المعتدين وقتاً كافياً لإتمام الخطة قبل أن يفيق العالم من غشيته ، فلا يأتى اليوم الثانى من شهر نوفمبر ، حتى يكون كل شىء قد تم على ما يرام . . . وإذا احتاج الأمر إلى يوم آخر لم يكن فى هذا كبير بأس ؛ لأن أمريكا فى أسبوع الانتخابات مشغولة ، بل منهمكة فى تطاحن الأحزاب ، والأمم المتحدة « حبلها طويل » ، أما الاتحاد السوفيتى فقد سبق للصحف البريطانية أن أكدت أن مسألة القناة لا تهم روسيا كثيراً .

هكذا حسب البريطانيون والفرنسيون حسابهم ، وأقدموا على جريمتهم التى سبق لهم تدبيرها والاستعداد لها منذ زمن طويل . وكلنا نعرف أن قليلا من هذا التدبير قد تحقق . ومصر تعذر إذا لم تستطع أن تتصور إقدام إنجلترة وفرنسا على اقتراف مثل هذه الحماقة . ولذلك بادرت مصر بحشد جيشها فى سيناء ، حيث التقى هو والعدو

فى العجيلة ، فتنكّل بالصهيونيين أشد تنكيل وألحق بهم الهزيمة المنكرة فى طليعة شهر نوفبر ، ولكن القيادة المصرية بادرت ، فأمرت الجيش المنتصر أن يتراجع إلى غرب القناة للدفاع عن مصر ، فتراجع معظمه فوراً ، لأن البلاد الآمنة تعرضت لعدوان صارخ من قوات جوية تعد وحداتها بالآلاف. وكانلابد أن يرتدّ الجيش من سيناء للدفاع عن مدن مصر من جهة ، وحتى لا يتعرض للضرب من الخلف بقوات العدوان من جهة أخرى. ولا شك أن قرار التراجع كان حكيما ، وأنه أفسد على العدو خطته ، وقد بقيت قوات تحارب لتعوق تقدُّم العدو الصهيونى الحقير .

وبعد أن تراجعت القوات المصرية . وأخليت سيناء ، تقدمت القوات الصهيونية واحتلت شبه الجزيرة ، كما احتلت قطاع غزة . ثم أخذ الصهيونيون جميعاً يرقصون ويطبّلون ويزمرون ، ويحسبون أنهم أحرزوا نصراً باهراً ، وصاح صائحهم أنهم لن يخرجوا من سيناء بحال من الأحوال ، أيًّا كانت القوات التى تحاول إخراجهم . وصفق برلمانهم طرباً لهذه الصيحات ، وأعلن أن مساحة جديدة من الأراضى تعادل ضعف مساحة فلسطين المحتلة قد ضمت بصفة نهائية قاطعة إلى الوطن الصهيونى .

وفى اليوم التالى ثاب بعض الرشاد إلى بعض العقول ، وأعلن زعيم الصهيونيين أنه سيبدأ بإخلاء سيناء فى وقت قريب .

* * *

هذا ما كان من أمر الصهيونيين . أما ما كان من أمر حلفائهم الإنجليز والفرنسيين ، فإنهم بعد أن قاموا بتخريب المدن والقرى بقدر ما وسعهم التخريب ، وأيقنوا أن « الجو » قد خلا لهم تماما أخذوا يهاجمون منطقة القناة من ناحيتى السويس وبور سعيد .

أما من ناحية السويس ، فلا بد لنا أن نفترض أن وجود أسطول بريطانى فى مياه السويس فى تلك الآونة نفسها ، كان محض « صدفة » . وأنه لم يرسل عمداً ليكون هنالك وقت العدوان المدبر ! لابد أن يكون وجود أسطول السويس من المصادفات ؛ لأن رئيس وزراء البريطانيين بلغ من بلادة الذهن ، ما يجعله يتوهم أن جميع الناس حظها كحظه من الذكاء !

ومهما يكن من أمر فإن الإغارة على السويس منيت بالفشل التام منذ اللحظة الأولى ؛ لأن البطاريات الساحلية المصرية وحدها ، كانت كفيلة بأن تلحق بالأسطول المغير هزيمة ساحقة ، رجع منها يلعق جراحه الدامية .

أما الطرف الشمالى من القناة ، فهو الميدان الخالد ، لم تخلده أعمال العدوان ونذالة الغزاة بل خلده دفاع المصريين جنداً ومتطوعين : رجالا ونساء وأطفالا . فقد شرع المعتدون فى اليوم الخامس من نوفبر ينزلون بالمظلات فيتلقفهم السكان وأكثرهم عزّل ، فيوردونهم حتفهم ، ثم تكاثر الساقطون بالمظلات ، فأفلت عدد منهم ، ولكن الغزو بالمظلات قضى عليه بالفشل ! وأدركت هذا قيادة العدو ، فأخذت تطلق القنابل الضخمة والنيران على المدينة العزلاء التى قضى اتفاق القناة بأن تكون عزلاء ، ولذلك لم تكن لها بطاريات ساحلية ذات خطر ، فأمكن العدو أن ينزل إلى البر ، وأن يتسلل إلى المدينة . . وعلى الرغم من صدور الأمر بوقف إطلاق النار فى اليوم السابع من نوفبر تجاهلت القوات المعتدية هذا الأمر ، وأخذت تتم احتلالها لبور فؤاد حيث نزل الفرنسيون ، وبور سعيد وما يليها جنوبا لمسافة عشرة أميال ، حيث نزل الإنجليز .

إن بور سعيد دفعت ثمن بطولتها ، والبطولة ثمنها غال فى كل وقت ومكان؛ فإن نفساً طاهرة واحدة من الآلاف التى قضت فى بور سعيد تعادل ألفاً من نفوس الغزاة الدنيئة . وليس المقام هنا متسعاً للإسهاب فى وصف دروس البطولة المجيدة التى ألقتها بور سعيد أمام العالم فإنها قصة تتطلب مجلداً ضخماً .

وبعد وقف إطلاق النار ، أخذت قصة الغزو الفاشل

تنطوى . ولكن فى شىء من البطء . فقد صدر الأمر لا بوقف إطلاق النار فقط ، بل صدر الأمر أيضاً بالانسحاب فوراً ، فأخذ الأعداء المعتدون يبطئون فى تنفيذ أمر الانسحاب ، بل أخذ بعضهم يثبت أقدامه باستيراد جند آخرين وذخيرة وعدّة حربية . وزعم القائد البريطانى أن الانسحاب فى عشرين أو ثلاثين يوماً لا يتفق مع ما سماه الكرامة العسكرية . ولذلك قرر المعتدون أن يجلسوا فى بور سعيد ويثبتوا أقدامهم ، زاعمين أنهم لا بد لهم أن يقوموا بتطهير القناة ، وأنهم قد بدءوا فى ذلك فعلا ، فلا بد لهم أن يتموا ما بدءوا فيه ! كان هذا زعمهم ، ولكن شواهد الحال تدل على أن ما اتخذوه من إجراء لتثبيت أقدامهم فى بور سعيد كان يرمى بلاشك إلى هدف آخر ، وإلى عدوان جديد يتمكنون به من أن يوسعوا منطقة الاحتلال نحو الجنوب . لأن مركزهم وسط بحيرة المنزلة فى مساحة ضئيلة من الأرض كان مركزاً حرجاً للغاية ... كانوا فى بقعة صغيرة من الأرض ، يحيط بها الماء من كل صوب هذا طريق ضيق يمتد نحو الجنوب ، ليس التقدم فيه بالأمر السهل . والقناة — إذا أرادوا اتخاذها مخرجاً نحو الجنوب — قد امتلأت بالسفن الغارقة ، فلا سبيل إلى اقتحامها ، وإن حاولوا الزحف فى الطريق الممتد على طول القناة ، تعرضوا لكارثة محققة ، لأن أشبال مصر كانت رابضة على طول الطريق تتربص بهم الدوائر . فإذا أرادوا استخدام الطائرات ، فإن الموقع لم يكن به سوى مطار الجميل المحدود الذى لا يصلح لمثل هذا الغرض .

وهكذا كان الجلاء أمراً لابد منه ولا مفر ، سواء أكان يتفق مع الكرامة أم لم يتفق . ولم يكن التشبث الذى شهدناه مدة أسبوعين أو ثلاثة سوى رد فعل طبيعى للشعور الممض بالفشل ، والإحساس بأن كل تلك الصيحات الأولى التى نادت بضرورة احتلال السويس والإسماعيلية وبورسعيد قد ذهبت هباء ، وأن قادة السياسة البريطانية والفرنسية لا بد لهم أن يشربوا كأساً فى مرارة العلقم والصاب .

وارتاع إيدن حين بدا أمامه شبح الفشل فاغراً فاه ، فأصابه انهيار عصبى ، وسافر ليعالجه فى جزيرة جمايكا على بعد خمسة آلاف من الأميال ، تاركاً لمساعديه أن يفعلوا ما فى وسعهم لإنقاذ ما يمكن إنقاذه . وفى اليوم الرابع والعشرين من نوفمبر اتخذت الأمم المتحدة قراراً مجدداً يقضى بأن يجلو المعتدون فوراً عن مصر ، ولوحت الولايات المتحدة للمعتدين باستعدادها لإمدادهم بمقدار لا بأس به من النفط إذا ما بادروا بالإذعان والامتثال . فطار وزير الخارجية البريطانية سلوين لويد من أمريكا ، وأعلن فى برلمانه أن حكومته ستبادر بالجلاء عن مصر ، وترجو أن يتمّ ذلك فى وقت قصير . وتبعه المسيو بينو وزير الخارجية الفرنسية ، فأدلى بتصريح مشابه كحذوك النعل بالنعل . .

ولم تحاول بريطانيا وفرنسا التلكؤ هذه المرة ، بل بادرت القوات بالانسحاب ، وتم جلاء القوات فى مساء يوم ٢٣ من ديسمبر ، بعد أن قضت فى هذا الاحتلال ثمانية وأربعين يوماً ، لم تنعم فيه قوات الاحتلال بالراحة ولم يغمض لها جفن ، بل كان يؤرقها ليلا ويزعجها نهاراً جهاد الفدائيين ، وما يصبه العالم على رءوسهم من اللعنات . . .

وتلكأت إسرائيل فى التراجع ، وجعلت القوات الدولية تقتفى أثرها ، وهى ترتد فى بطء شديد ، وتخرب وتدمر ما يصل إلى يدها فى أرض ليس فيها مجال كبير للتخريب والتدمير . ولعل الصهيونيين كانوا يريدون أن يستفزوا مصر لكى تهاجمهم أو تخرق اتفاق وقف إطلاق النار . ولكن هذه المحاولة قد باءت أيضاً بالفشل .

وهكذا انتهى ذلك الغزو العظيم بجيوشه الجرارة وأساطيله الضخمة ، وأسرابه الجوية التى يخطئها العدّ . باء ذلك الغزو بالفشل الهائل الذريع بعد أن اشتركت فى تدبيره

دولتان تعدّان فى نظر نفسيهما من الدول العظيمة ، ومعهما دويلة أخرى تسخّرانها لأوطارهما . بعد أن تآمرت الثلاث فى الظلام على القيام بهذا العمل المؤكد النجاح ! ... ولهذا التآمر قصة نروى للقارئ خلاصتها .

قصة المؤامرة

تواطأت بريطانيا وفرنسا وإسرائيل على ارتكاب ذلك الجرم البالغ منتهى الدناءة والإثم . ومع أن جميع الشواهد صارخة بوقوع هذا التواطؤ ، فإن إيدن وزملاءه فى الإجرام أخذوا ينكرون بمنتهى العنف هذه التهمة الثابتة . وسبب إمعان الإنجليز فى إنكار هذا الأمر الواضح وضوح النهار ، أن الإغارة على مصر هى فى نفسها جريمة فظيعة تنطوى على كل خيانة وغدر ، ولكن التواطؤ مع إسرائيل ، وطعن مصر من الخلف ، يمثل عدة جرائم تبلغ منتهى الخسة والدناءة . لذلك كان سخط العالم شديداً على الإنجليز فى المكان الأول ، وعلى الفرنسيين فى المكان الثانى .. لما ارتكبوه من الكذب والنفاق والبهتان بادّعائهم أنهم يتدخلون لوقف الحرب بين مصر والصهيونيين ، مع أنهم هم الذين شبّوا هذه الحرب وساعدوا على قيامها ، وفى البرلمان الإنجليزى معارضة قوية تتربص بالحكومة الدوائر ، وتوجه إليها التهم ؛ ولذلك لم يجد إيدن وعصابته بدّاً من التمسك بحبل الكذب ، وإن كان حبلا واهياً . ومن سوء حظ الإنجليز أن الفرنسيين لم يبذلوا مجهوداً كبيراً لإخفاء ذلك التواطؤ ، حتى بدرت من ساستهم عبارات توشك أن تكون اعترافاً بأن المؤامرة قد دبرت عن عمد وسبق إصرار .

قيل للساسة الإنجليز : إن ما تزعمون من عدم التواطؤ أمر لا يقبله عقل ، فإن تدخلكم كله كان لمصلحة إسرائيل : طلبتم منها أن تتقدم إلى القرب من ضفاف القناة ؛ وبادرتم بالإغارة على مصر وحدها ، وإشاعة الدمار فى مدنها وقراها ، وكانت إذاعتكم موجهة ضد حكومة مصر ، تطلبون من المصريين أن يسقطوها ، وإلا أنزلتم بهم الويلات . واستخدمتم فى الهجوم على مصر قوات « منظمة حلف الأطلنطى » ، ومثل هذا العمل يتطلب تفكيراً وتدبيراً ولا يكون وليد الساعة ، وظهر لكم أسطول فى مياه السويس على إثر تقديم الإنذار ، ومثل هذا لا يمكن أن يحدث بمحض الصدفة .

وعلى الرغم من هذا كله وقيام الأدلة الدامغة أصرّ إيدن ورهطه على إنكار تهمة التواطؤ لشناعتها وبشاعتها ، وقد نشرت مجـلة تايم الأمريكيـة ، وجريدة نيوزكرونكل الإنجليزية وغيرهما من الصحف شرحاً وافياً لذلك التواطؤ . وكيف بدأ التفكير فى العدوان على مصر مباشرة أول الأمر ، وانتهى إلى خطة التواطؤ مع إسرائيل وطعن مصر من الخلف . ويبدو أن فرنسا كانت البادئة فى هذا الميدان ؛ إذ كانت تنقم على مصر تدخلها فى شئون الجزائر . وبعد تأميم القناة بأيام قلائل سافر وزير الدفاع الفرنسى إلى لندن لرسم خطة مشتركة لاحتلال منطقة القناة ؛ وأنشئت فعلا هيئة مشتركة لرسم الخطط والتنسيق ، وفى أثناء عقد المؤتمرات واجتماعات الساسة فى لندن — ولم يكن يقصد بها سوى التسويف — حشدت الجيوش فى قبرص ، ودهنت الدبابات بلون أصفر مشابه لرمال الصحراء ، وطبعت عملة لتستخدم فى الجهات التى يتم احتلالها . وكل هذه الاستعدادات كان هدفها مصر . وفى هذه المرحلة لم يكن لإسرائيل مكان فى تلك الخطط .

وكان فى فرنسا من قبل عصابة تنادى بمحاربة مصر والعرب بوساطة إسرائيل ، وكانت الأمور تجرى بسرعة فى هذا السبيل . ولذلك لم تلبث فرنسا أن تحولت إلى فكرة إشراك إسرائيل بعد أن قررت العدوان . ودعت فرنسا الإرهابىّ الصهيونى مناحيم بيجن زعيم حزب هروت المتطرف ، لأن يلقى خطاباً أمام الجمعية الوطنية ؛ ومع أن بيجن زعيم المعارضة فى إسرائيل . فلا شك أن

الترحيب به فى البرلمان الفرنسى كان بموافقة حكومته ، ودليلا على اتجاه حكومة إسرائيل وجهة العدوان بمعاونة فرنسا ومؤازرتها ، وبادرت فرنسا فأرسلت سراً إلى الصهيونيين ثلاثين من طائرات مستير فوق ما سبق إرساله من قبل . ولم يتمالك بن جوريون أن أعلن فى ٢٣ من سبتمبر أن إسرائيل قد وجدت أخيراً حليفاً مخلصاً .

وزعمت صحيفة تايم أن إنجلترة لم تساهم فى المرحلة الأولى من هذا التواطؤ وظلت بمعزل عنه ، ولكن الصحيفة كعادتها حسنة الظن بالبريطانيين ؛ فليس مما يقبله عقل أن تكون فرنسا منهمكة فى تدبير خطة للهجوم على مصر مع بريطانيا ثم تُدخل فيها عنصراً جديداً وهو إسرائيل دون أن تخبر شريكتها سراً . والأرجح أن الإنجليز كانوا على علم تام بما جرى مدركين أنه عمل قذر ولذلك طلبوا من فرنسا أن تمضى فيه وحدها أول الأمر .

وفى يوم ١٦ من أكتوبر طار إيدن ولويد إلى باريس واجتمعا هما وموليه رئيس وزراء فرنسا وبينو وزير خارجيتها . اجتمع الأربعة وحدهم ليس معهم خبير أو مشير ودام الاجتماع خمس ساعات بمنتهى السرية ، لأن الجرائم الكبرى لا يمكن أن تحاك إلا فى حالك الظلام . والظاهر أن إسرائيل كانت تحدثها نفسها بأن تشهر ما سمته حرباً « وقائية » . وقد لقيت التشجيع التام للإقدام على هذه الحرب ، ورحبت إسرائيل بالطبع ، على أن تكون تلك الحرب جزءاً من جريمة كبيرة تساهم فيها دولتان كبيرتان بمواردهما الضخمة وأساطيلهما والعدد الحديثة لمنظمة شمال الأطلنطى .

وتقول مجلة تايم : إن الإنجليز والفرنسيين أخذوا منذ ذلك التاريخ يضللون الولايات المتحدة فى كل ما يتصل بهذا الموضوع . فلم يخبر إيدن الأمريكيين بشىء عن الخطة التى يوشك أن ينفذها ، كما أنه لم يخبر حكومات الكمنولث ولا البرلمان . والراجح أن سلوين لويد كان وحده الملم بتفاصيل الخطة . وقبل ارتكاب الجريمة بأيام قلائل رأى لويد هذا من المناسب أن يبلغ الولايات المتحدة أن هناك خطة جديدة لحل سلمى لمشكلة قناة السويس كما أعلن أن المرجح أن يجتمع المصريون والإنجليز والفرنسيون فى جنيف فى يوم ٢٩ من أكتوبر لهذا الغرض . أى فى اليوم الذى تقرر أن يرتكب فيه العدوان !

وقد دبَّر المتآمرون أمرهم وأحكموا تدبيره ، واختاروا للعدوان الموعد الذى حسبوه شديد الملاءمة ، إذ كانت أمريكا منهمكة فى انتخابات الرياسة ، ولا تجرؤ على عمل شىء ضد إسرائيل فتخاطر بأصوات اليهود ، وإذ كانت روسيا فى ظنهم منهمكة فى شئون المجر . وقيل إن الإنجليز كانوا مؤمنين بأن أيزنهاور لن يفوز فى الانتخابات . ولذلك لم يعبئوا كثيراً بما قد يترتب على إخفاء إجرامهم وتواطئهم . وكان أيزنهاور فى وشنطن عند ما بلغه نبأ العدوان الصهيونى على مصر . فأعلن « أن الولايات المتحدة ستفى بالتزاماتها فى الاتفاق الثلاثى المبرم عام ١٩٥٠ بأن تقف فى وجه العدوان بالاشتراك مع الزميلتين بريطانيا وفرنسا » . أما نبأ الإنذار والعدوان البريطانى الفرنسى ، فلم يسمع به الرئيس الأمريكى إلا من آلة تسجيل الأنباء . وأدرك الساسة الأمريكيون بعد لأى أن اتفاقية ١٩٥٠ ما هى إلا وثيقة ميتة .

ودعا مستر دلس سفيرى إنجلترة وفرنسا عقب العدوان الإسرائيلى مباشرة لمشاورتهما فى ضرورة عقد مجلس الأمن ، فأخذا يتملصان ويلتمسان المعاذير للتسويف ، طبقا لما لديهم من الأوامر بالعمل على تأخير هذه الخطة حتى يبلغ الإنذار مصر .

ولم تلبث أمريكا أن أدركت عن طريق آخر ، أن بريطانيا حريصة على أن يستمر العدوان الإسرائيلى . ودعا سلوين لويد السفير الأمريكى فى لندن صباح الثلاثاء ٣٠ من أكتوبر فى ساعة مبكرة . وطلب منه أن تحذف أمريكا من اقتراحها أمام مجلس الأمن أى وصف لإسرائيل بأنها معتدية ! ومع أن بريطانيا كانت تنوى

توجيه إنذار لمصر بعد بضع ساعات ، فإن لويد لم يشر بكلمة عن هذا الإنذار للسفير الأمريكي .

وفى ظهر يوم الثلاثاء ٣٠ من أكتوبر ، وهو الموعد الذى سبق تحديده من قبل ، وجهت بريطانيا وفرنسا الإنذار إلى مصر . وافتضح للعالم كله سر ذلك التواطؤ الدنىء الذى حاول إيدن عبثاً إنكاره . ولما رأى أن الاتهام بالجريمة من الوضوح بحيث لا يمكن التنصل منه ، أخذ هو وأنصاره يوجهون لمصر تهماً جديدة بادية البطلان ، فلم تجد هذه الترّهات من يصدقها . ولقد قيل : إن افتضاح جريمة إيدن بعد بذله كل تلك الجهود لإخفائها ، كان من أهم أسباب الانهيار العصبى الذى أصابه . .

أسباب العدوان

إن البحث عن أسباب لذلك العدوان ليس بالمطلب اليسير ؛ فإن التفكير فى مثل تلك الأسباب معناه أننا نتهم الذين دبروا هذا الجرم بأنهم قوم يفكرون ويعقلون ، ويزنون الأمور ، ولا يصدرون فى أعمالهم إلا عن روية وتدبُّر . مع أن جميع المجرمين المعتدين لا يدفعهم إلى إجرامهم سبب حقيقى ، اللهم إلا طبع الإجرام المغروس فى نفوسهم . ومع ذلك فإننا ما دمنا بصدد دراسة ذلك العدوان الثلاثى من جميع نواحيه . فلا بد لنا أن نقف مليًّا لنفكر فيما عسى أن يكون هنالك من أسباب قد يراها بعض الناس أو يذكرها على سبيل التهوين من فداحة الجريمة .

فأما الصهيونيون فقوم اشتهروا بالكذب والخداع وقول الزور . ومن العبث أن نقيم وزناً لما يقولون . إن خلاصة مزاعمهم أنهم لم يقدموا على ما أقدموا عليه إلا اتقاء لما قد تنزله بهم الدول العربية من الضربات فى المستقبل . ولذلك كثُر كلامهم عن الحرب الوقائية . مع أن المعروف أن العدوان كان ديدنهم منذ قامت لهم قائمة ، والغدر طبعهم ، وكثيراً ما أظهروه على حدود الأردن وسورية ومصر . . . وليس من الممكن لدولتهم أن تعيش فى أمن وهدوء ، ما داموا يرون أن البلاد التى يمثلونها يجب أن تزداد رقعتها على مضى الزمن ، وأن تستوعب مئات الآلاف من المهاجرين ؛ حتى تمتد أراضيهم من الفرات إلى النيل . لذلك أنفقوا مئات الملايين فى اقتناء السلاح ؛ وأعدُّوا جيشاً من الرجال والنساء لا يقل باعترافهم عن ربع مليون من المقاتلين .

إن كل ما كان ينقص الصهيونيين ليرتكبوا ما ارتكبوه هو الفرصة . وقد أتاحتها لهم فرنسا وإنجلترة . ومع أن الفرنسيين والإنجليز يزعمون أن إسرائيل كانت ستهاجم مصر على كل حال ، فإن هذا قول هراء ، والحقيقة التى لا شك فيها هى أنه لولا الخيانة الفرنسية البريطانية ، ما تحرك الصهيونيون للدخول فى مغامرة لا بد أن تنتهى بسحقهم ومحقهم .

فمفتاح الجريمة إذن هو السياسة الفرنسية البريطانية . وإذا أردنا أن نفتش عن أسباب لذلك العدوان الفاشل ؛ فأولى بنا أن نبحث عنه لدى تلك الدولتين . ولا بد لنا أن نذكر أن كلتا الدولتين قد خرجت من الحرب العالمية جريحة مضعضعة ؛ وقد استحالت كل منهما إلى دولة من المرتبة الثانية أو الثالثة ، مع أن ذكرى أيام العظمة لم تزل عالقة بالأذهان . . وفرنسا بوجه خاص قد احتل بلادها العدوُّ وداسها بأقدامه وأذلها . وحاولت أن تستعيد مجدها فإذا هى تلقى الهزائم المنكرة فى بلاد الهند الصينية وتضطر للانسحاب والتسليم . واضطرت فى شمالى إفريقية لأن تصطنع اللين والمهادنة ، وللاعتراف باستقلال مراكش وتونس . كذلك ذاق الإنجليز هزائم منكرة فى بلاد الملايو وفى شرقى إفريقية على أيدى الماوماو ، وإلى التسليم بالجلاء عن السودان ومصر ، إلى ارتباك شديد فى أحوالهم المالية والاقتصادية ، وهم ينظرون بعين الحسد إلى ما تتمتع به ألمانيا وإيطاليا من الرخاء والثراء ، مع أنهما هزمتا فى الحرب العالمية الثانية .

وصفوة القول أن كلاً من الدولتين كانت تنوء تحت عبء ثقيل من مركب النقص، وتتوق كل منهما إلى عمل تسترد به مكانتها في المحيط الدولي، بالانتصار في حرب تحشدان لها جميع ما لديهما من عدة حربية وما تختلسانه من « منظمة شمال الأطلنطي » ، ضد خصم تتوهمان أنه ليس بذى خطر .

إن مركب النقص هذا هو الدافع القوى على هذه المغامرة ، وهو السبب الحقيقي لارتكاب ذلك الجرم الشنيع . ومع ذلك فإننا لا ننتظر من الشريكين أن تعترفا بأن هذا هو السبب الصحيح . ولذلك نراهما تصرخان بأعلى صوت، وتستخدمان وسائل الدعاية للترويج لما أسمتاه أسباب حملتهما على ارتكاب ما ارتكبتا من الإثم :

فأما فرنسا فزعمت أن مصر لا يحق لها أن تؤيد الثائرين في الجزائر أو تبذل لهم أية معونة ، مهما أنزلت بهم من الويلات ، وسفكت من الدماء ، وارتكبت من الخيانات. أرادت فرنسا من العالم العربي بعامة ومن مصر بخاصة أن ينكروا عروبتهم وأن يكبتوا شعورهم ، وألا يتحركوا لما ينزل بإخوانهم من البلاء . أراد الفرنسيون من العالم كله ومن الشعوب العربية بوجه خاص ، أن تخلى بينهم وبين شعب الجزائر ، حتى يتم لها سحقه وإخضاعه .

كان بوسع فرنسا أن تلتمس وساطة مصر أو غيرها من الدول العربية للوصول إلى تسوية سلمية في الجزائر . ولكن مركب النقص أبى عليها أن تلجأ إلى وسيلة سوى القوة والقهر . فلما رأت أن هذه الوسيلة لا تنيلها مأربا ، ولا تدنيها من الانتصار على المجاهدين في الجزائر . أخذت تشكو من تدخل الحكومات العربية ومن حكومة مصر بوجه خاص ، وأخذت مراجل غيظها تغلى ، وتزداد مع الأيام غليانا .

أما إنجلترة فكانت تنقم على مصر أنها ناهضت المصالح الاستعمارية البريطانية ، سواء في شرق إفريقية أو الشرق الأوسط : فأما في شرق إفريقية فإن مصر أبدت عطفها على حركة الماو ماو ، ونظمت إذاعة باللغة السواحلية لإثارة الهياج في سكان تلك الأقاليم . ولم تكن مصر وحدها التي تعطف على الماوماو ، وليس مما يقبله العقل أن مجرد عبارات واردة في إذاعة ، تدفع شعوباً تبعد عنا آلاف الأميال إلى الثورة والهياج ، وكان الأجدر بالبريطانيين أن يسلموا بالحقيقة التي لا مفر منها ، وهي أن الاستعمار مشرف على الزوال ، وأن المسمار الذي تدقه مصر في نعشه ليس إلا واحداً من آلاف المسامير .

ولعل أكبر ما أثار الضغينة والحقد على مصر في نفس الإنجليز ، هو نجاح السياسة العربية التي تتبعها مصر ، وفشل سياسة حلف بغداد التي بذلت بريطانيا أقصى جهودها لنصرته وتأييده . لقد كان حلف بغداد عملا استعمارياً مكشوفاً . وأولادنا في المدارس ، بل رجال الشارع يدركون أن هذا المشروع لا يرمى إلا لإقامة النفوذ البريطاني في الشرق الأوسط . والصحف البريطانية لا تنكر ذلك ، وكثيراً ما تتحدث بأن الشرق الأوسط منطقة نفوذ بريطانية . وقد خرج هذا النفوذ من الباب فلا بد له أن يعود من النافذة : نافذة حلف بغداد . وأراد الإنجليز أن يكرهوا حكومة الأردن وسورية ولبنان على الانضمام إلى ذلك المشروع الاستعماري . ثم أدهشهم أن هذه الأقطار ، حكوماتها وشعوبها ، لديها من الإدراك والفهم ما مكنها من رفض ذلك المشروع ورد دعاته على أعقابهم ، كأن كل العالم يجب أن يكون في مثل غباوة إيدن وعصابة إيدن . ولم يكن بد من أن تلتمس حكومة الإنجليز سبباً لفشلها هذا ، فلم تجد سوى مصر تتهمها بأنها هي التي أفسدت حلف بغداد، وكشفت عن مخازيه النقاب ، مع أن مخازيه بادية للعيان ، يراها كل إنسان في مشارق الأرض والمغارب .

أما مشكلة القناة فأوهى من تلك الأسباب جميعاً، وحسب القارئ ما طالعه عنها في المقال الأول في العدد الماضي من « المجلة » . .

فلا مراء فى أن الدوافع التى دفعت بريطانيا وفرنسا إلى ارتكاب ما ارتكبتا من جرم هى شهوات التملك والسيطرة يذكيها مركب النقص الناتج من الهزائم المتكررة ، وتقلص النفوذ القديم والعجز عن مسايرة الزمن ومجاراة التطور العالمى. والذى تتبّع الصحف الفرنسية والإنجليزية فى الأشهر الثلاثة السابقة للعدوان ، لا بد قد استرعى نظره — ولعله أدهشه — ما وجد فيها من الهستريا والحماقة الصارخة التى لم يكن بدٌّ من أن تسوق أصحابها إلى الكارثة . وقد دبر إيدن وعصابته تلك الفتنة وهو يعلم أن عدوانه لن يكون على مصر وحدها ، بل سيحسه العالم العربى كله . ودول آسية وإفريقية ، والدول الشرقية بل الولايات المتحدة الأمريكية ، ولكنه ظنَّ أن فى وسعه أن يتجاهل هؤلاء جميعاً ، وأن يعيد عهد موبقات القرن التاسع عشر ، وأوائل القرن العشرين .

وقد خيبت الأيام ظنَّ إيدن وعصابته ، وأثبتت أن العدوان على مصر لم يكن ليرضى عنه منصف حتى حلفاء بريطانيا وكثير من دول الكومنولث .

ويجمل بنا أن نلخص هنا موقف كل من هذه الدول والهيئات المختلفة .

موقف الولايات المتحدة الأمريكية

لعل بريطانيا لم تكن تحلم أن أى عمل تعمله مهما كان وضيعاً دنيئاً سيثير اعتراضاً جديًّا لدى حكومة واشنطن . ومع ذلك فإن ثقات الكتاب يجمعون على أن الغزو الثلاثى قد حفر بين أمريكا وبريطانيا هوة سحيقة . ولعل من الممكن أن نلخص ما أحفظ الولايات المتحدة من بريطانيا فى الأمور الآتية :

١ — إخفاء خطة الغزو كلها عن أمريكا مع بذل جهود لتضليلها .

٢ — التواطؤ مع إسرائيل على رسم خطة حربية مزرية لطعن مصر من الخلف .

٣ — اختيار وقت الانتخابات الأمريكية لارتكاب تلك الجريمة .

٤ — استخدام العتاد الحربى الأمريكى المقدم لمنظمة المحيط الأطلنطى ، دون إذن من أحد .

لهذا غضبت أمريكا ، واتجه غضبها بوجه خاص نحو حكومة إيدن ، ولعلها مثل أكثر الناس فى مختلف جهات العالم ، تلقى التبعة كلها على بريطانيا ، لأنها كانت تقود الحملة الفاشلة .

ومع ذلك فإن الرئيس أيزنهاور كان مقيداً فى تصرفاته بحكم انتخابات الرياسة ، ولم يستطع أكثر من أن يعلن سخطه على ما حدث ، والالتجاء إلى الأمم المتحدة . . . ونحن لا نظلمه إذا قررنا أنه هو — أو حزبه — كان حريصاً على أصوات اليهود الأمريكيين ، حتى لا تذهب إلى تأييد الديمقراطيين . ولو أن الهجوم الذى حدث قد قامت به مصر ، فأغارت على الأراضى التى يحتلها الصهيونيون فى فلسطين ، لكان للرئيس الأمريكى بلا شك موقف آخر أشد عنفاً وبطشاً .

وقد طالما أعلن الرئيس الأمريكى أنه إذا اعتدى أحد الطرفين على الآخر بادرت أمريكا إلى مساعدة من وقع عليه العدوان ، وكان المفهوم دائما من هذا العهد أن معناه تقديم المساعدة المادية والعون العسكرى . ولكن الرئيس أيزنهاور رأى أن يكتفى بأن تتخذ المساعدة صورة الالتجاء إلى الأمم المتحدة والاحتكام إليها . فهل يرجع هذا إلى أن الوقت وقت الانتخابات ، أو يرجع إلى أن المعتدين هم إسرائيل المدللة ، وبريطانيا الحليفة المفضلة ؟ ربما كان الأمر يرجع إلى مزيج من الاعتبارين . ومهما يكن من شىء فإن أمريكا نصرت قضية الحق فى كلٍّ من مجلس الأمن والجمعية العامة .

وقد قيل أيضاً — ونحن نرجح صحة هذا القول — إن

أمريكا حبست النفط عن الإنجليز والفرنسيين مع توافره لديها ، حتى يعدوا وعداً صادقاً بالجلاء الناجز عن أرض مصر ، وتصفية ذلك الغزو الفاشل .

موقف الاتحاد السوفيتي

لئن كان موقف الولايات المتحدة يحيط به بعض الغموض — إن موقف روسيا وحلفائها لم يكن يشوبه أدنى غموض أو إبهام . وقد أدرك الاتحاد السوفيتي أن عودة البريطانيين إلى مصر سيمكن الاستعمار من أن ينفث سمومه ، ويعود إليه سلطانه وجبروته . ولئن سقطت مصر لاقدر الله — إن العالم العربي لا يلبث أن تتداعى أركانه ويندك بنيانه . وسيكون لهذا كله أثره في زعزعة كيان شرق أوروبا . إن روسيا تعلم أن مصر بريئة من النزعات الشيوعية ، ولكنها مع ذلك تقدر في مصر موقفها الحازم في وقف الاستعمار ، وإصرارها على اتباع سياسة ترمى إلى تحرير العالم العربي كله من غوائل المستعمرين .

لهذا أيدت روسيا مصر في مجلس الأمن والجمعية العامة ، وطلبت من الرئيس أيزنهاور أن تقوم أمريكا وروسيا بردّ العدوان عن مصر ، فلم يستجب لها الرئيس الأمريكي . فاضطر الرئيس السوفيتي بلجانين إلى أن يتدخل بنفسه ، فأرسل في ٦ من نوفمبر كتابا إلى كل من رؤساء حكومات إنجلترا وفرنسا وإسرائيل . وهذا الكتاب يستحقّ — لو اتسع المجال — أن ننشرها من أوله لآخره . ولا شك أن هذا الكتاب السوفيتي كان هو نقطة التحول في الغزو كله ، وحسبنا أن نذكر منه الفقرات الآتية : « إن العدوان الذي دبرته بريطانيا وفرنسا — وإن كانت البادئة به إسرائيل — ينطوى على أخطار جسيمة للسلم العالمي . . . قضت الجمعية العامة للأمم المتحدة بوقف القتال وسحب الجنود . ولكنكم بدل الاستجابة تزيدون في إشعال الحرب ، وتمعنون في تخريب مصر وتقتيل أبنائها من المدنيين . . إن حكومة إنجلترة وفرنسا وإسرائيل قد شهرت على مصر حرباً عدوانية دون أى استفزاز . . وما تزعمونه خاصًّا بالملاحة في قناة السويس هراء وتضليل ، فقد ضمنت مصر حرية الملاحة في القناة ، فإذا بعدوانكم يسدّ القناة ويعطل الملاحة . . إنكم تحاربون أمة عزلاء لا تملك الدفاع عن نفسها . . فهبكم حاربكم عدوٌّ أقوى منكم وأرسل عليكم صواريخ تدك مدنكم وتشيع الدمار في أرضكم .. إنكم بلا شك ستعدّون هذا عملا وحشيًّا . . . ولكن ما الفرق بين مثل هذا العمل وبين ما تفعلونه الآن ضد بلد كمصر توشك أن تكون عزلاء ؟ . . . إن العدوان على مصر إذا استمر قد ينتشر في بلاد وأقطار أخرى ويتحول إلى حرب عالمية ثالثة . . . إن حكومة السوفييت مصممة تمام التصميم على سحق المعتدين بالقوة ، وعلى إعادة الأمن إلى بلاد الشرق . . . ورجاؤنا أنكم في هذه اللحظة العصيبة ستبدون ما يلزم من التعقل والروية » .

هذه خلاصة لبعض فقرات من هذا الكتاب التاريخي الذى كان له الفضل الأكبر في إرغام الإنجليز وشركائهم في الإجرام على وقف إطلاق النار عقب تسلم هذا الكتاب ؛ فقد كان المعتدون في حالة من الهستريا يستحيل معها أن يفهموا أية لغة أخرى . وقد سئل الوزير الفرنسي بينو عن سبب انسحاب المعتدين من بورسعيد ، فقال : « إن هذا يرجع إلى انقسام الشعب والبرلمان البريطاني ، وتعطيل الملاحة في القناة وما ترتب على ذلك من مشكلات ومعارضة أمريكا ، وتدخل الأمم المتحدة وإنذار بلجانين » . والصحيح أن جميع هذه الأسباب كانت قائمة أو متوقعة ، والشيء « الوحيد الجديد هو إنذار بلجانين .

وإذا وازنّا بين موقف كل من الولايات المتحدة والاتحاد السوفيتي وجدنا أن موقف روسيا كان أكثر صراحة وقوة ، أما موقف الرئيس الأمريكي ، فكان موقف الحاذر ، الذى رأى نفسه يواجه فجأة بأن الدول التى كان يعدّها صديقة وفية قد خانته ، وارتكبت جرائم لا يستطيع

مهما تسامح وتهاون — أن يقرَّها عليها ؛ ورأى الدولة التى تعدّ أن ينظر إليها بوصفها العدو اللدود الذى لا يمكن أن يأتى عملا صالحاً ، رآها تتخذ موقفاً سلبيا لا غبار عليه . ورأى نفسه مضطراً للسير معها وتأييد موقفها فى مجلس الأمن ، ولعله كان يقسو على حليفتيه بلسانه لا بقلبه . أو لعله لم يستطع أن يتخلص من روابط الصداقة « التقليدية » حتى بعد أن ارتكب الصديق أفظع المنكرات . وقد تعودت أمريكا أن تقف مع إنجلترة ضد روسيا ، حتى إنها لم تستطع أن تبدل موقفها إلا بكثير من التحفظ والاحتياط .

وأمريكا فى هذا جدّ مخطئة : فقد استغلت الدولتان الاستعماريتان هذه الصداقة التقليدية وأمعنت كل منهما فى ارتكاب المنكر . وفى الانغماس فى الفظائع مع استيلائهما على المساعدات المالية الضخمة وتجنيهما الدائم على اليد التى تطعمهما وتغذيهما ! حتى سوّل لهما الغرور أنهما تستطيعان أن ترتكبا أى جرم دون أن يثير ذلك من الحكومة الأمريكية أكثر من كلمة تأنيب خفيفة لطيفة ! وقد طالعت قبل العدوان بوقت يسير مقالاً للمحرر [illegible] ينذر أمريكا فيه بأن فرنسا ستتحول إلى الشيوعية إذا لم تبسط سيطرتها التامة على الجزائر ، وتظل دولة استعمارية قوية ! وأكبر الظن أن الساسة الأمريكيين — أو كثيراً منهم — صدق هذه الترّهات . ونسى أن حاجة الفرنسيين والإنجليز إلى المساعدة الأمريكية أجلّ وأعظم من حاجة أمريكا إليهم ، ولئن ظلت هذه الأوهام مهيمنة على عقول طائفة من الأمريكيين ذوى النفوذ إن كل ما تنفقه الولايات المتحدة من الدولارات ، لن يساعدها على أن تتبوأ فى السياسة العالمية المكان الذى تصبو إليه .

موقف الدول والشعوب العربية

عندما اشتدت الضجة التى أثارها الفرنسيون والإنجليز حول تأمم شركة القناة ، تساءلت إحدى الصحف الأمريكية عن احتمال قيام بريطانيا وفرنسا بعدوان مسلح على مصر ، وهل تستعين الدولتان الكبيرتان فى مثل هذا العدوان بإسرائيل؟ فلم تتردد تلك الصحيفة فى التأكيد لقرائها أن هذا مستحيل ؛ لأن مثل هذا الإجراء سيترتب عليه بلا شك خروج العراق فوراً من حلف بغداد . ذلك ما أكدته صحيفة أمريكية واسعة الانتشار ، ومع ذلك فإن العدوان قد وقع على مصر ، واستخدمت فيه إسرائيل لكى يزداد بشاعة وفظاعة . ومع أن هذا الأمر قد أثار سخط عشرات الدول خارج العالم العربى ، فإن دولة العراق لم تفعل أكثر من قطع صلاتها السياسية مع فرنسا . ولكيلا ينظر واحد إلى هذا العمل بأنه خطوة ذات خطر يجمل بنا أن نذكر أن العراق لم يكن لها تمثيل سياسى بفرنسا إلا منذ نحو عامين ؛ لأنها لم تكن لها بباريس مصالح تهمها رعايتها . وقد أكد لكاتب هذه السطور أحد رحال العراق المحايدين — أن إنشاء سفارة للعراق بباريس كان استجابة لحالة شخصية بحتة ؛ ولا بد من ذكر هذه الحقيقة حتى نقدر الخطوة حق قدرها ؛ إذ من الجائز أن مثل هذا الإجراء كان متفقاً عليه من قبل . فهل كان هنالك تواطؤ مع العراق أيضاً يشبه — ولدينا بعض الوجوه — التواطؤ الذى عقد ما بين إسرائيل وفرنسا وبريطانيا ؟ إن كثيراً من الكتّاب قد أكد أن حكومة العراق أو رئيسها على الأقل كان على علم بالجريمة قبل وقوعها ، وأن طائرات بريطانية اشتركت فى الإغارة على مصر قد أقلعت من مطارات العراق ، حيث تزودت بالوقود والذخيرة . ويؤكد آخرون أن عدواناً آخر كان مقدراً له أن يتم على إثر نجاح العدوان على مصر ، ووجهته الأردن وسورية ، على أن تساهم العراق فى هذا العدوان . وقد قدمت الحكومة السورية للمحاكمة أفراداً اتهموا بالاشتراك فى إعداد مثل هذا الجرم .

لا شك أن ضم سورية والأردن إلى العراق فى دولة ثلاثية للهلال الخصيب مع تقليد الأمير عبد الإله عرش

سورية كان حلماً أو خطة يشتهى تحقيقها عدد من ساسة العراق، ولا شك أيضاً فى أن بريطانيا كانت تحبذ هذه الخطة وتؤيدها كل التأييد، ولكن إذا كان هنالك ساسة كثيرون يتمنون قيام مثل هذه الدولة، فإن قليلا جداً منهم من يرضى عن قيامها بمثل هذه الصورة وفى مثل تلك الظروف. فإذا صح أن عدواناً كهذا قد رسمت له الخطط وأعدت له العدة، فإن العدوان على مصر بدل أن يساعد على تنفيذها قد أفسدها تماماً. لأن الشعب العراقى قد أبدى السخط على العدوان الصهيونى البريطانى. وأظهر العطف على مصر شعبها وحكومتها، وامتد سخطه إلى حلف بغداد وكل ما يتصل به حتى أدرك ذلك النفر القليل أن القيام بالعدوان الثانى بات فى حكم المستحيل بسبب هياج الشعب العراقى نفسه بقطع النظر عن أسباب أخرى لها وجاهتها.

وقد اضطرت حكومة العراق إلى اتخاذ كثير من الإجراءات لتهدئة الحالة: بعضها عنيف استخدمت فيه القوة، وبعضها إجراء سياسى مثل وقف البرلمان، وبعضها من قبيل التهدئة مثل إبداء بعض العطف على مصر، والإشارة إليها بأنها «مصر المحبوبة» كما جاء على لسان رئيس الدولة فى الخطاب الذى ألقى بمناسبة وقف الحياة البرلمانية!

ولا حاجة بنا إلى إطالة الحديث عن موقف كل بلد عربى كما أطلنا الحديث عن العراق، لأن حالة العراق هى الحالة الوحيدة التى تنطوى على ظروف خاصة، فهو القطر العربى الوحيد الذى لا تتفق فيه سياسة الدولة مع رغبات الشعب؛ فإن شعب العراق كان فى طليعة الشعوب العربية حماسة ومن أشدها سخطاً على العدوان الثلاثى الدنىء؛ أما الحكومة العراقية فلم تكن تجارى الشعب فى حماسته، وكانت تفكر فى مصالح عدة معقدة وتحرص على مواردها من النفط أكثر من حرصها على أن تلعب دوراً خطيراً فى هذه الأزمة. ومن العجيب أننا نسمع أن رئيس حكومة العراق يريد أن يتولى قيادة العالم العربى. ولو أن هذا الزعم صحيح، لكانت أمام ذلك الزعيم فرصة نادرة لأن يقود الرأى العام العربى فى اتخاذ إجراءات إيجابية ضد كل من إنجلترة وفرنسا وإسرائيل؛ إنه كان يستطيع أن يكون له أعلى صوت فى إبداء السخط على عصابة البغى والإجرام، متبرئاً منها ومن كل اتصال بها. ذلك ما كان ينتظره منه العالم العربى بل العالم بأسره، ولكنه لم يفعل شيئاً من ذلك. وأكبر الظن أن فكرة الزعامة العربية ليست بالشىء الذى يهمه أن يناله، بقدر ما يهمه أن ينال عطف الإنجليز ومودتهم!

وقد قام أبناء الشعب الأردنى بتحطيم أنابيب البترول الذى يأتى من العراق إلى حيفا ماراً بديارهم، فما راعهم إلا أن رأوا البترول يتدفق من هذه الأنابيب بمقادير غزيرة. وعبثاً حاول أولو الأمر فى العراق أن يعتذروا بأن هذا البترول كان يقصد به تنظيف الأنابيب، حتى لا يعلوها الصدأ. فإن أحداً لم يعر ذلك العذر اهتمامه [illegible] الذى يهمه أن تظل هذه الأنابيب فى حالة جيدة [illegible] مع أنها لا تغذى سوى إسرائيل؟ لقد كانت تلك حجة واهية لم يقبلها أحد فى أى قطر من الأقطار، بل إن كلام الصهيونيين أنفسهم يكذبها.

وهكذا يبدو أن سياسة أولى الأمر فى العراق لم تتفق مع السياسة العربية عامة، ولا مع رغبات الشعب العراقى الذى لم يكن يقل فى عاطفته العربية الخالصة عن أى شعب عربى آخر...

والمقام لا يسمح — ولا أحسب بالقارئ حاجة — لأن أسهب فى موقف سورية العظيم، أو موقف الأردن الكريم أو المملكة السعودية التى حظرت على الأمريكيين أن يرسلوا قطرة واحدة من البترول للدول المعتدية. وأذعنت أمريكا لهذا الأمر.

وصفوة القول أن الوحدة العربية الحقيقية — وهى وحدة الشعوب والمشاعر والعاطفة — قد تجلت فى هذه المحنة فى أقوى صورة وأروعها.

ومما يجدر بالذكر أن هنالك — خارج دائرة العروبة — أمماً وحكومات اتخذت مواقف بالغة منتهى النبل ، وأبدت من العطف على مصر ، والتحمس لقضيتها ، ما يرفع العلاقات الدولية إلى أسمى المراتب . وفى طليعة هذه الدول الهند والصين ودول باندونج عامة . ولا يفوتنا أن ننوّه بموقف حكومة كندا التى لم تتردد فى الجهر بمعارضة السياسة الإنجليزية . فكان موقفها هذا أشدّ إيلاماً لحكومة إيدن من موقف أعضاء الكمنولث غير السكسونيين . . .

ومهما ضاق بنا المقام فى مقالنا هذا فإنه لا يمكن أن يضيق عن التنويه بالزعيم الهندى جواهر لال نهرو الذى جعل من هذه القضية قضيته وقضية شعبه ، وأبدى منذ اللحظة الأولى — دون تردد أو تريث — سخطه الشديد على العدوان الغاشم ، وأخذ يعلن هذا السخط فى كل مناسبة فى عبارات بالغة منتهى القوة . ويشعر كل سامع أو قارئ أنه يصدر فى أقواله عن إيمان وعقيدة . وكان أكبر ما يخشاه أن يستفحل الشر ويستحيل إلى نزاع عالمى . وهكذا أثبت نهرو أنه زعيم من أكبر زعماء السياسة العالمية ، وأن نظرته للأمور ليست محدودة بحدود جغرافية .

* * *

عواقب الغزو الثلاثى

لا بد لنا فى ختام هذا المقال من ذكر شىء عن عواقب ذلك الغزو الثلاثى الغريب الذى يوشك ألا يكون له فى التاريخ مثيل . والمقام لا يسمح بدراسة مفصلة لتلك العواقب . ولعله ليس من الحزم أن نسهب الآن فى الحديث عن النتائج أو العواقب ؛ لأننا ما زلنا نعيش وسط عواقب ذلك الغزو ، ولم تظهر بعد للعيان تماماً صورتها متكاملة . ولا شك أن المستقبل سيكشف عن نتائج لذلك الغزو ليست واضحة المعالم بعد .

لهذا نورد فى الفقرات التالية بكل تحفظ ما يبدو لنا أن من الممكن المبادرة بذكره فى هذا الصدد :

إن أول ما يسترعى انتباهنا أمر أظهره العدوان بقوة حتى أحسه العالم كله . ولئن كان هذا الأمر من قبل واضحاً كل الوضوح لكثير من المفكرين — إن العدوان قد أبرزه ، حتى كاد يلمسه كل إنسان ، وهذا الأمر ما لمركز القطر المصرى من الخطر فى العالم كله . فقد أثبت العدوان الإنجليزى الفرنسى أن مصر بحكم موقعها وسط العالم هى حجر الزاوية الذى يمسك بناء الشرق الأوسط والعالم العربى . ولئن سقطت مصر كما أراد لها إيدن وعصابته — إن بناء العالم العربى لن يستطيع الثبات ، وسينهار فى أثره بناء الشرق الأوسط ، فينشب الاستعمار مخالبه فى هذا الإقليم الحيوى من العالم ، ثم لا يلبث أن يستشرى ، وأن ينشر أذاه وطغيانه فى القارتين الإفريقية والأسيوية ! وذلك ما كانت تحلم به أكثر من بريطانيا وفرنسا . ولقد روى عن نابليون أنه زعم أن مصر أهم بلد فى العالم . وقد أظهر هذا العدوان الأخير ما اشتملت عليه هذه العبارة من صدق . وهذا المركز الجغرافى الممتاز يفرض على مصر أن ترقى بسياستها الداخلية والخارجية إلى مستوى رفيع .

ومما يتصل بهذا الأمر أن مصر قد شقت فى أرضها قناة تصل البحر المتوسط بالبحر الأحمر وتربط بين شرق العالم وغربه . وما دامت هذه القناة تؤدى وظيفها بانتظام فإن العالم لا يكاد يحس مالها من شأن وخطر . ومنذ افتتاحها فى عام ١٨٦٩ إلى اليوم لم يقم أحد أو قوة بتعطيلها ؛ فلم يكن أمام العالم مثال ملموس لما يترتب على هذا التعطيل . ثم جاء العدوان الغاشم فأدى إلى تدمير السفن وتعطيل الملاحة فى القناة ، فإذا العالم يناله الكثير من الأذى والحرمان بسبب هذا التعطيل . وكان بعض الدول يزعم أنه يخاف مصر على القناة . فإذا التعطيل يجىء من الدول التى تزعم أنها شديدة الحرص على حرية

الملاحة في القناة ! فلعل العالم اليوم يدرك أن مصر هي آخر من يفكر في تعطيل الملاحة في القناة . كما أن له أن يدرك أن مصر حين سمحت بشق القناة قد أولت العالم كله منة جليلة ونعمة عظيمة . وما أجدر العالم أن يعترف لها بهذا الجميل !

ومن أهم نتائج الغزو أنه أتاح لمصر أن تعرف نفسها ، وأصبح قادة الأمة يعلمون علم اليقين مبلغ ما في الشعب من القوة والاستعداد . وقد لمسوا تفانيه في الإخلاص لمن يتفانون في خدمته . ولو قدّر لمصر أن تمرّ بها محنة أخرى فإنها ستقتحمها بقلب ملؤه الثقة والعزم ، وستعرف كيف نعيّ قوانا ونوجه جهودنا في حزم وإيمان .

وقد ترتب على العدوان الغاشم زوال الاتفاقية القائمة بين مصر وبريطانيا التي وقعت بنودها في ٢٧ من يولية وأبرمت في ١٩ من أكتوبر سنة ١٩٥٤ . وكانت تنص من جهة على جلاء القوات البريطانية عن أرض مصر بعد عشرين شهراً، وكان عددها وقت توقيع الاتفاق ٨٣,٠٠٠ شخص ؛ ومن جهة أخرى تنص على عودة الاحتلال إذا ما تعرضت مصر أو أعضاء جامعة الدول العربية المرتبطة في ذلك الوقت بميثاق الضمان الجماعي أو تركيا — للعدوان في أثناء السنوات السبع التالية لتوقيع الاتفاقية . وفي هذه الحالة تقدم مصر جميع التسهيلات في الموانى والمطارات وطرق المواصلات وغير ذلك من مظاهر الاحتلال .

كذلك جاء في أحد البنود الاعتراف بأن قناة السويس البحرية وهي جزء لا يتجزأ من أرض مصر — طريق له أهمية دولية من جهة النواحي الاقتصادية والتجارية والعسكرية ؛ ولذلك يصرّ الفريقان المتعاقدان على احترام اتفاق ١٨٨٨ الذي يضمن حرية الملاحة في القناة ؛ ويجد القارئ النص الكامل لتلك الاتفاقية ملحقاً بهذا المقال .

ولا شك أن النص على عودة الاحتلال بما اشتمل عليه من مظاهر سمجة ممقوتة ، كان أمراً كريهاً على المفاوض المصري ، ولكنا قبلناه ثمناً للجلاء عن أرضنا ، ولعلنا كنا مؤمنين بأن الظروف التي نصت عليها الاتفاقية لعودة الاحتلال بعيدة الاحتمال .

قضى العدوان البريطاني على تلك المعاهدة القضاء المبرم . ويديهي أن مصر ليست هي التي قتلتها ، بل قتلتها بريطانيا بعدوانها الجنوني الأثيم . فإن أساس تلك الاتفاقية التي صدّرت به بنودها هو « العمل على بناء العلاقات المصرية البريطانية على أساس جديد من التفاهم المتبادل والصداقة الثابتة . » ولن يستطيع أحد حتى إيدن نفسه أن ينكر أن بريطانيا قد قوضت ذلك الأساس بتدبيرها وتزعمها لذلك العدوان الدنيء الذي لا يمكن أن يبقى معه تفاهم متبادل أو صداقة ثابتة . فمصر إذن لم تنبذ الاتفاقية ، بل اعترفت فقط بأنها لم يصبح لها وجود .

* * *

ومن نتائج العدوان أن الصهيونيين قد كشفوا للعالم العربي عن المصير الذي يريدونه للأقطار العربية كلها . فلم يكد يستقر بهم المقام في سيناء حتى أعلنوا أنها ليست من أرض مصر . وأنها ملك خالص لهم . ثم أثبتوا للعالم كله أنهم قوم لا يعرفون معنى للذمة وحفظ العهد . وأنهم لا يتورعون عن ارتكاب أفظع الجرائم التي تنزل بهم إلى الدرك الأسفل من النذالة واللؤم . كما أثبتوا مرة أخرى أن سياستهم في دير ياسين لا تزال هي سياستهم ، ولا يزال قتل النساء والعجزة والأطفال دينهم وديدنهم !

ولعل أهم نتيجة للعدوان من وجهة نظر المعتدين ، أنه منى بالفشل التام : فقد أعلن المعتدون في إنذارهم يوم ٣٠ من أكتوبر أن أدنى مطالبهم احتلال السويس والإسماعيلية وبور سعيد ، كما أعلنت منشوراتهم الساقطة من السماء أنهم يريدون إسقاط حكومة الثورة ، ودلت أعمالهم الصبيانية على أن من أهم أهدافهم تعطيل الإذاعة

المصرية الموجهة إلى العالم العربي .

وصفوة القول أنهم كانوا يرمون إلى إذلال مصر واستعبادها ؛ بحيث تخضع لهم خضوعاً تاماً ، وبخضوعها يتقلص ظل الحرية والاستقلال عن جميع بلاد العالم العربي مشرقه ومغربه . ويعود العهد الاستعماري إلى الازدهار ؛ وتستطيع كل من فرنسا وإنجلترة أن تحس أنها لم تعد دولة فى المرتبة الثانية أو الثالثة ، وأن فى وسعها أن تتخلص من ذلك الاستعباد الأمريكي الذى يغلها بأصفاد شداد، ويعاملها معاملة من يمن علىها بلقمة الخبز التى تقتات بها من يديه !

تلك كانت بغية الإنجليز والفرنسيين ، وتلك كانت أهدافهم . وقد منيت هذه الأمانى بالفشل الذريع. وارتد العدوان عن أهدافه بالحسرة والضغينة . وعادت إنجلترة تمد يد الضراعة والاستجداء إلى الولايات المتحدة: تستجدى البترول للصناعة والتدفئة والحركة ، وتستجدى ملايين الدولارات لتقى عملتها شر التدهور ؛ كما التمست من أمريكا إعفاءها من تسديد القرض المستحق الأداء .

وهكذا عادت إنجلترة خاضعة ذليلة تمشى كالكلب وراء الولايات المتحدة، وذنبها بين رجليها . ولابد لها أن تطيع وأن تقبل ما يفرض عليها بدون قيد ولا شرط ؛ لأن السائل — كما يقول المثل الإنجليزى — لا يستطيع أن يفرض شروطاً .

على أن مصر جديرة — وهى ترى العدوان يرتد بالفشل والخزى — ألا تهمل الحذر واليقظة ؛ فإن العدوان قد يتخذ سبيلا جديدة أو صوراً جديدة . ومن الصعب أن نتصور كيف تعود الصلات بين مصر وبريطانيا ولو إلى أقل مما كانت عليه ما دامت شئونها فى يد حكومة تدين فى القرن العشرين بعقلية القرن الماضى . ولا تزال ترى العدوان سبيلا مشروعاً ، والكذب والخسة والخيانة أسلحتها المفضلة !

وقد أدركت حكومة الولايات المتحدة أن ما اقترفته إنجلترة وفرنسا من المنكر قد انهار معه كل ما كان لهما من سمعة أو مكانة فى العالم العربى . وهذا إدراك سليم ؛ ولكن ليس من الإدراك السليم أن تتوهم أمريكا أن سقوط تلك المكانة قد ترك فراغا فى مصر أو فى البلاد العربية ؛ فإن اعتناق نظرية « الفراغ » هذه ، يجعلنا مع الأسف نعتقد أن فى ساسة أمريكا نقطة ضعف نحو حلفائهم، وميلا إلى الاقتناع بترهاتهم ؛ فنظرية الفراغ تقوم على رأى استعمارى قديم ، وطالما اتخذ المستعمرون من هذه النظرية حجة لبسط طغيانهم ولسلب الأمم حريتها واستقلالها . وجدير بأمريكا ألا تنخدع بتلك الحجج الواهية ، وأن يسأل ساستها أنفسهم : هل الجلاء عن الهند وعن برما وسيلان ترك فراغاً ؟ . . .

لقد أتاح العدوان الإنجليزى الفرنسى فرصة لأن تمارس كل من أمريكا وروسيا سياسة واحدة أو متقاربة، وقد كان بين المراقبين السياسيين من بلغ به حسن الظن أن توهم أنه قد يحدث تقارب بين الدولتين يؤدى إلى تخفيف الحرب الباردة أو إلى زوالها . . ولا شك أنها كانت فرصة تستحق أن تنتهز . ولكن انتهازها كان يتطلب عقولا أكثر مرونة ، وأكثر قابلية للتحرر من الماضى ولإدراك الظروف الجديدة والعمل على حسن استغلالها . بيد أن الولايات المتحدة لم تزل أمورها فى يد رجال شديدى التأثر بأحداث الماضى القريب ، لا يستطيعون أن يكيفوا مسعاهم طبقاً للأحوال المتغيرة، وربما كانت الاتصالات الشخصية بين الساسة على جانبى المحيط الأطلنطى لها أثرها وقيودها التى ليس من السهل التحلل منها .

ونحن — إذ نختم مقالنا هذا — نعيد ما أسلفنا من أننا لا نبغى هنا أن نكشف عن حقائق جديدة، بل يعنينا أن نجمع فى حيز واحد ، وفى صورة سهلة يسيرة ، تلك النواحى الكثيرة لذلك الحادث الجلل الذى لم يمر بمصر أشد منه خطراً منذ الاحتلال البريطانى لمصر فى الربع الأخير من القرن الماضى .

نص اتفاق ١٩ من أكتوبر سنة ١٩٥٤

بن حكومة جمهورية مصر وحكومة المملكة المتحدة لبريطانيا العظمى وشمال أيرلندة ، إذ ترغبان فى إقامة العلاقات المصرية – الإنجليزية على أساس جديد من التفاهم المتبادل والصداقة الوطيدة .

قد اتفقتا على ما يأتى :

(المادة ١)

تجلو قوات صاحبة الجلالة جلاء تاما عن الأراضى المصرية وفقاً للجدول المبين فى الجزء (أ) من الملحق رقم (١) خلال فترة عشرين شهراً من تاريخ التوقيع على الاتفاق الحالى .

(المادة ٢)

تعلن حكومة المملكة المتحدة انقضاء معاهدة التحالف الموقع عليها فى لندن فى السادس والعشرين من شهر أغسطس سنة ١٩٣٦ ، وكذلك المحضر المتفق عليه ، والمذكرات المتبادلة والاتفاق الخاص بالإعفاءات والميزات التى تتمتع بها القوات البريطانية فى مصر وجميع ما تفرع عنها من اتفاقات أخرى .

(المادة ٣)

تبقى أجزاء من قاعدة قناة السويس الحالية . وهى المبينة فى المرفق (أ) بالملحق رقم (٢) فى حالة صالحة للاستعمال ومعدة للاستخدام فوراً وفق أحكام المادة الرابعة من الاتفاق الحالى . وتحقيقاً لهذا الغرض يتم تنظيمها وفق أحكام الملحق رقم (٢) .

(المادة ٤)

فى حالة وقوع هجوم مسلح من دولة من الخارج على أى بلد يكون عند توقيع هذا الاتفاق طرفاً فى معاهدة الدفاع المشترك بين دول الجامعة العربية الموقع عليها فى القاهرة فى الثالث عشر من شهر إبريل سنة ١٩٥٠ ، أو على تركيا ، تقدم مصر للمملكة المتحدة من تسهيلات ما قد يكون لازماً لتهيئة القاعدة للحرب و إدارتها إدارة فعالة . وتتضمن هذه التسهيلات استخدام الموانى المصرية فى حدود ما تقتضيه الضرورة القصوى للأغراض سالفة الذكر .

(المادة ٥)

فى حالة عودة القوات البريطانية إلى منطقة قاعدة قناة السويس وفقاً لأحكام المادة (٤) ، تجلو هذه القوات فوراً بمجرد وقف القتال المشار إليه فى تلك المادة .

(المادة ٦)

فى حالة حدوث تهديد بهجوم مسلح من دولة من الخارج على أى بلد يكون عند توقيع هذا الاتفاق طرفاً فى معاهدة الدفاع المشترك بين دول الجامعة العربية ، أو على تركيا يجرى التشاور فوراً بين مصر والمملكة المتحدة .

(المادة ٧)

تقدم حكومة جمهورية مصر تسهيلات مرور الطائرات وكذا تسهيلات النزول وخدمات الطيران المتعلقة برحلات الطائرات التابعة لسلاح الطيران الملكى التى يتم الإخطار عنها . وتعامل حكومة جمهورية مصر هذه الطائرات فيما يتعلق بالإذن بأية رحلة لها معاملة لا تقل عن معاملتها لطائرات أية دولة أجنبية أخرى مع استثناء الدول الأطراف فى معاهدة الدفاع المشترك بين دول الجامعة العربية . ويكون منح التسهيلات الخاصة بالنزول وخدمات الطيران المشار إليها آنفاً فى المطارات المصرية فى منطقة قاعدة السويس .

(المادة ٨)

تقر الحكومتان المتعاقدتان أن قناة السويس البحرية – التى هى جزء لا يتجزأ من مصر – طريق مالى له أهميته الدولية من النواحى الاقتصادية والتجارية والاستراتيجية ، وتعربان عن تصميمهما على احترام الاتفاقية التى تكفل حرية الملاحة فى القناة الموقع عليها فى القسطنطينية فى التاسع والعشرين من شهر أكتوبر سنة ١٨٨٨ .

(المادة ٩)

(أ) لحكومة المملكة المتحدة أن تنقل أية مهمات بريطانية من القاعدة أو إليها حسب تقديرها .

(ب) لا يجوز أن تتجاوز المهمات القدر المتفق عليه فى الجزء

(ج) من الملحق رقم (٢) إلا بموافقة حكومة جمهورية مصر .

(المادة ١٠)

لا يمس الاتفاق الحالى ، ولا يجوز تفسيره على أنه يمس بأية حال بحقوق الطرفين والتزاماتهما بمقتضى ميثاق الأمم المتحدة .

(المادة ١١)

تعتبر ملاحق هذا الاتفاق ومرافقاته جزءاً لا يتجزأ منه .

(المادة ١٢)

(أ) يظل هذا الاتفاق نافذاً مدة سبع سنوات من تاريخ توقيعه .

(ب) تتشاور الحكومتان خلال الاثنى عشر شهراً الأخيرة من تلك المدة لتقرير ما قد يلزم من تدابير عند انتهاء الاتفاق .

(ج) ينتهى العمل بهذا الاتفاق بعد سبع سنوات من تاريخ التوقيع عليه ، وعلى حكومة المملكة المتحدة أن تنقل أو تتصرف فيما قد يتبقى لها وقتئذ من ممتلكات فى القاعدة ما لم تتفق الحكومتان المتعاقدتان على مد هذا الاتفاق .

(المادة ١٣)

يعمل بالاتفاق الحالى على اعتبار أنه نافذ من تاريخ توقيعه ، تتبادل وثائق التصديق عليه فى القاهرة فى أقرب وقت ممكن .

وإقراراً بما تقدم وقع المفوضون المرخص لهم بذلك هذا الاتفاق ووضعوا أختامهم عليه .

تحرر فى القاهرة فى اليوم التاسع عشر من أكتوبر سنة ١٩٥٤ من صورتين باللغتين العربية والإنجليزية ويعتبر كلا النصين متساويين فى الرسمية » .

جمال عبد الناصر	هـ . أ . نتنج
عبد الحكيم عامر	ر . س . ستيفنسون
عبد اللطيف البغدادى	ر . بنسون
صلاح سالم	
محمود فوزى	

العدوان على مصر ومشكلة الزيت

بقلم الأستاذ وديع فلسطين

كان أول صدى للعدوان الثلاثى على مصر انقطاع الوارد من زيت البترول عن العالم الغربى جميعه ، واضطرار الصناعة إلى التراخى ، ووسائل المواصلات إلى الاقتصاد ، وعمّ الظلام بل الإظلام شوارع مدن أوروبا الرئيسة ، وصار الناس حتى رجل الشارع ، يشكون نقصاً فى الوقود لطهو الطعام ،ولإضاءة المنازل والتدفئة ، ولإدارة السيارات ،ولغير ذلك من الأغراض اليومية التى يستخدم فيها هذا الوقود. فما الحقائق الأساسية فى صناعة الزيت ؟ وكيف حلّت الكارثة باقتصاد أوروبا ، وهى كارثة يلوح أن الدول المعتدية لم تحسب لها أىّ حساب قبل أن تقدم على فعلتها النكراء ؟

كانت أوروبا بعيد الحرب العالمية الثانية تعتمد على نصف الكرة الغربى فى تزويدها بحاجتها من الزيت ، وذلك بفضل ما قضت به أحكام مشروع مارشال لإغاثة أوروبا ، وكان الشرق الأوسط لا يزال فى مطالع عهده بالزيت ، فلا ظهرت الكويت على الخريطة البترولية ، ولا برزت المملكة العربية السعودية كدولة منتجة للزيت ، أما العراق فكان بطىء الإنتاج إلى حدّ ما .

ولكن سرعان ما تبين للولايات المتحدة أن موارد الزيت فى الشرق الأوسط آخذة فى النموّ السريع ، على حين أن الموارد الأمريكية تجنح إلى النضوب ، فرئى أن تعدو أوروبا الغربية معتمدة اعتماداً تامّاً على بترول الشرق الأوسط لأسباب شتى : منها غنى موارده الحالية والمستقبلة ، وقربه من أسواق التصدير ، وقلة نفقات إنتاجه * ونقله بالقياس إلى نفقات إنتاج الزيت الأمريكى ونقله ، وأداء ثمن الزيت بالعملة السهلة لا بالدولار العصىّ المنال ، أضف إلى ذلك أن لدول غربى أوروبا كبريطانيا وفرنسا وهولندا مصالح تتمثل فى الشركات التابعة لهذه الدول التى لها نسبة كبيرة من أسهم بترول الشرق الأوسط .

والبلاد المنتجة للزيت فى هذه الرقعة من العالم هى بالترتيب التاريخى للكشف عن الزيت فيها : مصر (وإنتاجها السنوى نحو مليون طن) ، وإيران (ويبلغ إنتاجها السنوى الآن ١٦ مليون طن) ، والعراق (وإنتاجها السنوى نحو ٣٣ مليون طن) ، والبحرين (ومعدل إنتاجها مليونا طن فى السنة) ، والمملكة العربية السعودية (وتنتج ٤٧ مليون طن فى العام) ، والكويت (وهى أكثر الدول العربية إنتاجاً إذ يبلغ معدّله السنوى ٥٤ مليون طن) ، وقطَر (التى تنتج نحو خمسة ملايين طن).

أما الشركات التى تعمل فى هذه البلاد ، فتتألف بحسب جنسيتها من الشركات الآتية :

فى مصر شركات مختلفة ، فيها مصالح إنجليزية وفرنسية وأمريكية وبلجيكية وألمانية ومصرية .

وفى إيران اتحاد « لشركات البترول » قوامه مصالح إنجليزية وأمريكية وهولندية وفرنسية .

وفى العراق شركات بريطانية وهولندية وفرنسية وأمريكية
وفى البحرين والمملكة العربية السعودية شركات أمريكية
وفى قطَر شركات إنجليزية وهولندية وفرنسية وأمريكية
وفى الكويت شركات إنجليزية وأمريكية .

وتقوم هذه الشركات بإنتاج الزيت من منطقة

(*) يتكلف إنتاج الطن من الزيت ١٫٩٧ من الدولار فى الخليج الفارسى ، ٣٫٢٥ من الدولار فى خليج المكسيك .

الشرق الأوسط بأسماء شتى ، ثم تكرَّر بعضه معامل فى المنطقة نفسها ، وتصدر الزيت إما خاماً وإما مكرراً بطريقتين : أولاهما السفن الناقلة التى كانت تبحر فى المعتاد عن طريق قناة السويس إن كانت وجهتها أوروبا ، أو عن طريق المحيط الهندى إن كان مقصدها الشرق الأقصى ، والأخرى أنابيب الزيت الممتدة من مختلف البلاد المنتجة إلى ساحل البحر المتوسط ، وهى كما يأتى :

أنابيب للزيت العراق تمتدُّ من كركوك فى شمالى العراق إلى ميناء بانياس على شاطئ سورية ، وأنابيب أخرى للزيت العراقى تمتد من كركوك إلى طرابلس فى لبنان عبر سورية . وأنابيبُ الزيت السعودى تمتد من الخليج الفارسى إلى صيدا على ساحل لبنان عابرة المملكة العربية السعودية والأردن وسوريةَ ولبنان .

وطاقة أنابيب الزيت العراقى نحو ٥٠٠ ألف برميل فى اليوم على حين أن طاقة أنابيب التابلاين السعودية نحو ٣٠٠ ألف برميل فى اليوم أو أكثر قليلا .

فلما وقع العدوان الثلاثى على مصر ، سُدَّت قناة السويس أمام ١½ مليون برميل زيت كانت تعبرها فى كل يوم إلى أوروبا . ثم انقطع البترول العراقى ، وهو نحو ٥٠٠ ألف برميل فى اليوم ، وانخفض إنتاج الزيت السعودى بنسبة ٣٠٪[١] فنقص وارد أوروبا الغربية بمقدار ٣٠٠ ألف برميل فى اليوم ، فبلغت خسارة أوروبا يومياً نحو ٢,٣٠٠,٠٠٠ برميل من الزيت الخام . أما البترول العراقى والكويتى والإيرانى والسعودى الذى تسنى له أن يصل إلى موانى أوروبا الغربية ، فكان حتما عليه أن يجتاز طريقا طويلا .

فإذا عرفنا بعد ذلك أن أوروبا تحتاج إلى ثلاثة ملايين برميل من الزيت فى اليوم ، وأن انتظام ورود البترول للشرق الأوسط منذ الحرب العالمية الثانية قد جعل بلدان أوروبا الغربية فى غنى عن اختزان البترول إلا لما يكفيها شهراً أو نحوه ، وإذا عرفنا أن البترول القليل الذى يصل إلى أوروبا من البلدان العربية يمتنع على كل من بريطانيا وفرنسا ، وإذا عرفنا أن جزءاً لا يستهان به من ناقلات الزيت المشتغلة بالنقل مملوك لبريطانيا وفرنسا ، وهى ممنوعة من أن تنقل الزيت العربى ، وإذا عرفنا أن زيت الطوارئ الذى تريد أمريكا أن تبعث به من نصف الكرة الغربى إلى أوروبا الغربية هو زيت يؤدَّى ثمنه بالدولار ، وإذا عرفنا أن قناة السويس لن تغدو مفتوحة تماماً أمام الملاحة الطبيعية إلا بعد انقضاء بضعة أشهر — إذا عرفنا كل ذلك — أدركنا مبلغ الشدة التى ألمت بأوروبا الغربية نتيجة لانقطاع وارد الزيت العربى عنها .

وقد ارتفعت الأسعار نتيجة لطول الرحلة بين منابع الإنتاج وأماكن الاستهلاك ، فقد كانت ناقلة البترول تقطع المسافة بين الخليج الفارسى وأوروبا الغربية عن طريق قناة السويس فى نحو ١٨ يوماً (مسافة ٥٠٠٠ ميل) أما اليوم فيتعين على السفن أن تقطع مسافة ١١,٣٠٠ ميل فيما لا يقل عن ٣٢ يوماً ، مع ما يترتب على ذلك من بطء فى التسليم وارتفاع فى استهلاك وقود السفن ، وكذلك إرهاق للناقلات فى رحلة الذهاب ، وعودتها فارغة فى رحلة الإياب الطويلة . ودع عنك أن ميناء رأس الرجاء الصالح لم يكن معداً للحركة المتزايدة من السفن القادمة من مناطق الزيت ، وقد أعلنت إدارة الميناء ، على ما وردت الصحف ، أنها ستجعل الأولوية للسفن التى اعتادت الرسو فى الميناء قبل أزمة السويس .

إن أزمة السويس قد أبرزت حقائق لم تبرز من قبل : منها أن أوروبا الغربية تعتمد على زيت الشرق اعتماداً رئيساً وأن استمرار تدفق الزيت العربى إلى هذه البلدان لا يمكن تحقيقه إلا إذا سادت علاقات طيبة بين الشعوب العربية وشعوب العالم الغربى ، وأن الزيت وسوقه متكاملان ، فلا قيمة للزيت ما لم ينقل إلى سوق ، ولا قيمة للسوق إن لم يصل إليها وارد الزيت .

---

(١) انخفض الإنتاج فى المملكة العربية السعودية لقطع الزيت عن جزيرة البحرين ، حيث كان يكرر ، ولاضطرار ناقلات الزيت إلى الإبحار حول رأس الرجاء الصالح بدل قناة السويس ، ولأن الحكومة العربية السعودية حظرت التعامل مع السفن والعملاء الإنجليز والفرنسيين .

يونس في جوف الحوت

بقلم الدكتور زكي نجيب محمود

سرى الشرّ واستشرى في المدينة العظيمة « نينوى » فلم تعد تربط الناس بعضهم ببعض أواصر العدل والرحمة ، وانقطعت بين الناس والله صلات الطاعة والعبادة ، فقسا على الضعيف من استطاع أن يقسو ، وخدع الخادع ، ونهب الناهب ، واستبدّ المستبد ، فأوحى الله إلى يونس أن قم في أهل نينوى منادياً بتقويم ما اعوجّ من أمرهم وبإصلاح ما فسد ، فما ينبغي لمدينة عظيمة كنينوى ، يعمر أهلوهـا اثنى عشرة ربوة ويفيض فيها من نعيم الله ما ملأ بقاعها بالماشية والغنم ، ما ينبغي لمدينة عامرة غنية كهذه أن يسلك أهلها سبل الضلال ، وأن يختلط في أعينهم الحق والباطل حتى هم لا يعلمون أين يمينهم من يسارهم ؟

لكن يونس قد هاله هذا العبء الجسيم يلقى على كاهله ، فهو لم يؤمر بهداية رجل واحد أو تقويم أسرة واحدة ، بل أمر بإصلاح مدينة عظيمة زاخرة بما فيها ، فلم يجد بدّاً من الفرار . . . الفرار من وجه الله مبعداً عن نينوى ! إذ لو بقي هناك لأرّق جنبيه لذع ضميره كلما شهد في المدينة فساداً ، وهو الذي أمره الله أن ينهض بتطهيرها من فسادها ، فقصد إلى شاطئ البحر عند « يافا » حيث وجد سفينة أوشكت أن تقلع بركبها ، فدفع الأجر إلى ربّانها ، ونزل مع سائر الركب ، ليذهب معهم إلى حيث يذهبون .

ولم تكد السفينة تضرب في عرض البحر حتى هبت ريح عاتية ماج لها البحر واضطرب ، وأخذ الموج يعلو بالسفينة ويهبط ، ويدفعها إلى هناك ثم يجذبها إلى هنا ، ويميل بها نحو اليمين مرة ونحو اليسار أخرى ، وفي كل مرة تميل حتى تمسّ حافتها سطح الماء ، فتوشك أن تغترف منه تملأ جوفها ، وإن هي إلا سفينة من خشب ؛ فليست هي من صلب أو حديد لتقاوم هذا الدفع العنيف وهي آمنة ، فأخذ الفزع بقلوب أصحابها وركابها ، فراحوا يصيحون في هلع ، ويتجاذبون في فزع ، ويتخاطبون في رعب وانفعال ، وجعلوا يقذفون في البحر ما قد حملته السفينة من متاع ؛ لعل حملها إذا ما خفّ عنها سلس في أيديهم قيادها . وجثا كل من فيها متجهاً إلى ربه داعياً أن يزيل عنهم الكرب . . إلا يونس ، فقد أوى وحده إلى ركن من قاع السفينة ليغط في نوم عميق . فلما كشف عن أمره نزل إليه الربان وأيقظه في غضب ؛ إذ كيف يطيب له نوم والدنيا بأسرها من حوله ثائرة صاخبة ؟

* * *

كان المسافرون على يقين بأن النكبة إنما قُصد بها واحد منهم ، فمن ذا يكون يا ترى ؟ من ذا عسى أن يكون هذا الواحد الذى أغضب ربه حتى أنزل ربه الغضب على السفينة كلها ؟ فاتفقوا على رمي القرعة ، ومن وقعت عليه كان هو المسئول عما حلّ بهم من كوارث ، وألقوا القرعة ، فوقعت على « يونس » .

أحاطوا جميعاً به ، كلٌّ يسأله سؤالا : من أنت ؟ ما صناعتك ؟ من أى أرض أتيت ؟ إلى أى شعب تنتمى ؟ ماذا فعلت لتغضب الله ؟ . . . فأجابهم يونس قائلا : إن الله قد أمرني بأمر فلم أطعه ، وفررت من

وجهه خائفاً ، وجئت إلى مركبكم هذا يذهب بى إلى حيث تذهبون . . وصمت « يونس » قليلا ينظر إلى الفازعين الجازعين من حوله، ثم قال فى هدوء : « اطرحونى فى البحر يسكن لكم البحر ويهدأ ، إن هذه الرياح العاتية وهذا الموج الثائر إنما يصيحان فى طلبى »

وأشفق أصحاب السفينة من فعل ما أذن لهم يونس أن يفعلوه به ، وآثروا أن يعودوا بالسفينة إلى البر ، لكن موج البحر قد استعصى على مجاديفهم ، فالتمسوا من الله عفواً ورحمة ، ثم حملوا يونس وألقوه فى البحر ، فسكن البحر من فوره .

وكان الله قد أعدّ ليونس حوتاً ضخماً ، فابتلعه الحوت حيث استقرّ يونس فى جوفه ثلاثة أيام !

* * *

فريدةٌ فى نوعها هذه العزلة العجيبة التى فرضت على يونس إذ هو فى جوف الحوت ! يسيرٌ على خيالنا أن نتصور العزلة فى مختلف صنوفها إلا هذه العزلة الفريدة العجيبة ، يسيرٌ على الخيال أن يتصور الراهب وقد اعتزل الدنيا فى صومعة يحفرها فى صخر الجبل النائى ، أو يقيمها بين كثبان القفر البعيد ، ويسيرٌ على الخيال أن يتصور رجل العلم وقد ألهاه علمه عن شئون دنياه فاعتزل فى مكتبته أو معمله يقيم فيه لا يبرحه ، حتى لكأن بينه وبين العالم الخارجى سدًّا منيعاً إلا ما قد تسلل إليه من أخباره على صفحات الكتب ، أو فى مخابير التجارب ، ويسيرٌ على الخيال أن يتصور الشاعر أو الفنان وقد ارتضى لنفسه المقام على ربوة عالية أو فى جوف وادٍ عميق مستغنياً بأنس الطبيعة عن كل أنيس من بشر .

أما هذه الصومعة الفريدة التى أوى إليها يونس فأمرها عجب : إن ظلامها بغير شك كان دامساً طامسا ، ولكن ليست غرابتها فى ظلامها ، فقد كان يونس على الأرجح طريحاً فى جوف الحوت ، لم يكن على الأرجح واقفاً أو جالساً ، إذ لابد أن يكون الحوت قد التقمه مستقيماً من رأسه إلى قدميه أو من قدميه إلى رأسه ، ولبث هنالك ملقًى لايأتيه أثر من العالم الخارجى إلا ما جاءه عن طريق الحوت . لقد كان الحوت يسير به فى طريق مستقيمة أو متعرجة ، يعلو به أو يهبط ، ويونس لا يدرى من ظروف البحر شيئاً : هل تكون سبيل الحوت فى البحر ملأى بالأخطار أو هينة آمنة ؟ وهل يكون البحر هائجاً مائجاً أو هادئاً ساكناً ؟

لكن الذى كان يعلمه يونس عندئذ فى يقين هو أن مقامه هناك محفوف بالمكاره ، فلم تكن معدة الحوت بالطبع خالية إلا من يونس فيتمدد فيها على راحة جسمه ، بل لا بد أن كانت معه هناك أعلاق من أعشاب البحر ، ومخزون من صنوف السمك المزدرد ، ولم يكن ذلك كله يابساً جافًّا ، بل كان رطباً زلقاً بما فى المعدة من إفراز وماء !

حقاً لم يكن المقام هناك مريحاً طيبا . ترى ، ماذا كانت ضروب الخواطر التى تسنح ليونس وهو فى ذلك الجوف العجيب ؟ أحسبُ أن سوانح الخواطر لم تطل به أكثر من بضع ساعات ، أما بقية الأيام الثلاثة التى قضاها هناك فلا بد أن يكون قد أصابه خلالهـا إغماء وغيبوبة . . . إن أول خاطر له فيها أحسب هو هذا المصير المحزن الذى ينتهى إليه الإنسان إذا ما تقطعت الوشائج بينه وبين العالم الذى يعيش فيه . قل ما شئت فى استقلال الفرد بنفسه عما يحيط به ، لكنه جزء من كل ، وواحد من جماعة ، يستمد قيمته من روابطه بما يحيط به أضعاف ما يستمدها من نفسه ، كالواحد فى أرقام الحساب ، يستمد معظم قيمته من وضعه : أفى فئة الآحاد هو أم فى فئة العشرات أم المئين ؟ إنه كما يرتبط الإنسان بمحيطه الهوائى شهيقاً وزفيراً — فكذلك لامنلوحة له عن ارتباطه بالعالم أخذاً وعطاء . فاقطع حبل الهواء من شهيق وزفير تحبس بذلك

أنفاس الحياة ، وكذلك تكون الحال بين الفرد وعالمه .

إنها محنة أن تقع القطيعة بين الإنسان والعـالم ؛ ترى كيف أحس أولئك الذين ضلت بهم سبيل البر أو سبيل البحر فى يباب قفر أو أغرقوا فى يم لا يسمع أناتهم سامع ؟ ومع ذلك فأولئك جميعاً كان يؤنسهم ضوء الشمس، أما هذا المصير فى هذا الجوف الأعتم العجيب...

إنى لأعجب الآن : كيف يقضى امرؤ على نفسه بالعزلة المطلقة مختاراً ؟ فباختياره يقطع الأسلاك ، ويبتر الروابط والصلات ، ويضرب حول نفسه نطاقاً من خلاء ، ثم ينصرف إلى دخيلة نفسه ليتغذى بغذاء من جوفه ؛ فيكون الحارق هو نفسه المحترق ، والآكل هو نفسه المأكول !

لقد أردت فراراً من التبعة التى ألقاها الله على كتفى إزاء أهل نينوى ، وظننت أن فى البعد عن مجال الإصلاح راحة لضميرى ، فهأنذا قد انتهيت إلى العزلة المنشودة ! ألم يكن ذلك ما أردته لنفسى ؟

وهاهنا أخذ « يونس » يوجه الدعاء إلى ربه : اللهم ، إنى أدعوك من ضيق فاستجب دعائى ؛ وأصرخ من جوف الهاوية فاستمع إلى صوتى ، إنك قد طرحتنى هاهنا فى جوف حوت يغوص بى إلى الأعماق، يحيط بى الماء ، وتجرى من حولى لجة البحر ، لقد اكتنفنى الماء حتى صميمى ، والتف عشب البحر برأسى . اللهم ، افتح أمامى هذه المغاليق ، أم ترى قد سدت فى وجهى مغاليق الدنيا إلى الأبد ؟

* * *

واستجاب الله ، فأمر الحوت أن يقذف حمله على الشاطئ ، فلفظ الحوت « يونس » على البر عليلا سقيماً ، فما إن ارتدت إليه قواه حتى عاد الله فأمره بأداء الرسالة نفسها ، وهى أن يذهب إلى نينوى ، فيصلح من أمرها . وكانت المحنة قد علّمت يونس ألا يعصى لله أمراً ، ففعل هذه المرة كما أمر ، وصلحت نينوى ما شاء لها الله أن تصلح .

وكأنما أراد الله أن يعلم « يونس » درساً آخر فى أداء الإنسان رسالته لمدينته ، فأنبت عليه شجرة من يقطين ، لتقيه لفحة الشمس، إذ هو جالس خارج المدينة يرقب أحداثها . ونعم « يونس » بظل اليقطينة يوماً كاملا ، وحسب أن سيدوم له ظلها الوارف ، لكن فجر اليوم التالى لم يبزغ حتى أعد الله لشجرة اليقطين دوداً أتى عليها . وتعرض « يونس » لوقدة الشمس من جديد ، وهبت عليه ريح شرقية حارة ، حتى أخذ منه اليأس مأخذاً آثر معه الموت على الحياة ، فقال له الله : أرأيت كم بلغت حسرتك على يقطينة لم تكن أنت منبتها ولا راعيها ، بل لم تنعم بها أكثر من يوم واحد ؟ أفلا يكون أولى بالحسرة أن ترى مدينة عظيمة مثل نينوى يدب فيها الفساد، فتنحل وتزول بعد أن انقضت القرون فى بنائها ؟

* * *

أما بعد فالفساد كان قد استشرى فى مصر العظيمة كما استشرى قديماً فى مدينة نينوى ، وقيّض الله لها فئة مخلصة مصلحة نهضت بتبعاتها فى إصلاح ما قد فسد من أمرها ، لكن التبعة فى الحقيقة على كل مصرى شريك فى هذا التراث الخالد ، فإذا ما وسوس الضعف لأحد أن يعتزل فلا عدّ يده فى أيدى هذه الفئة المنشئة البانية كان على فرض حُسْن قصده وسلامة نيَّته — هو « يونس » فى عزلته بجوف الحوت ، فلا هى بالعزلة التى تمتع ، ولا هى بالعزلة التى تفيد !

تى

سيدة من الشعب وجهت أحداث عصرها

بقلم الدكتور عبد المنعم أبو بكر

مهد للعصر الذى نشأت فيه هذه السيدة أحداث مجيدة فى تاريخ مصر الفرعونية ، فقد نشأت « تى Teye » فى أواخر القرن الخامس عشر ق.م. مع عصر « أمنحوتب الثالث » ، وهو عصر اكتملت فيه للإمبراطورية المصرية الأولى ثمارها الحربية والفكرية والاقتصادية ، وخيم السلام والرخاء على مصر بعد كفاح مرير وجهد متواصل . ولا يزال مسطوراً على صفحات التاريخ الخالدة بطولة مصر فى كفاحها ضد جماعات الهكسوس التى هاجمت البلاد فى فترة من القلاقل والشقاق الداخلى والتناحر على السلطان . وتهيأ لهذه الجماعات أن تستقر فى الدلتا وما وراءها على حين عجزت عن التوغل فى صعيد مصر ، ولم يسعها إلا أن تترك لأصحابه الأقوياء الذين ما لبثوا أن نهضوا نهضة واحدة ، ورفعوا علم الثورة لمناهضة الغازى المستبد . وكان هذا العلم لايكاد ينفلت من يد أحد قادتهم فى ساحة الجهاد حتى يبادر إليه قائد آخر ، ويسير به قدماً متمماً الرسالة ، إلى أن تهيأ للبطل « أحمس » أن يتم تشتيت العدو وإجلاءه عن أرض مصر عام ١٥٨٠ ق . م .

لم تكن مهمة « أحمس » يسيرة هينة ، بل كانت المخاطرة تحفها على الرغم مما بذله أسلافه فيها من جهود ، فلا غرو أن فطن هذا البطل إلى أن إحراز النصر الكامل لن يتحقق إلا بجمع كلمة الشعب وإذكاء روح الجندية بين صفوفه ، وتكوين جبهة عسكرية لا انفصام لها ولا تخاذل فيها . وساعدته الظروف إذ ذاك على تحقيق بغيته ، فقد كانت عوامل الثورة تسود مصر منذ عشرات السنين ، وكان أهل الصعيد قد تذوقوا لذة الانتصارات وعركوا القتال وأتقنوا أساليبه وخبروا آلات الحرب الجديدة التى جلبها الهكسوس معهم ، فحذقوا استعمال الأقواس الضخمة الثقيلة ذات المرمى البعيد[1] ، كما تدربوا على رياضة الخيل واطمأنوا إلى ركوب عربات الحرب الخفيفة السريعة ، التى كانت مهمتها أن تمرق بين صفوف الأعداء فتوقع الهرج والمرج بينهم . وهكذا اندفع المصريون فى تيار الجندية وتملكتهم نزعات الكفاح والنضال ، فلم يسجل التاريخ القديم إقبالا من مختلف طبقات الشعب على الانخراط فى سلك الجندية يماثل ما جاء فى تلك الحقبة . واستغل « أحمس » هذه الروح الجديدة وأذكاها بعد أن نظمها وقبض بيد من حديد على ناصية الأمور ، واندفع يطارد عدوه الذى ولى منه الأدبار إلى فلسطين ، ويتعقبه ناشراً الفزع بين صفوف ذلك العدو أينما حل حتى أقصاه إلى حدود فينيقية . وبذلك تمكن من وضع الأساس لإمبراطورية مصرية مظفرة امتدت فى عصور خلفائه فيما بين أعالى الفرات فى الشمال والشلال الرابع فى الجنوب .

* * *

وتولى مقاليد الأمور فى مصر بعد « أحمس » شخصيات فذة من أسرته ، تسمى بعضهم باسم « أمنحوتب » ، وآخرون تسموا باسم « تحوتمس » ، وقد ساهم كل منهم فى تقوية النفوذ المصرى خارج الحدود وتوطيد أركان الإمبراطورية فى كل مكان . وفى الحق لم تكن مهمتهم هينة إذ كان عليهم أن يشتبكوا فى حروب متوالية مع

وما من شك فى أن مثل هذه السياسة فتحت آفاقاً جديدة أمام المصرىّ ، فاختفت بالنسبة إليه الحدود السياسية التى كانت تمنع من اختلاط الشعوب الآسيوية بعضها ببعض من ناحية ، وبمصر من ناحية أخرى . وأصبحت البلاد الممتدة من أعالى الفرات شمالا إلى الشلال الرابع جنوباً متحدة على تباين عناصرها ، متصلة على اختلاف لغاتها . كما تركزت تجارة العالم القديم فى مصر ، وأصبح وادى النيل يفيض بخيرات العالم المتمدين، التى كانت تصل على أساطيله التى تمخر عباب البحرين الأحمر والمتوسط . كما انتشرت مصنوعات مصرية شاهدنا



« تى » نقش بارز على لوحة من الحجر الجيرى الأبيض مقطوع من مقبرة « أوسرحيت » بالأقصر ومحفوظ فى متحف بروكسل

« أمنحوتب الثالث » وزوجته « تى » تمثال ضخم من الحجر الأبيض ارتفاعه سبعة أمتار وعرض قاعدته أربعة أمتار وظهرت على ال الأمامية القاعدة تماثيل ثلاثة لبنات الملك .
(المتحف المصرى بالق



دول نافست مصر وسعت إلى تحطيم قوتها ، وتلك كانت دول « الميتانى » و « أشور » و « الحيثيين » و « بابل » .

ولقد تمكنت مصر من أن تحكم العالم المتحضر فى ذلك الوقت ، وأن تتحكم فى مصائره وتقيم نوعاً من الحكم العادل الموطد الرصين ، سادت به معظم الأمم فى الشرق القديم . وكان تحوتمس الثالث أهم أعلام هذه الإمبراطورية ، لا لأنه كان يخرج كل عام على رأس جيشه إلى بلاد آسيا القريبة ليضمّ إلى مملكته الواسعة أقاليم جديدة فحسب ، بل لأنه عرف كيف يضع الأسس القوية للمحافظة على كيان هذه الإمبراطورية ، فكان يجمع أبناء الحكام ورؤساء العشائر من كل بلد ، ويرسل بهم إلى مدارس مصر لتنشئتهم تنشئة مصرية بحتة ، حتى إذا صلب عودهم وأصبحوا فتية قادرين على تحمل المسئوليات بعث بهم إلى مواطنهم ليحكموها ، وليكونوا فى نفس الوقت رسل الثقافة المصرية ، ودعاة المدنية الفرعونية.

بين الأمم الأخرى آثاراً منها فى كريت وردوس وقبرص وبلاد اليونان[٢] .

وهكذا تفتحت الآفاق أمام مصر للأخذ والإعطاء ، والاتصال بشعوب أجنبية مختلفة ذات حضارات عدة ، واجتذبت مصر إليها عناصر جديدة من المظاهر الحضارية ، فظهرت فى عصر هذه الأسرة أدوات موسيقية آسيوية ، وأنواع من الرقص الآسيوى ، وانتشرت فى مصر بعض العادات الآسيوية ، بل قبل المصريون عبادة آلهة آسيوية[٣] . كما رضى ملوك مصر أن يستعملوا فى اتصالاتهم السياسية اللغة البابلية ، ودخلت اللغة المصرية كلمات أجنبية كثيرة ، كدلولات للأشياء الجديدة الدخيلة على مصر ، ومع كل ذلك فلا نزاع فى أن مصر أعطت أكثر مما أخذت ، كما أن ما أخذته — على قلته — قد طبع بالطابع المصرى البحت وتداول كما لو كان من التراث المصرى القديم .

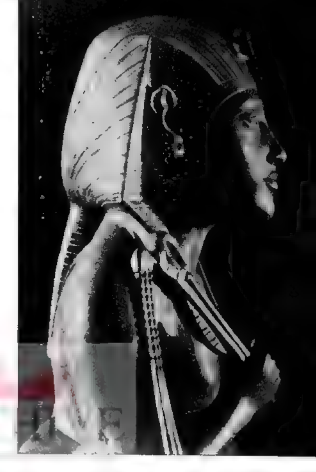
توافرت لمصر أسباب التقدم كلها ، وتجمعت لها عناصر الثروة والغنى العريض ، وتبلور ذلك كله فى عصر «أمنحوتب الثالث» فأينع وازدهر ، وأصبحت «طيبة» عاصمة الأمبراطورية تتمتع بأزهى مظاهر الرفاهية والرخاء .

° ° °

انحدر «أمنحوتب الثالث» من أب متوج هو «تحوتمس الرابع» ومن أم غير مصرية هى "موت — إم ويا" بنت "ارتاتاما" الملك الميتانى . وكانت هذه الزيجة خاتمة للحروب المضنية التى دامت بين البلدين فترة طويلة ، ثم رأى الملكان أن ينهيا ما كان بينهما من عداء مستتر بمحالفة ، أهم شروطها : أن يتصاهر البيتان . وفى الواقع نجحت هذه المحاولة ، وخيم السلام والوئام على الشعبين . وكان لمولد «أمنحوتب» من أمه الميتانية رنة فرح شاملة ، وأحيط بكل مظاهر الرعاية منذ طفولته . وتجمعت كل الأسباب لأمنحوتب الثالث ليصبح ملكاً تخضع لأمره كل ثروات العالم ، وتجبى موارده كلها تحت أقدامه ، وكان هو بالذات من ذلك الصنف الذى يتعشق الترف ، ويقبل على ملذات الدنيا ، ويعتبره التاريخ مثلا أعلى لأبهة الشرق ، فإن حبه للبذخ وإقباله على الانهماك فى ملذات الدنيا يجعلنا نعده بحق « سلطان » مصر الفرعونية إذا صح لنا أن نتمثل بذخ الشرق وأبهته فى كلمة « سلطان » .

لم يكد يكتمل العام الثانى لتربع « أمنحوتب الثالث » على العرش — ولعله كان قد بلغ الربيع الثامن عشر من عمره — حتى اختار صبية لا تنحدر من أصل ملكى زوجة له ، أبوها هو « يويا » كاهن الإله « مين » وأمها هى « تويا » إحدى سيدات القصر المشرفة على الملابس فى « البلاط الفرعونى . هذه الصبية التى انتمت إلى أسرة من أوساط المصريين هى « تى » ، إحدى سيدات التاريخ المصرى الشهيرات ، كان لها أثر كبير فى توجيه سياسة الأمبراطورية المصرية فى عصر زوجها ، ولعبت دوراً مهماً فى الحياة الدينية فى عهد ولدها أمنحوتب الرابع « إخناتون » كما كان لتوجيهاتها أثر فعال فى سلامة القومية المصرية ، والمحافظة عليها بعد موت ابنها .

ليس من شك فى أن زواج « أمنحوتب الثالث » من « تى » التى لم تكن سليلة الدم الملكى كان يعتبر فى ذلك الوقت خروجاً فاضحاً على التقاليد الفرعونية التى كانت تحتم أن تكون الملكة من أبوين ملكيين يجرى فى عروقهما الدم الملكى ، وإذا حدث لسبب أو أكثر أن اعتلى العرش من لا ينتسب لأم ملكية ، كان أول ما ينصرف إليه همه أن يلتمس سنداً شرعياً للعرش الذى اعتلاه ، بأن يتزوج سيدة يجرى فى عروقها الدم الملكى نقياً لا شائبة فيه . ولعل المثل الواضح لذلك هو « تحوتمس الثالث » الذى تزوج أبوه سيدة غير ملكية فاضطر إلى أن يحتفظ لنفسه بالعرش وينفى كل سبب للاعتراض عليه بعد أن خلا له الأمر بوفاة شريكته فى الحكم « حاتشبسوت » — وهى الملكة سليلة الدم الملكى ، التى هيمنت على شئون الدولة وجعلت منه وهو زوج لها كماً مهملا — أن يتزوج على التعاقب بثلاث أميرات



«إخناتون» تمثال رائع يمثل الملك في ريعان شبابه . يقبض بيمنيه على رموز الملكية ويغطي رأسه بالمنديل الملكي التقليدي التمثال من الحجر الجيري الأبيض ارتفاعه ٦٤ سم ومحفوظ في متحف اللوفر بباريس .

يجرى في عروقهن الدم الملكي النقي الخالص .

لقد كان «أمنحوتب الثالث» جريئاً في تصرفه ، مجدداً في التقاليد المصرية ، ولعله كان يرغب بذلك أن يحرر نفسه من القيود القديمة التي وإن هدفت إلى إحاطة شخص الملك بهالة من القدسية الإلهية إلا أنها كانت تحدُّ من حريته دون شك ، أو لعله باندفاعه إلى هذا التحرر كان يبغي مزيداً من الألوهية على أساس أن فرعون مصر أرفع وأسمى من أن يخضع لقواعد مرسومة ،



«تى» — رأس صغير يبلغ ارتفاعه ١٠٫٧ سم ولم يعثر على بقية التمثال والرأس مصنوع من خشب الأرز الصلب ويعتبر من روائع الفن الذي يمتاز به عصر النصف الثاني من الأسرة الثامنة عشرة. ويظهر بوضوح براعة الفنان في تمثيل ملامح الوجه وإسباغ المسحة التي تميز بها وجه هذه السيدة . العينان مطعمتان والرأس مكسوة بقلنسوة من الفضة تثبت على الجبين بشريط من الذهب ثم كسيت الرأس بعد ذلك بغطاء من الكتان المحلى ببعض الخرز الأزرق .

(متحف الآثار ببرلين)

لقد أراد أن يتزوج هذه الصبية ، ويضرب بالتقاليد عرض الحائط ، ففعل ! .

والوثائق التي وصلت إلينا من هذا العصر تشهد كلها بمدى تدلُّه «أمنحوتب الثالث» في حب أثيرته ابنة الشعب «تيّ» ، وإمعانه في إرضائها ، والتفنن في تلبية رغباتها . لقد وجد من حقها عليه أن يعلن زواجه منها على شعوب إمبراطوريته جميعاً ، فحمّل الرسل إليها بعدد من الجعارين الكبيرة تحمل نصاً يعتبر بمثابة إعلان لزواجه[4] . ولقد استنّ «أمنحوتب» عادة استعمال هذه الجعارين في تسجيل الأحداث الكبرى ؛ مثلها في

ذلك مثل النقود التى تسكّ، وطوابع البريد التى تظهر فى مناسبات معينة فى عصرنا الحالى وهذا النص هو :

الملك أمنحوتب ، له الحياة ، « والزوجة الكبرى للملك « تى » لها الحياة ، اسم أبيها « يويا » واسم أمها « تويا » . إنها زوجة ملك قوى تمتد حدود مملكته الجنوبية إلى « كاروى » والشمالية إلى « نهارين » .

وما من شك فى أن مثل هذا الإعلان يحوى بين طياته اعترافاً قويّاً بشعور الملك أنه أقدم على عمل ، ما كان له أن يقدم عليه ، كما يحمل إصراره على ذكر اسم والد « تِىّ » واسم أمها الدليل على أنه أقدم على هذا الزواج وهو يعرف معناه ، ولكنه لا يأبه لنتائجه . وظل بعد ذلك حريصاً على أن يقرن اسم زوجته الكبرى باسمه فى كل مناسبة دينية أو سياسية ، وقد يشفع ذكرها بذكر أبويها أيضاً .

ولم يقف إكرام « أمنحوتب » لابنة الشعب عند هذا الحد ، بل ذهب إلى أبعد منه فتراه تخالف كل القواعد القديمة التى حرصت على عدم إظهار الزوجة الملكية بجانب زوجها فى التماثيل والرسوم إلا فى مناسبات معينة ، وعلى أن تميز صورة الملك بحجمها الكبير بالنسبة إلى صورة الملكة . أما « تِىّ » فأصبحت التماثيل والرسوم تصورها على قدم المساواة مع زوجها ، ولعل فى تمثالها الضخم المحفوظ بمتحف القاهرة بجانب تمثال زوجها أصدق دليل على هذا ، إذ جلست الملكة بجانب زوجها دون أن يتميز عنها فى الحجم .

* * *

كانت « تِىّ » تتمتع بقسط وافر من الجمال ، لا ينمّ عنه تدلّله « أمنحوتب » فى حبها فحسب ، إنما تشهد به كذلك تماثيلها الباقية التى تصورها فى تقاطيع مصرية ممتلئة جاذبية ، على أنها كانت تجمع إلى ذلك الجمال ذكاء ودهاء استغلتهما فى دوام حظوتها لدى زوجها . ودليل ذلك : الإعلان الملكى الذى أصدره « أمنحوتب » بمناسبة زواجه الثانى من أميرة ميتانية تدعى « جيلوخيبا » ابنة الملك « شاتورنا » ، واعترف فيه لها بمركزها الأثير لديه ، إذ يقول فيه : « العام العاشر من حكم الملك « أمنحوتب » وزوجته الكبرى « تِىّ » — اسم أبيها « يويا » واسم أمها « تويا » . لقد حدث أن وفدت إلى جلالته « جيلوخيبا » ابنة أمير الميتانى « شاتورنا » وفى صحبتها من سيدات بلاطها ٣١٧ سيدة » . وهكذا لم يفت الملك فى هذه المناسبة التى عقد فيها زواجه السياسى على أميرة أجنبية ، وبعد مضى ثمانى سنوات على زواجه من « تِىّ » أن ينوّه باسمها واسم أبيها وأمها ، مولياً إياها حقوقها الكاملة ، ومؤكداً مركزها المتفوق ، وهى سليلة أسرة لا تمتّ إلى الدم الملكى بصلة .

ولم تكد تمضى على هذا الزواج سنة كاملة ، حتى خرجت « تِىّ » إلينا بدليل آخر يشهد بمكانتها فى قلب زوجها ، إذ يأمر الملك المدلّه فى حبها بحفر بركة كبيرة لتلهو فى قاربها الذهبى على صفحتها ، وذلك كما ورد فى نص على جُعَل كبير هذه ترجمته : « العام الحادى عشر الشهر الثالث من الفصل الأول ، اليوم الأول ، من حكم الملك « أمنحوتب » له الحياة ، وزوجته الملكة الكبرى « تِىّ » لها الحياة ، إن جلالته أمر بحفر بركة لزوجته الملكية الكبرى « تِىّ » فى مدينتها « زاروخع » على أن يكون طولها ٣٧٠٠ ذراع وعرضها ٧٠٠ ذراع ، واحتفل الملك بافتتاح البركة فى الشهر الثالث من الفصل الأول وفى اليوم السادس عشر ، وأبحر فوق سطحها على الزورق الملكى « بهاء أتون » .

وحسب هذا النص تكون هذه البركة الواسعة التى بلغ طولها أكثر من ١٨٠٠ متر ، وبلغ عرضها ٣٥٠ متراً قد تمت بعد مضى أسبوعين ، وذلك كله لإشباع رغبة عابرة للملكة « تِىّ » التى أرادت أن يزوّد قصرها بمثل هذه البركة حتى تستطيع التنزه فوق صفحتها . ولا زالت آثارها باقية حتى الآن بالقرب من القصر المنيف الذى كانت تسكنه ، إلى الجنوب من معبد « مدينة هابو » على الشاطئ الغربى من مدينة طيبة ، ولا زالت آثاره هو الأخرى باقية مزدانة بزخارفه الممتعة .

* * *

عاشت « تِيّ » فى بلاط لم يضمّ الضرائر فحسب ، بل فى بلاط امتلأ بالغوانى الحسان ، اللاتى استحضرهن زوجها من البلاد التابعة له فى آسيا .

ولكى يتخيل القارئ صورة الحياة فى البلاط المصرى وكيف كان صاحبه منغمساً فى اللهو والمجون ، تحيط به مئات من العذارى الحسان الأجنبيات ، أكتفى بسرد ما ورد فى بعض رسائل الملك المصرى إلى ملوك وأمراء البلاد الآسيوية . فهناك الخطاب الذى أرسله إلى أمير « جازر » واسمه « ميلكيلى » مع رسوله المدعو « خانيا » يقول فيه : إنه فى حاجة إلى أربعين فتاة من أجمل فتيات المدينة يتميزن بوجوه جميلة وقوام ممشوق ، وليس فى إحداهن ما يعيب حسنها . ويستطرد « أمنحوتب » بعد ذلك قائلا : وستأخذ من هذه الهدية مقياساً لحسن ذوقك وخبرتك ! [٥] .

كما أن هناك خطاباً آخر أرسله إلى المدعو « شوباندو » أحد أمراء سورية يطلب فيه إليه أن يرسل عشرين عذراء [٦] .

وأوفد كذلك رسولا إلى المدعو « عبدى خيبا » أمير « أورشليم » طالباً إليه إرسال إحدى وعشرين فتاة من أبكار بلاده [٧] .

وأخيراً يحدثنا التاريخ أنه أرسل أكثر من أربع مرات يلح فى طلب ثلاثين عذراء من حليفه « دوشراتا » ملك الميتانى ، وفى المرة الخامسة أجيب إلى طلبه [٨] .

وحسب القارئ بعد ذلك أن يذكر ما تقدم من حضور الأميرة الميتانية « جيلوخيبا » تحفّ بموكبها ٣١٧ غادة . وفى هذه الوثائق وحدها ما يدل على أن الجوارى اللاتى تجمّعن فى بلاط الملك قد بلغت ٤٢٨ غانية فى أقل تقدير ، هذا عدا زوجاته الشرعيات وهن « تِيّ » المصرية و « جيلوخيبا » الميتانية ، ثم أميرة بابلية نالت جانباً كبيراً من الحظوة لديه [٩] .

وكانت النتيجة الحتمية لازدحام البلاط الملكى بهذه الوفرة من السرايا أن أخذ الدم الأجنبى يزداد مروقاً فى عروق المصريين ، وبخاصة أن سراة القوم وكبار رجالات الدولة أخذوا هم أيضاً يجارون الملك ويعملون من جانبهم على استجلاب المحظيات من آسيا القريبة ، وكان لتجمع هؤلاء فى البيوتات المصرية أيما أثر فى انتشار كثير من العناصر الحضارية الأجنبية وتغلغلها فى الحضارة المصرية .

* * *

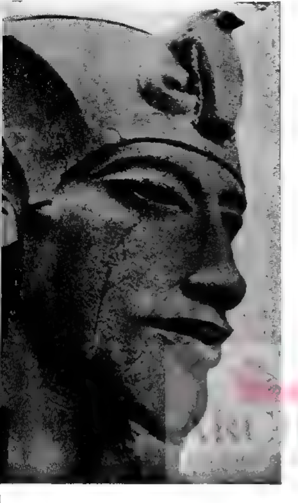
فى مثل هذا الجو الصاخب عاشت « تِيّ » ، إلا أن شواهد الأمور تدل على أنها ظلت حتى أواخر أيام حكم زوجها صاحبة اليد العليا ، لا فى قصره فحسب ، بل فى توجيه سياسة الأمبراطورية كلها ، حتى بات ذلك الأمر معروفاً عند الأمراء والحاكمين فى أقاليم الشرق فقد كانوا يقدرونها ويبعثون إليها برسائل الودّ ، ويعرفون مركزها السامى فى البلاد . ولقد وصل إلينا من وثائق عصرها ما يبرز بوضوح مبلغ نجاحها فى هذه الناحية ، وهو خطاب أرسله إليها ملك الميتانى بعد موت زوجها يقول لها فيه :

« تعرفين كيف كنت صديقاً وفياً لزوجك ، وكيف كان هو صديقاً وفياً لى . وتعرفين ما كنت أكتبه لزوجك ، وما كنت أتحدث به إليه ، وتعرفين أيضاً الكلمات التى كتبها زوجك لى . فأنت فقط وسفرائى يعرفون هذا ، بل أنت تعرفين أكثر مما كان يعرفه سفرائى . . . »

ثم يطلب إليها أن تعمل على المحافظة على علاقات المودّة مع الملك الجديد ، بل أن تزيدها ارتباطاً بمقدار عشر مرات ، على أن تثبت حسن نيتها بإرسال مقادير أكثر من الذهب المصرى . . . [١٠]

رزقت « تِى » من زوجها « أمنحوتب الثالث » ولدين أحدهما وهو البكر اسمه « تحوتمس » وقد مات وأبوه لا يزال على قيد الحياة متولياً العرش ، وثانيهما واسمه « أمنحوتب » الذى عرف فى التاريخ باسم « إخناتون » وهو الذى دعا إلى عبادة « أتون » إلهاً واحداً ليس له مثيل ، وصوّره بهيئة قرص الشمس يرسل أشعته على الكون ممتدة بأيد بشرية تفيض على الخلق بالجود والعافية .

* * *



« إخناتون » تمثال من مجموعة كبيرة عثر عليها فى الكرنك وكلها من حجم ضخم ومصنوعة من الحجر الرملى ، تمثل الملك وقد اكتملت رجولته وأخذ على نفسه تنفيذ فكرته الدينية وبدأت هموم الحياة ترتسم على ملامحه . (المتحف المصرى بالقاهرة)

واختلفت الآراء فى ديانة « إخناتون » ؟ هل كانت وليدة تفكيره ووحى فلسفته ، أو كانت نتيجة لتأثره ببعض العقائد الآسيوية التى تسربت إلى البلاط المصرى المكتظ بعناصر مختلفة من هذه الشعوب ؟

ولم يقف التساؤل عند هذا الحد ، بل ذهب بعض الباحثين إلى الربط بين مذهب « إخناتون » وبين عقائد اليهود ، زعماً منهم ببداية ظهورها قبيل عصره ، واستناداً إلى التشابه بين بعض فقرات أنشودة « إخناتون » فى تمجيد إلهه الجديد « أتون » وبين الآيات من ٢٠ إلى ٣٠ من المزمور ١٠٤ من العهد القديم :

(الآيتان ٢٠ ، ٢١) « تجعله ظلمة فيصير ليلا . فيه يدب كل حيوان . . . . الأشبال تزمجر لتخطف ، ولتلتمس من الله طعامها » .

(الآيتان ٢٢ ، ٢٣) « تشرق الشمس فتجتمع وفى مآويها تربض الإنسان يخرج إلى عمله وإلى شغله إلى المساء » .

(الآية ٢٤) « ما أعظم أعمالك يا رب كلها بحكمة صنعت ملآنة الأرض من غناك »

(الآيتان ٢٥ ، ٢٦) « هذا البحر الكبير الواسع الأطراف . هناك دبابات بلا عدد ، صغار حيوان مع كبار . هناك تجرى السفن . . . »

(الآية ٢٧) « كلها إياك تترجى لترزقها قوتها فى حينه » .

(الآية ٢٨) « تعطيها فتلتقط . تفتح يدك ، فتشبع خيراً »

(الآية ٢٩) « تحجب وجهك فترتاع ، تنزع أرواحها فتموت »

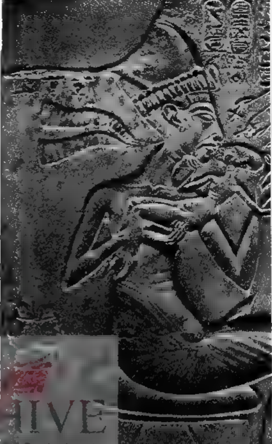
(الآية ٣٠) « ترسل روحك فتخلق ، وتجدد وجه الأرض » .

فى مقابل هذه الآيات من العهد القديم يضعون الفقرات التالية من أنشودة « إخناتون » فى تمجيد إلهه « أتون » ، وسنضع رقم الآية أمام النص المقابل له فى الأنشودة :

(٢٠ ، ٢١) « إذا غربت فى أفق السماء الغربى ، أظلمت الأرض وأصبحت كالجثة الهامدة ، وهرع الناس إلى منازلهم ليناموا وتهدأ حركتهم ، ولا ترى عين عيناً أخرى (ولا يرى أحدهم الآخر) حتى أن أمتعتهم تسرق من تحت رؤوسهم دون أن يشعروا . أما الأسود فتخرج من أدغالها ، وتبدأ الثعابين اللادغة تسعى على الأرض . هذه هى مملكة الظلام إذ يخيم السكون على العالم ، لأن خالق الأرض قد ذهب ليستريح فى أفقه . . . »

(٢٢ – ٢٣) « إذا ما أشرقت فى أفقك كأتون يبدأ النهار ويعم النور الأرض وإذا ما بزغت أشعتك اختفى الظلام ، وعم الفرح أرض مصر ، ويبدأ الناس بالوقوف على أقدامهم ثم يغتسلون ويبتهلون بأذرعهم إليك وقت شروقك ، ثم يخرجون سعياً وراء أرزاقهم » .

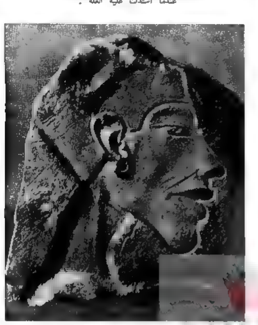
(الآية ٢٤) « ما أكثر مخلوقاتك التى نجهلها ؟ أنت الإله الواحد الذى ليس له مثيل ، خلقت الأرض طبقاً لما تريد . ولما كنت وحيداً فى هذا الكون خلقت الإنسان والحيوان : الكبير منه والصغير ، وكل ما يسعى على قدميه فوق الأرض ، وكل ما يحلق=



« إخناتون » رسم غائر على لوحة من الحجر الجيرى الأبيض يمثل الملك فى جلسة عائلية يداعب إحدى بناته التى تشير إلى أمها بينما حملها أبوها ليقبلها . لقد بدت فى هذا الرسم تلك المظاهر التى تدل على ما كان يعانيه إخناتون من مرض جعله مشوه الخلقة فهو يبدو غليظ الشفتين طويل العنق رفيعها فى إسراف . نصف جسمه الأعلى نحيف جداً بينما تضخمت بطنه . (متحف برلين)

← بجناحيه فى السماء . أنت الذى أحللت كل إنسان فى سورية والنوبة ومصر فى موضعه ، وأتممت عليه بحاجاته ، فصار كل منهم يأخذ نصيبه ويعيش أيامه المعدودات ، وقد تفرقت ألسنتهم باختلاف لغاتهم ، وكذلك أشكالهم وألوان أجسادهم ؛ أجل لقد ميزت الشعوب .

« إخناتون » رسم غائر على قطعة من لوح من الحجر الجيرى الأبيض نجح الفنان فى إعطاء صورة ناطقة لملامح الوجه فى أواخر أيام الملك عندما اشتدت عليه العلة .



(الآيات ٢٥ ، ٢٦) « تبحر السفن مع التيار وضد عكسه ، وكل طريق هام يصبح مطروقاً ، لأنك ظهرت فى الأفق . أما السمك فيقفز فى النهر أمامك لأن أشعتك تنفذ إلى أعماق البحار » .

(الآيات ٢٧ إلى ٣٠) « أنت خالق النيل فى السماء ليسقط عليهم ماؤه ، فيسيل على الجبال كالبحر ، ويسقى حقولهم بما تحتاج إليه . ما أعظم تدبيراتك يا سيد الأبدية ، فقد وهبت شعوب الجبال نيل السماء . أما النيل الذى يخرج من العالم السفلى فقد وهبت مصر إياه . أشعتك تغذى الأرض ، فإذا ما أشرقت أينعت ونبتت بتأثيرك » .

ونحن لا نشك فى أن أنشودة « أخناتون » تأمر بالتوحيد وتنهى عن عبادة الآلهة الأخرى ، ولا تعترف إلا بأتون « الإله الواحد الذى ليس له مثيل . خلقت الأرض طبقاً لما تريد . ولما كنت وحيداً فى هذا الكون خلقت الإنسان والحيوان : الكبير منه والصغير . . . » . على أن لنا أن نتساءل بدورنا : هل كانت هذه المعانى جديدة كل

الجدة ؛ لم يعرفها مصرى قبل أخناتون ؟ الواقع أن هذه المعانى مصرية بحتة عرفها المصريون وردّدوها منذ بداية التاريخ ، وتواجهنا فى كل عصر من عصور مصر الفرعونية منذ الدولة القديمة . وإننا لنعلم أن عقيدة الشمس عرفت فى مصر منذ أقدم العصور ، بل هى أقدم العبادات طرًّا ، إذ نرجعها إلى فجر التاريخ ونحدد ظهورها بحوالى عام ٤٢٤٠ ق . م ، حين تركزت فى « هيليوبوليس » (أيون) وصوّرها المصريون على هيئة إنسان يحمل فوق رأسه تاج الملك ويتربع على عرش الدنيا ، ويطلقون عليه اسم « أتوم » ويعتبرونه أول الخليقة وأصل البشر جميعاً . ولقد وردت فى متون الأهرام (الفقرات رقم ٨٥٢ إلى ٨٥٤) أنشودة تجرى كلماتها على الوجه الآتى :

« سلام لك أيها العظيم ، يا ابن العظيم ! إن الجنوب يسعى لإرضائك والشمال يعمل من أجلك ، إن فتحات النوافذ السماوية تتفتح لك . . . . سلام لك أيها الواحد الذى قيل عنه : إنه سيعيش أبداً . لقد ظهر « حورس » ، لقد ظهر « حورس » ذو الخطوات الواسعة ، لقد ظهر ذلك الذى يسيطر على الشرق ويسود الآلهة . سلام لك أيها الروح فى إشراقك ، أنت الواحد كما سماه أبوه ، وأنت العاقل كما نعته الآلهة . . . » [١١]

وإذا كانت الأنشودة السالفة الذكر ترجع إلى الأسرة الخامسة من الدولة القديمة (حوالى ٢٧٥٠ ق . م) فهناك أنشودة أخرى ، ترجع إلى مطلع الدولة الحديثة هذا نصها :

« الصلاة لك يا « رع » عند الشروق – يا « أتوم » عند الغروب . إنك تشرق وتشرق ، وتسطع وتسطع ، متوجاً كملك الآلهة . أنت يا رب السماء والأرض الذى خلق الكائنات العليا والسفلى . أيها الإله الأحد الذى كان منذ البدء ، الذى أنشأ العالم ، وخلق البشر ، والذى أنشأ ماء السماء ، وخلق النيل ، والذى أنشأ الماء وأحيا ما فيه ، والذى أقام الجبال ، وخلق الإنسان والماشية » [١٢] .

وأكثر من هذا ، فإن أناشيد الإله « أمون » نفسه ، وهو الذى حلّ « أتون » محله فى عهد « إخناتون » تجرى على النحو الآتى :

« أمون الذى خلق كل ما هو موجود ، من عينيه نشأ الإنسان ، ومن فمه الآلهة ، الذى فطر الأعشاب للماشية ، وأشجار الفاكهة للإنسان ، الذى يمنح الحياة للأسماك فى الماء ، والطيور تحت السماء ، الذى يمنح الهواء للفرخ فى البيضة ، ويحفظ نسل الدودة حياً ، الذى خلق ما يعيش عليه البعوض ، والديدان وكذلك البراغيث ، الذى خلق ما تحتاج إليه الفيران فى جحورها ، والذى يحفظ الطيور على سائر الأشجار » [١٣] .

* * *

إن القارئ إذا حاول المقارنة فسوف يجد أن العناصر الأساسية — الخاصة بالتوحيد وخلق الخليقة ، والهيمنة على ما هو فوق الأرض — ماثلة جميعها فى هذه النماذج الثلاثة التى ذكرتها مثلا لما كان يردده المصرى من أناشيد للآلهة فى معابدها . وإننا لنعتقد أكثر من ذلك أن ديانة المصريين القدماء بما فيها من تعقيد وما تحويه من كثرة للآلهة ، قد اعترفت منذ أقدم العصور بإله واحد ، يتجلى ذلك فى كثير من أقوالهم ومنها الحكم والأمثال والتحذيرات التى يلقنها المعلم لتلاميذه فى المدارس ، ومن أمثلة ذلك أنهم يقولون : « إن الإنسان من طين وتبن ، والإله هو بانيه » أو : « وأيم الحق إنك لا تعرف ما يجول بخاطر الإله ، ولذلك فأنت تجهل ما يأتى به الغد ، فألق بنفسك بين يدى الإله » [١٤]

ونحن حين نجد المصرى يعرف الإله دائماً باسمه فيقول « أتوم » أو « حوريس » أو « رع » أو « أمون » نراه هنا يذكر كلمة « الإله » دون تمييز له أو إفصاح عن اسمه ، ولذلك نود أن نعتقد بأن المصريين القدماء ، وفى الأقل أولئك الذين تفقهوا فى الدين ، وعرفوا أسراره — اعتنقوا منذ عصور مبكرة ديانة « الإله الواحد » وإن كانوا لم يجهروا بها .

ومن أجل هذا كله أود أن أبرز هنا بوضوح أن أنشودة « أتون » التى دبجها يراع « إخناتون » لم تحو مطلقاً عنصراً واحداً لا تجد مثيلا له فى مصر ، فهى إذن قد كانت فى كل عناصرها مصرية قلباً وقالباً .

* * *

بقى علينا الآن أن نفصح عن الدور الذى لعبته « تى » فى انبعاث هذا الدين الجديد ، وقبل أن نتحدث عن هذا الدور الكبير ينبغى أن نقدم له بكلمة موجزة عن الأسباب التى دفعت هذه السيدة إلى تلقين ابنها العناصر

الجديدة ، التى وجهت دعوته إلى ما نسميه ديانة « أتون » التوحيدية .

عرف المصرى القديم بكثرة آلهته التى تعبد لها ، ولعل مرجع ذلك أن الدوافع التى ألجأته إلى التعبد كانت بدورها متعددة ، فهناك قوى الطبيعة الكبرى مثل الشمس والقمر والسماء والأرض ، وهى مظاهر عظيمة بهرته ، وتعجّب من أمرها ولم يفهم كنهها ولم يستطع إلا أن يجعل منها آلهة مختلفة ، بل كانت لديه هى الآلهة الكبرى . ولكن المصرى فى عصوره البدائية تساءل فى حيرة عن علاقته بهذه الآلهة : هل كانت تهتم بأمره وتسعى إلى معونته إذا ما حلّت به الأزمات ؟ هل كانت هذه الآلهة تسرع إلى إغاثته إذا هاجمه عدوٌّ أو مرضت ماشيته ؟ لقد عرف بغريزته أن هذا بعيد التحقيق، فحاول أن يجد آلهة أخرى قريبة منه تساعده وتكون سنده فتشدّ من أزره وتخفف من ويلاته . . . ! ووجد فى بيئته الكثير من المخلوقات التى كانت تثير دهشته وتملأه إعجاباً ، كما وجد منها ما كان يرعبه ويقض مضجعه . فعبد إحدى مظاهر الطبيعة التى انتشرت فى بيئته المحلية . وهكذا تكونت بجانب الآلهة الكبرى أعداد لا حصر لها من آلهة محلية ، تعددت بتعدد أسباب وجودها ، والمناطق التى عبدت فيها . وتعلق المصرى الأول بهذه الآلهة الصغرى ، وتأثرت بها حياة الأسرة سواء فى القرية أو فى الإقليم حتى أصبح لكل أسرة ولكل قبيلة ولكل إقليم آلهته المتعددة . ثم حان العصر الذى تكونت مصر فيه سياسياً ، فاندمجت الأسرة فى الجماعة وتكونت المقاطعات ، ثم اندمجت هذه المقاطعات وتكونت مصر من قسمين شاملين : هما الوجه القبلى والوجه البحرى ، ثم اتحد الوجهان وأصبحت مصر دولة على رأسها ملك واحد . وهنا ظهر نوع ثالث من الآلهة أسموه آلهة الدولة ، وهى آلهة كانت فى الأصل محلية ثم تمكن حاكم إقليمها من أن يبسط سلطانه على الأقاليم المجاورة ، ويفرض فى نفس الوقت إلهه على الناس ليعبدوه ، وإذا قدّر له أن يحكم مصر كلها فإن إلهه هذا يصبح إلهاً لكل المصريين . ومن أهم الآلهة التى كانت لها الصدارة فى العبادة « حوريس » و « رع » و « آمون » .

وقد ساعدت الظروف السياسية « أمون إله طيبة أن يغدو إلهاً للدولة ، لا سيا فى عصر الأسرة الثامنة عشرة ، فلوك هذه الأسرة لم يحكموا مصر فحسب، بل شيدوا إمبراطورية واسعة الأرجاء ، وأصبح إلههم « آمون » هو إله الإمبراطورية بالتالى . وأصبح ينسب إليه أنه هو الذى كان يوحى إليهم بالفتوحات ، ويكتب للجيوش المصرية النصر ، وبعونه فحسب يستطيع الملوك أن يدمروا المدن ويفتكوا بالأعداء . ولعل هذا المعنى يبدو واضحاً فى الكلمات التى سجلها « تحوتمس الثالث » على جدران معبد الكرنك، على أنه تلقاها من « أمون العظيم » :

« . . . قلبى ينشرح بمجيئك إلى معبدى ، يداى وتمنح أعضائك الحماية والحياة ! ما أرق الشفقة التى تظهرها نحوى ! ولهذا سأثبتك فى مأواى ، وأهبك معجزة . إنى أمنحك القوة والنصر على كل البلاد . وانشر [illegible] وأبث الخوف منك فى كل البلاد المنبسطة ، وسأجعل رعب منك يمتد [illegible] سماء الأربعة . انى أجعل احترامك عظيماً فى كل الأجسام ، وأجعل نداءك الحربى يتردد بين جميع الشعوب . إن عظماء البلاد الأجنبية فى قبضتك ، وإنى أمد يدى بنفسى ، وأصيدهم لك ، وأربط الأسرى من البدو بعشرات الألوف ، ومن أهل الشمال بمئات الألوف ، وإنى أجعل أعداءك يسقطون تحت نعليك فتطأ الثائرين كما أنى أمنحك الأرض طولا وعرضاً . فأهالى المغرب وأهالى المشرق تحت سلطتك ! » .

ذلك هو حديث « أمون » إلى ابنه فرعون مصر ، ومنه نستشف مدى قوة هذا الإله وعظم الفضل الذى دان به الملوك ، فما كان لهم حياله إلا الوفاء له ، فشيدوا لإلههم الأكبر المعابد الضخمة فى كل مكان سواء فى داخل القطر أو فى خارجه ، ومنحوها النصيب الأوفى من الأسرى والمغانم التى كانوا يعودون بها من فتوحاتهم المتعددة بآسيا ، كما وقفوا عليها الضياع الممتدة . وقصارى القول إن ملوك هذه الأسرة تفننوا فى إظهار ولائهم وخضوعهم لهذا الإله العظيم الذى كانت مصر فى

زعمهم تدين له بوجودها وخصبها وغناها وحضارتها . ولم يكن هناك من نتيجة لذلك إلا أن يصبح كهنة هذا الإله هم المسيطرين المتحكمين فى البلاد، فهم سدنته العارفون بعظمته، المقربون منه . وهم أيضاً من يتوجهون إليه بالدعاء فيمنح الملك النصر، فيستجيب لدعائهم أولا يستجيب.

* * *

هكذا أخذ كهان أمون يسيطرون على كل شىء فى مصر ، وانصرف همهم إلى توطيد سلطانهم ومضاعفة ثرواتهم . وما كان يتفق مع أطماعهم أن يوجد فى مصر إله آخر ينافسه، أو بالأحرى ينافسهم فى قوتهم وجبروتهم. وقد استطاعوا أن يحققوا بغيتهم بأن أدمجوا جميع الآلهة فى إلههم فأصبح: أمون «هو» أمون — رع» و «آمون— خنوم» و «أمون— مين» وهلم جرا . وهنا أخذ الحسد يدب بين كهنة هذه الآلهة ، فلم يكن من صالحهم مطلقاً أن يتناسى الناس، وعلى رأسهم الملوك ، آلهتهم ويولوا وجوههم شطر أمون ، أو أن يروا الثروات والخدم والضياع، توهب كلها لأمون ولا ينالهم بعد ذلك إلا الفتات . وكان على رأس أولئك المتذمرين كهنة «رع» العظيم الذى ساد البلاد من قبل وهيمنت تعاليمه على التفكير المصرى القديم ، وقد تناسوا بأن ديانة أمون أو قل مدرسته اللاهوتية لم تؤثر تأثيراً يذكر على الحياة المصرية العامة، ولم يتهيأ لها أن تدفع حضارة البلاد نحو التقدم كما قامت به مدرستهم القديمة فى هيليوبوليس ، وأخذت عوامل الثورة تتأجج فى صدور الكهان من سدنة آلهة مصر الكبرى التى اضطرت إلى الانزواء فى الظلام ، بينما سيطر أمون على كل شىء . واستمر الحال هكذا يزداد أمون شهرة وثراء يوماً بعد يوم، بينما «رع» والآلهة الآخرون ينزوون فى ظلمات الماضى فتقل موارد معابدهم، وتزداد أسباب الفاقة والعوز بين كهانهم. واستمر الحال هكذا حتى تولى عرش مصر « أمنحوتب الثانى » وكان قد أنجب خمسة أبناء بعث بهم إلى « منف » العاصمة القديمة ومقر قيادة الجيش فى ذلك الحين . وكان العرف قد جرى فى عصر الأسرة الثامنة عشرة على إيفاد أمرائها إلى هذه المدينة ليتلقوا ثقافتهم العسكرية فيها ، ويأخذوا بأسباب العلم والمعرفة فى جامعة هيليوبوليس القريبة منها . ويبدو أن الكهان من المبشرين لمذهب الشمس كانوا قد اعتزموا التأثير على قلوب من كان يفد إليهم من الأمراء ، وإغرائهم بالالتفاف حول راية « رع » والدعوة له دون « أمون » عساهم أن يسترجعوا من وراء ذلك سلطتهم السياسية القديمة ، ويعيدوا إلى معابدهم مجدها القديم .

وأكبر الظن أن كهان « رع » لم يأنسوا فى أولئك الفتية ما كانوا يبتغون من إقبال على ترويج دعوتهم . ولعل الحقيقة أنهم كانوا أضعف من أن يحققوا بغيتهم أمام تلك القوة الطاغية التى استأثر بها رجال « أمون » فى طيبة لولا أن أحد أولئك الأمراء ، ولم يكن أكبرهم بمعنى أنه لم يكن صاحب الحق الأول فى تولى العرش بعد أبيه ، مال إلى الاستجابة لدعوتهم على شريطة أن يؤيدوه فى ارتقاء العرش دون إخوته ، ذلك هو « تحوتمس الرابع » فالتقت المصالح وتفتقت الأذهان عن قصة الرؤيا التى سجلها « تحوتمس » بعد وفاة أبيه على لوحة كبيرة من حجر الجرانيت ، لا تزال قائمة فى مكانها الأصلى بين ذراعى « أبى الهول » بمنطقة أهرام الجيزة . وتقص هذه اللوحة أن الأمير «تحوتمس» بن الملك «امنحوتب الثانى» كان قد استقل عربته حين الظهيرة ، وهو يطارد حيوان الصحراء مع اثنين من أتباعه ، فلما أن أحس التعب أوى إلى الظل بجوار تمثال الإله «أبى الهول» فأخذته سنة من النوم رأى فيها الإله المبجل يتكلم بفمه ، كما يتكلم الوالد مع ولده قائلا :

« ولدى تحوتمس ! تأملنى فأنا أبوك "حور . إم . آخت . خبر . رع— أتوم" إنى واهبك ملكى على الأرض لتكون سيداً على الأحياء ، ولسوف تتوج بالتاجين الأبيض والأحمر على عرش «جب» وستكون لك الأرض بطولها والعرض ، وكل ما تضيئه عين رب الجميع . . . وستكون لك خيرات القطرين وجزى البلاد جميعاً . . . إنى موليك وجهى فكن حفيظاً على شئونى ، فقد دب الإعياء فى أعضائى جميعاً ، إن رمال الأرض التى أعتليها قد غمرتنى ، فاتجه إلى لتنفذ رغبتى ، إنى لأعلم أنك ولدى والمدافع عنى فتقدم ، وإنى معك ومرشدك . »[١٥]



« نفرتيتى » زوجة « إخناتون » الجميلة . رأس من الحجر الرملى الصلب لم ينته الفنان من صنعها إذ لا زالت الخطوط المرسومة بالحبر الأسود باقية وهى الخطوط التى حدد بها الفنان أجزاء الوجه . ومع هذا تعتبر هذه القطعة من أجمل ما خلفه لنا فنانو العمارنة ؛ ولعل الفنان نجح تماماً فى إعطاء الشفتين ليونة وحيوية تبلغ حد الإعجاز (الارتفاع ٣٣سم ومحفوظ بالمتحف المصرى بالقاهرة) .

كان معنى هذا الحديث الذى كتب على لسان الإله أنه قد اصطفى « تحوتمس » ليتولى عرش مصر من دون إخوته الخمسة ، على الرغم من أنه لم يكن أحقهم به ، والواضح أن كهنة « رع » كانوا من وراء قصة الرؤيا ، وأنهم قد نجحوا فى تحويل ذلك الأمير من عقيدة أمون إلى عقيدة الشمس بعد أن أشعروه بمدى مناصرتهم له إذا هو انحاز إليهم وعاونهم على التقليل من شأن إله طيبة . . . ونجحت المحاولة ، وتربع « تحوتمس الرابع » على عرش البلاد ، وأخذ يشيد بمناقب « رع » متغاضياً عن « أمون » . ولعل أقدم البشارات بقرب ظهور مذهب جديد ، أو تصور جديد عن إله الشمس ترجع إلى عهد هذا الملك ، ومن هذه التباشير تصوير قرص الشمس تمتد منه ذراعان تنتهيان بيدين بشريتين تحيطان بالملك وتحميانه وتغدقان عليه النعم ، وهو ذات التصوير الذى اختاره « إخناتون » فيما بعد لإلهه « أتون » مع تحوير يلائم عقيدته .

عثر على هذا منقوشاً فى لوحة وجدت فى أعمال الحفر التى قامت بها بعثة جامعة القاهرة حول تمثال أبى الهول

بأهرام الجيزة ، بل عثر على اسم « أتون » نفسه مذكوراً على جُعَل سجل عليه نفس الملك تمجيداً لذاته ، وإشادة بيأسه وقوّته وجهاده فى سبيل إخضاع الشعوب ، وجعلهم من رعايا « أتون » .[١٦]

* * *

لاشك إذن فى أن شرر الثورة الدينية كان قد بدأ يتطاير منذ أيام « تحوتمس » الرابع ووجد مناصرة قوية فى عهد ابنه « أمنحوتب الثالث » . ونحن نؤكد أن « تى » كانت من أقوى المناصرين لهذه العقيدة ، وأنها كانت تعمل على دفع زوجها إلى الأخذ بها ، لولا أنه كان رجلا لا يعنيه إلا التمتع بترف الحياة ، والأخذ من نعم الدنيا بأوفر نصيب ، ولم يكن يهمه إلا أن يهادن كلا من الطرفين ، أو أن يميل إلى الطرف الأقوى ينشد مساعدته ويطلب منه تثبيت أقدامه فى الملك . ومن أجل ذلك نراه فى بداية حكمة يتحيز إلى كهنة أمون الذين استغلوا انتسابه إلى أم أجنبية ، هى « موت . إم . ويا » ابنة الملك الميتانى وزوجة « تحوتمس الرابع » وأخذوا يلوحون له بإقامة العراقيل أمامه إن لم يناصرهم . فاستجاب لهم وأجزل لهم العطاء ، وأمن سلطانهم ، فردوا على هذا الجميل بأن أعلنوا على الشعب أنه « ابن أمون » ومن صلب الإله نفسه ، وقد سجل « امنحوتب الثالث » هذه القصة على جدران معبده المشهور فى مدينة « طيبة » .

على أن هذا الميل وهذه السياسة التى اتبعها « أمنحوتب الثالث » نحو « أمون » لم تفت فى عضد الملكة « تىّ » صاحبة السلطان القوى ، فواصلت حض زوجها على الاعتراف بأتون ، ولو اعترافاً ضمنيًّا ، ومن قبيل ذلك أنه عندما أعدّ لها بركتها السالفة الذكر وشاركها النزهة فى قاربها الجميل المكسو بالذهب أطلقت على ذلك القارب اسم « بهاء أتون » على رضاً منه بطبيعة الحال ، كما أنها تمكنت من إقناع زوجها بأن يقلد ابنه منصب كبير كهان « بتاح » رب منف[١٧] وكان هذا طبيعيًّا على غير هوًى من كهنة أمون ، وبخاصة عندما لمسوا الجهود الكبيرة التى كان يبذلها هذا الأمير لإحياء « منف » العاصمة العتيقة ، وبعث عقائدها الدينية ونشرها بين الناس من جديد ، غير أن هذا الأمير لم يعمر طويلا ، ومات وهو فى سن مبكرة ، فدفنه أبوه فى جبانة سقارة .

إذن لاغرابة مطلقاً إذا وجدنا الابن الثانى « أمنحوتب » (إخناتون) قد شب عن طوقه فى وسط كله يمجد « رع » ويشيد بتعاليمه ، ويود لو يتجه إلى كهانه ليقلل من تركيز السلطة والجاه فى أيدى كهان « أمون » ويدفعهم إلى التخفف من غلوائهم فى طلب المزيد من الثروة والسلطان . وليس من شك فى أن « أمنحوتب » هذا قد تمكن من أن يتعمق فى دين « رع » ويتزود من تعاليم كهانه ، ويدرس أصول العلوم والدين فى مدارسهم ، وعلى أيدى المبرزين من كهنتهم . وليس من شك أيضاً فى أن هذا الصبى كان مرهف الحس شديد الذكاء ، يميل إلى معرفة الحقيقة فى أدق مظاهرها فيلسوفاً سديد الرأى ذا عقل راجح ونفس صافية ، يمقت الكذب وينشد الصدق فى كل شىء ، إلى درجة أنه أبرز هذا المعنى الجليل فيما سماه المصريون « ماعت » أى « الحقيقة : الصدق . العدالة » ، وجعل اسمه ينتهى بهذه الكلمات « العائش على الصدق » كما سمى عاصمته الجديدة « مقرّ الصدق » . ونحن نحسُّ فى هذا كله بأصابع أمه « تىّ » تتولى توجيه ابنها لكى يسير فى الطريق الذى اختارته له ، ولينفذ لها تلك السياسة التى تهدف إلى إيجاد موازنة بين سلطان الملك وقوة وجبروت كهان « أمون » النهمين الذين لا يقنعون بشىء ولا يفتأون يطالبون بالمزيد . لم تكن « تىّ » ترغب فى القضاء على « أمون » كما أنها لم تفكر مطلقاً فى إبراز عقيدة « رع » فى إطار يخالف ما عرفه المصريون عن هذا الإله منذ أقدم العصور .

وإنه ليبدو جليًّا من مومياء « إخناتون » أنه مات غير متجاوز الثلاثين من عمره ، وإننا لنعرف أنه حكم ست سنوات بالاشتراك مع والده واثنى عشر عاماً بمفرده ،



مأدبة ملكية . إلى اليمين الأم الملكية « تى » وإلى جانبها ابنتها الصغرى « بكت آتون » ، وإلى اليسار « إخناتون » وبجانبه « نفرتيتى » وابنتان من بناتهما [illegible] العادة التى اتبعها أفراد الأسرة المالكة فى تناول الطعام ، إذ يأكل الملك [illegible] من قطعة طويلة [illegible] من لحم بينما ترفع « نفرتيتى » الجميلة بطة بأكملها إلى فمها [illegible] دون أن تحاول تقطيعها [illegible] أما الأم الملكية فقد رفعت شيئاً (لا يظهر فى الصورة جسمها) [illegible] من الطعام .

هذه الصورة موجودة على جدران مقبرة « حوى » [illegible] وكان هذا الرجل موظفاً لدى الملكة « تى » .

ومعنى هذا أنه جلس على العرش وسنه اثنتا عشرة سنة ، وذلك لأن أمه لم تنجبه إلا بعد أن مر على زواجها من أمنحوتب الثالث سنون طوال ، وقد عرف عن هذا الرجل المزواج ، الذى كان يحيا حياة كلها لهو ومجون وعبث ، أنه شعر بالكهولة تدب فى أعضائه فى سن مبكرة ، وأنه دفع صحته وشبابه ثمناً لملاذه وأهوائه ، فمات غير متجاوز الخمسين ربيعاً من عمره . كل هذه الظروف تجعلنا نعتقد أن الأم « تى » كانت هى الحاكمة فى مصر فترة طويلة أى منذ عين ابنها ملكاً بالاشتراك مع أبيه ، ولا بد أن فترة وصايتها قد امتدت أربع سنوات أو خمساً بعد أن تولى ابنها العرش منفرداً .

فى هذه الفترة نحس تماماً أن الاتجاه قد انحصر كما أسلفنا فى الاعتراف بالإله « رع » بجانب « أمون » على أساس الصورة الجديدة له تحت اسم « أتون » وأن يدخل هذا الإله ، حاله فى ذلك حال كثير من الآلهة ، فى معبد الكرنك ، ويعبد فيه بجانب « أمون » . واستطاعت « تى » أن تنفذ رغبتها ، ورضى كهنة « أمون » وسمحوا للملك أن يبنى معبداً كبيراً فى حرم الكرنك . ولعلهم وجدوا من خصومهم قوة فأحنوا رؤوسهم قليلا ، مفسرين تراجعهم على أساس أن إلههم الأكبر فى الواقع « أمون رع » الممثل لرع الهيليوبوليتانى كما أدركوا بفطنتهم أن مذهبهم راسخ فى قلوب الناس ، وبخاصة أهل الصعيد

كما أن إلههم قد ذاع أمره فى كل مكان داخل مصر وخارجها ، وأن الناس أجمعين يؤمنون بأن لا قوة غير قوة « أمون » ، ولا عز إلا حول ساحته وعند أقدام عرشه . وهكذا ولأول مرة سمح « لأتون » أن يأخذ مكانه رسمياً بين الآلهة المصرية ، وأن يعترف به من أصحاب « أمون »

حدث هذا ولم يكن « أمنحوتب الرابع » (أخناتون) سوى صبى تتعهده أمه باعتبارها وصية عليه ، وتكاد تكون مسئولة عن كل تصرفاته . وحتى ذلك الوقت نجد الملك يحمل الألقاب التقليدية المتوارثة منذ أقدم العصور وهى :

« الفحل القوى ، المحبوب من الإلهتين ، الصقر الذهبى ، صاحب التيجان الملكية ، ملك الشمال والجنوب ، ابن الشمس ، أمنحوتب ، الحاكم المقدس لطيبة ، الأبدى ، المحبوب من أمون رع » .

فى هذا الوقت بالذات نجد أن الأم تخطو خطوة أخرى إلى الأمام ، وذلك بعد أن نجحت فى حمل كهنة أمون على الاعتراف « بأتون » . هذه الخطوة كانت فى جعل ابنها كاهناً أكبر للإله « رع — حور — أختى » الذى يهنأ فى أفقه تحت اسمه الجديد: « الحرارة الكامنة فى أتون » ولعل هذا اللقب الجديد للإله القديم كان له وقع الصاعقة فى آذان كهان « أمون » إذ تبينوا اتجاهاً جديداً لم يعهدوه من قبل ، وتساءلوا عن معنى « الحرارة الكامنة فى أتون » بينما كان « رع » ولا يزال بالنسبة إلى الجميع هو « قرص الشمس » بذاته . وتأكدت ظنونهم عندما أعلن « إخناتون » فى حديث بينه وبين وزيره الأول المدعو « رع — مس » ميوله نحو إلهه الجديد — سجل هذا الحديث فى مقبرة الوزير المشهورة فى جبانة طيبة ، حيث نرى صورة يبدو فيها « إخناتون » واقفاً ومن فوقه رسم الإله « رع — حور — أختى » وبجانبه النص الآتى :

« كلمات « رع » ألقيها عليك : إن الإله علمنى معناها ، وكشف لى عن خباياها ، وهذه الكلمات عرفها قلبى ، وانشرح لها صدرى » .

فأجابه الوزير :

« إنك الوحيد الذى اختاره « أتون » لكى يلقى إليه بتعاليمه ، والخوف منك يملأ قلوب الناس ، والجبال تستمع إليك كما يستمع الناس » .

وهذا النص الوجيز إن دلّ على شىء فإنما يدل على أن الملك كان يفكر فى أشياء ، وأن بعض كبار القوم فى مصر كانوا يعرفون ما يجول فى فكره ، ولا بد من أن كهنة أمون كانوا قد أحسوا بأن هناك مؤامرة تحاك ضدهم ، وأن الأحداث تجرى سراعاً .

حدث هذا كله فى أوائل عهد « إخناتون » بالحكم ، وقبل أن يعلن ثورته على « أمون » وكهانه رسمياً إلا أن ما حدث كان كافياً ليجعل الجو بينه وبين الكهنة فى الكرنك يتلبد بالغيوم . وزاد الطين بلة أنه أعلن صفات الإله الجديد فقال عنه :

« فليعش "رع" صاحب الأفقين الذى يرسل أشعته من جبله . إنه والدى [illegible] . وعاد [illegible] الجديد « أتون »

ثم مثل هذا الإله بقرص الشمس تمتد منه عشرات الخطوط التى تمثل كل منها الأشعة تنتهى بيد بشرية تقبض على علامتى الحياة والسعادة . وهكذا عرف كهان « أمون » أن الإله الجديد يختلف تماماً عن آلهة المصريين ، وأنه « هو القوة الكامنة فى قرص الشمس والحرارة التى تشع منه » وليس كإلههم ممثلا فى صورة بشرية أو حيوان مقدس . وهنالك أخذ كهان « أمون » يحيكون المؤامرات ويفصحون عن ثورتهم ، نعرف ذلك من وثيقتين ، أولاهما : عبارة عن حديث للملك نقشه على إحدى اللوحات التى كانت تحدد منطقة مدينته الجديدة « أخيتاتون » (تل العمارنة) ويذكر لنا الطريقة التى قابل بها كهان « أمون » أولئك الذين يعلمون الناس الصدق ، تعاليمه الجديدة ، ثم يستطرد فيقول :

« أقسم بحياة والدى « أتون » أن الكهنة كانوا أشد إثماً من كل الأشياء التى سمعتها حتى العام الرابع ، بل أشد ضرراً من كل الأشياء التى وقعت حتى العام السادس . . . . » (١٨)



حفل عائلي : تجلس الأسرة المالكة معاً للسمر والشرب إذ يقبض كل منهم على كأس يحوى خمراً (غالباًهو النبيذ) بينما انهمك الفتيات الصغيرات بنت « إخناتون » وست « تي » في أكل الفاكهة ويبدو أن هذا الحفل قد أقيم في المساء لأن الشمس لم تظهر في الصورة في حين أنها ظاهرة في الصورة السابقة وعلى ذلك يمكن أن نقرر بأن المأدبة قد حدثت في شهور بينما هذا الحفل قد أقيم مساء

هذه الصورة موجودة أيضاً على جدران مقبرة « حويا »

أما الوثيقة الثانية فهي عبارة عن تسجيلات مرسومة على جدران مقبرة رئيس الشرطة المدعو « ماحو » ، وتحوى تفصيلات مؤامرة دبرها بعض المصريين والآسيويين ضد الملك لقتله [١٩] .

وليس من شك فى أن الهوة التى كانت بين الملك الشاب وكهان « أمون » بلغت فى العام السادس ، من حكم الملك منفرداً ، حداً جعل الأخطار تحف به ، واتسع الخرق عند ما أراد « إخناتون » أن ينتقم لنفسه ، فأمر بتجريد حملة من العمال والصناع ، تعاونهم فرق كبيرة من الجيش لبدء حركة إرهاب عنيفة هدفها محو « أمون » من طيبة ، والقضاء على كهنته فلم تستطع الأم إلا أن تسعى عند ابنها بأن يهجر طيبة ، إذ كانت تعرف تماماً أن أصحاب «أمون» لم يكونوا قلة أو ضعفاء ، وإنما كانوا عصبة أقوياء ، فيهم شدة وصرامة ومكر .

لقد استجاب « إخناتون » لنصيحة أمه ، وأخذ يعد العدة لبناء مدينته الجديدة ، وهاجر إليها مؤكداً أن هذه هى إرادته ، وأنه يقوم بهذا العمل بوحى من إلهه ، وليس لأحد فضل ما فى اتخاذ هذه الخطوة . وإن النص الذى تركه الملك مسجلا فيه طريقة اختياره لمكان « أخيتاتون » (تل العمارنة) ليدل بوضوح أنه اضطر إلى ترك طيبة والرحيل عنها بسرعة :

« لقد وقف الملك أمام « حور آتون » وأضاء عليه آتون بالحياة والعمر الطويل ، وقال جلالته : آتونى بأصدقاء الملك والعظماء وضباط الجند من كل مكان . . . ولقد أتى بهم فى الحال ، وقبلوا الأرض أمامه خضوعاً لإرادته ، وقال لهم : انظروا « أخيتاتون » هذه هى التى يريدها

« آتون » لأجعل منها أثراً باسم جلالتى أبدياً . إن « آتون » والدى هو الذى قادنى إلى هذا المكان لأقيم له فيه « أخيتاتون » ولم يقدنى إليها شريف أو أحد آخر . . . . (٢٠)

ثم يستطرد الملك بعد ذلك ، فيعدد الأبنية المختلفة التى يزمع إقامتها فى هذه المدينة مبتدئاً بالمعابد ، ثم بالقصور الخاصة به وبزوجته وأمه وأولاده ، ثم بمنازل الخاصة . وأقسم الملك أن لا يترك المدينة ولا يتعدى حدودها الشمالية أو الجنوبية مدى حياته . ويبدو أنه برّ بهذا القسم ، لأنه أمر بإقامة سرادق له ولأسرته(٢١) وأخذ لساعته فى تنفيذ البناء ، وأخذت المدينة تموج بالبنائين والمهندسين ، ولا بد من أنه أتمّ بناءها فى فترة قصيرة.

* * *

كان هذا يجرى فى المدينة الجديدة على حين كان أتباع الملك يعملون على تنفيذ أوامره فى محو اسم « آمون » من كل عمائره ، والتنكيل بكهانه ، واشتد النزاع وانتشر الفزع ، وعم اليأس أهل طيبة ، ومرت الأيام والحالة تزداد سوءاً ، والعراك يشتد تأججاً ، وهنا اضطرت « تى » إلى أن تتدخل وتسعى لتخفيف وطأة الأزمة ، فهى ترى آثارها عن كثب من مقرها بطيبة ، ولاحظ أيضاً أن ابنها لا يرعوى ولا يخفف من تدابيره ضد أعدائه من كهان طيبة ، فاضطرت إلى السفر إليه فى عاصمته الجديدة . ولقد سجلت أخبار هذه الزيارة فى مقبرة أحد أشراف هذا العصر المدعو « حوى »(٢٢) ومن أهم مناظرها المنظر الذى يصور الحفلة التى أقامها الملك لأمه ، وكانت قد استصحبت معها ابنتها الصغرى « باكت — آتون » .

ومن غريب أمر هذه الزيارة أنه قد جاء على أثرها حادثان أولهما : أن الزوجة الملكية « نفرتيتى » انفصلت عن زوج ابنتها « توت عنخ آتون »(٢٣) ويحتمل أن يكون أخاً لزوجها من أبيه . أما الحادث الثانى : فهو أن « سمنخ — كا — رع » زوج ابنة « إخناتون » ويحتمل أنه كان بدوره أخاً له من أبيه — أوفد هو وزوجته إلى طيبة لتهدئة الحالة فيها ، ولعلهما قفلا راجعين إليها مع « تىّ »



« سمنخ كا رع » رأس جميلة معبرة كانت تعلو إحدى أوانى الحشو . هذا الملك الذى خلف أخناتون على العرش وبدأ تهدئة الموقف بين كهنة آمون والأسرة المالكة (المتحف المصرى بالقاهرة)

مندوبين للملك . . ولكن هذه المحاولة لم تفلح ، وبقى الشعب الطيبىّ على عدائه لإخناتون . . .

* * *

وبعد ، فقد مات « إخناتون » بعد أن حكم ثمانية عشر عاماً أو دونها ، ولا ندرى إن كان قد مات ميتة طبيعية أو قتل بعد أن فتر الحماس لدعوته ، وأخذ الناس ينفضون عنها إلى ما نشأوا عليه من عبادات وجدوا عليها آباءهم — مات ولا زالت زوجه « نفرتيتى » غضبى عليه لتحيزه إلى جانب أمه « تىّ » وأخذه بمشورتها ومهادنة كهنة « آمون » .

ولا ندرى متى ماتت « تىّ » ولكن لا بد من أنها فارقت الدنيا فى أواخر عهد ابنها ، ودفنت فى مقبرتها التى أعدتها لنفسها فى طيبة .

وللكشف عن مقبرة « تى » قصة ، فى شتاء ١٩٠٦ — ١٩٠٧ كشف عنها عالم الآثار « ديفز » فى مكان غير بعيد عن مقبرة أبويها « يويا » و « تويا » فى وادى الملوك بطيبة الغربية ، وتتكون المقبرة من حجرة منقورة فى الصخر دون عناية ، وعثر فى وسطها على تابوت مغلف بالذهب الخالص ، يعتبر تحفة فنية رائعة ، وتكسوه زخارف دقيقة طعمت بأنواع شتى من الحجارة الثمينة مثل اللازورد والعقيق الأحمر والأبيض . وفى قلب التابوت الذى شكل على هيئة آدمى اتخذت الجثة أبهى زينتها ، فقد حنطت تحنيطاً جيداً ، وكسيت أيديها برقائق ذهبية ، وأحاطت بجيدها قلادة ذهبية مطعمة ، وتوج رأسها بإكليل ذهبى تبرز من مقدمته رأس النسر ، وينسدل من جانبيه جناحان فى ألوان متعددة ممتعة . . .

ذلك إذن مظهر يليق بملكة عظيمة كانت زوجاً لملك عظيم ، وأماً لملك عظيم . ولقد وجد اسمها على كثير من محتويات المقبرة . ولكن وجه الطرافة في لب القصة هو أن الجثة عند ما كشف عنها دلت على أنها لشاب في نحو الخامسة والعشرين من عمره ، وليست لعجوز ناهزت الستين ! فكانت مفاجأة . وتعليلها يحتمل أحد أمرين : أن تكون جثة الملكة قد سرقت على حين غفلة من حراس المقبرة وكهنتها ، فتخوفوا سوء العاقبة وسارعوا إلى سرقة جثة شريف من مقبرة قريبة وأحلوها محلها ، أو أن تكون المقبرة قد خصصت فى بداية الأمر لدفن اثنين هما « تى » ذاتها وأمير شاب من أسرتها فسرقت جثتها دون الأوانى التى لا زالت تحمل اسمها ، وبقيت جثة الأمير الآخر سليمة .

المراجع

1. Wilson, John "The Burden of Egypt" P. 161 (The University of Chicago Press 1951).
2. Meyer, Eduard "Geschichte des Altertums" II, 1 seite 83-109 (stuttgart und Berlin 1928).
3. Ranke, Herman "Studies Presented to F. Griffith" P. 412 ff. (London 1932).
4. Breasted, James Henry "Ancient Records of Egypt" Vol. II p. 344 (The University of Chicago Press 1906).
5. Mercer, "The Tell - El - Amarna Tablets" Vol. I P. 187.
6. Ibid., Vol. II P. 15 ff.
7. Ibid., Vol. I P. 20.
8. Dossin, "Une Nouvelle Lettre d'El-Amarna" (Revue d'Assyrologie. Vol. II).
9. Mercer, "The Tell-El-Amarna Tablets" Vol. I. P. 23. (Letter 26).
10. Meyer, Eduard. "Geschichte des Altertums" II, 1. P. 324.
11. Sethe, Kurt. "Uebersetzung und Kommentar zuden alben Aegyptischen Pyramidentexten" Band IV, Lieferung 2 Page III ff.
12. Totenbuch, ed. Naville 15 A III.
13. « مصر والحياة المصرية فى العصور القديمة » تأليف « أدولف أرمان » و « هرمان رانكة » ترجمة عبد المنعم أبو بكر ومحرم كمال . ص ٤٤٠ — ٤٤١ .
14. Junker, H. und Delaporte, L. "Die Volker des Antiken Orients" Seite 32 (Freiburg im Breisgau 1933).
15. Breasted, J.H. "Ancient Records of Egypt" Vol. II P. 323 (The Univ. of Chicago Press 1906).
16. Journal of Egyptian Archaeology Vol. XVIII: P. 23.
17. Badawi (Ahmed) "Memphis Als Zweite Landeshauptstadt im Neuen Reich" P. 69 ff. Le Caire 1948.
18. Davies "The Rock Tombs of El Amarna" Vol. V (1908).
19. Davies, "The Rock Tombs of El Amarna" Vol. IV (1908).
20. Davies, ibid Vol. V (1908).
21. Schaefer "Die Anfaenge der Reformation Amenophis des IV" (Sitzungsberichte der Preussischen Akademie der Wissenschaften XXVI (1919) P. 477 ff.
22. Breasted, J.H. "Ancient Records of Egypt" Vol. II P. 417 and Davies "The Rock Tombs of El Amarna" Vol. III.
23. Wilson — John "The Burden of Egypt" P. 232 (The Univ. of Chicago Press 1951).

القنبلة الإيدروجينية والتقلبات الجوية

هل يؤثر الانفجار في حالة الطقس

للكاتب الألماني فالتر تيمر

ساد الاعتقاد أكثر سكان العالم بأن البرد والمطر اللذين كانا في صيف سنة ١٩٥٦ إنما يرجعان إلى التجارب التي أجريت لتفجير القنبلة الإيدروجينية ، كما أن عدداً قليلا من العلماء يشاطرهم هذا الرأى ، ولكن عالم الأرصاد الجوية ومدير محطة الأرصاد الجوية البحرية بمدينة هامبورج الدكتور «م . رودفالد» يعارض هذا الرأى ، ويشير إلى أن مثل هذه الفترات الشاذة في الطقس كانت تحـدث كذلك بين آن وآخر قبل عصر الذرّة ، ويحاول أن يكشف عن تفسير « طبيعى » لهذه الظواهر . ولأنه لم تعوزه البيانات الكافية عن سنة ١٩٥٦ فقد اتخذ من سنة ١٩٥٤ قاعدة لبحثه إذ كانت هي الأخرى غزيرة الأمطار ؛ كما أجريت فيها تجارب لتفجير القنبلة الإيدروجينية .

* * *

إن النظرية القائلة بأن القنبلة الإيدروجينية تفسد الطقس تجد في اليابان أبرز أنصارها من العلماء . ومن العسير في مثل هذه المسائل استبعاد وجهات النظر المحلية أو الخلاص من أثرها تماماً ، فاليابان قريبة من الأمكنة المختارة لتفجير هذه القنبلة ، ويهمها لأسباب عدة أن تتوقف هذه التجارب في هذا الجزء من المعمورة على الأقل ، ولكن هذا لا يعنى بالضرورة أن تكون مزاعم العلماء اليابانيين خاطئة ، بل من المحتمل جداً أن تكون صحيحة ؛ ولكن لا يجوز للباحث أن يغفل كل الإغفال الظروف المحلية وأثرها في التفكير .

أثر القنبلة يظهر بعد ٤ أشهر

ففي سنة ١٩٥٤ وبعد تفجير القنبلة الإيدروجينية بأربعة أشهر حدث تحوُّل عالمى في سقوط الأمطار صوب الشمال حتى كادت كميات المطر تعادل مثيلها في سنة ١٩١٦ ، وهي السنة القياسية في كثرة هطول الأمطار ، ولكن الناس ما زالوا يذكرون ثوران بركان « كراكاتو » بمضيق صندا (بإندونيسيا) سنة ١٨٨٣ ، فلقد أعقب هذا بعد أربعة أشهر أيضا — اضطراب جوّى في الكرة الأرضية لم يحدث في شكل أمطار ، ولكن في شكل اضطرابات ضوئية بلغت وقتئذ غايتها القصوى ، وكان التماثل في وصول أثر كل من الحادثين إلى غايته القصوى بعد أربعة أشهر نقطة لابتداء البحوث ولاستنتاج أشياء كثيرة ، واعتقد علماء الأرصاد الجوية من اليابانيين وخاصة الدكتور « أراكاوا » أن القنبلة الإيدروجينية تبعث في الطقس وفي الدورة الهوائية اضطرابات مماثلة لهذه التي انحسرت عنها ثورة البركان الكبير آنئذ ؛ وهم يستندون في هذا إلى النظرية المسلم بها التي وضعها الأستاذ « همفرى » سنة ١٩١٣ والتي ترجع التقلبات الجوية بوجه عام إلى آثار الرماد البركانى ، وهنا أيضاً نستطيع أن نذكر الاضطرابات الجوية التي تعرّض لها العالم بعد ثوران بركان «كاتماى» في «ألاسكا» سنة ١٩١٢ .

ولقـد وضع الدكتور رودفالد منحنياً لتقلبات الأمطار في العالم منذ سنة ١٩١٢ بعد دراسة عميقة

للأنباء الجوية العالمية خلال عقود السنين الأخيرة فتبين من دراسة هذا المنحنى البيانى أن سنة ١٩١٢، سنة ثوران بركان كاتماى ، كانت أكثر سنوات هذه الفترة جفافاً بحيث تختل القاعدة التى أريد قيام التماثل عليها بين ثورة البركان المذكور وأثر القنبلة الإيدروجينية ، وبحيث يتضح أن هطول المطر ليس نتيجة حتمية لانتشار الرماد البركانى الذى للقنبلة الإيدروجينية التى تؤثر فى الطقس بوسيلتين أخريين : وأولى هاتين الوسيلتين هو أثر الانفجار ، ويتمثل فى الصدمة القوية لطبقات الهواء ، ثم فى إشعاع كميات حرارية ضخمة لا بدّ أن تحدث حركات هوائية شديدة ، والوسيلة الأخرى هى تكوين الإيونات . ويتسبب عن الأشعة المحملة بالراديوم والتى لا يظهر أثرها فوراً إطلاقُ ذرّات الغازات الهوائية : أى أن هذه الجزئيات تأخذ شحنات كهربية فتتحول إلى « إيونات » ، وتصبح بهذا الوصف صالحة لتكثيف جزئيات بخار الماء، ويمكن أن تتكون حولها نقيطات مائية تتساقط كمطر فى النهاية . وكلما كثرت الإيونات كثر المطر

هذه هى النتيجة السهلة البسيطة !

أثر لا يبلغ وخز الإبرة

يرتاب معظم علماء الطبيعة الذرية والأرصاد الجوية بعد إجراء حساب دقيق فى أن مثل هذه الطريقة يمكن أن تؤدى إلى اضطرابات جوية عالمية لأن كميات الرماد المنبعثة من تفجير القنبلة الإيدروجينية فى حجمها الحالى ستظل أقل بكثير من مثيلاتها التى ينحسر عنها انفجار بركانى شديد . وإذا كانت آثار الطاقة المتولدة عن انفجار هذه القنبلة تعتبر مروعة هائلة بالنسبة لأى انفجار آخر فإنها لا تتجاوز وخز الإبرة بالنسبة إلى الكرة الأرضية . وتعتقد الغالبية الكبرى من هؤلاء العلماء أن الطاقة المنبعثة لا تكفى أن تحدث مثل هذه الدورات الهوائية الشديدة والأمطار الغزيرة ، وذلك ينطبق أيضاً على كمية الإيونات التى يمكن على وجه التقريب إحصاء عددها وما يعلق بها من نقاط المطر ، ولو أن هذه الأرقام لا تتفق مع حقيقة كمية المطر التى تتساقط.

وبالرغم من هذا فهناك أقلية من العلماء تعتقد صحة آثار القنبلة الإيدروجينية : إما لأنهم حصلوا من حساباتهم على نتائج مغايرة ، وإما لأنهم يفترضون وجود آثار تفاعل آلى لم نعرفها حتى المعرفة بعد .

أما الدكتور رودفالد فهو يميل إلى اعتبار أن هذه الظاهرة — ظاهرة طبيعية فى جميع نواحيها ، وفى رأيه أن القنبلة الإيدروجينية بالحجم الذى هى عليه الآن لا يمكن أن تغير من الأحوال الجوية العالمية ، ولكن إذا كبر حجمها كثيراً وجب عندئذ أن يبحث الموضوع كله على هذا الأساس بحثاً جديداً ؛ فمنحنى الأمطار فى الأجل الطويل يبين هطول أغزر الأمطار فى سنتى ١٩١٦ ، ١٩٥٤ وأقلها فى سنتى ١٩١٩ ، ١٩٣٠ : ففى الفترة ما بين ١٩١٦ — ١٩٣٠ انحدر المنحنى فى مجموعه كما أن السنين التالية لم تتعرض لتقلبات جوية متزايدة ، ولم يأخذ هذا المنحنى فى ارتفاع سريع إلا فى سنة ١٩٥٤ ولو أنه لم يرتفع إلى مستوى سنة ١٩١٦ . ولا شك فى أن مثل هذه السنين الكثيرة الأمطار سنون نادرة ، ولكن لا شك كذلك فى أنها كانت حقيقة واقعة سابقة لتفجير القنبلة الإيدروجينية .

لا يتأثر إلا جزء من سطح الأرض

ومن ثم يشير الأستاذ إلى أنه من العسير إثبات أن هناك زيادة حقيقيـــة فى كميات المطر العالمية لأن ٨٠ ٪ من الكرة الأرضية تحيط بها البحار حيث لا تقاس كميات الأمطار ، إذ لا نقيس منها إلا التى تسقط على الأرض بالرغم من أن القياس فى الغالب غير دقيق ؛ فهناك نحو ثمانمائة محطة جوية تذيع على العالم الأنباء الجوية كل يوم ولكن القليل منها هو الذى يعطى صورة كاملة لأحوال الجو البحرية

وتقلباتها فى فترة شهر أو شهرين ، ومن هذا القليل مصلحة الأرصاد الجوية بمدينة هامبورج .

وفضلا عن هذا فإن هذه المحطات الجوية الثمانمائة تمثل ¾ المساحة الأرضية لا أكثر ، فدول كبيرة فسيحة الأرجاء كروسيا والصين لا تذيع الأنباء الجوية ، ومثلها بلاد العرب وأمريكا الجنوبية ، ولهذا فإن الدكتور رودقالد يقول : إن وجود شبكة للأرصاد الجوية ذات حلقات أضيق وتمثل فيها هذه البلدان أيضاً قد تعطينا صورة مغايرة للصورة التى بين أيدينا عن الأحوال الجوية وتقلباتها ، وإلى أن يتحقق هذا فإننا نقول مؤقتاً بوجود زيادة فى كميات الأمطار التى تسقط على اليابسة ، ولكنها موزعة توزيعاً متفاوتاً بين مناطق الأرض بدليل أن ٤٥١ محطة جوية من ثمانمائة ، هى التى أذاعت فى سنة ١٩٥٤ أنباء عن هطول أمطار غزيرة على حين أعلنت ٣٣٣ من هذه المحطات الجوية أنها سنة بادية الجفاف ، أما المحطات القليلة الباقية فقد رأت بسنة عادية الأمطار والجو .

ولهذه البيانات والمستندات يصعب القول إطلاقاً بأن كميات المطر ازدادت فى العالم كله .

* * *

ويقول الأستاذ رودقالد إنه استند فى تخطيط المنحنى البيانى للأمطار على الأنباء الصادرة من ٣٥٠ محطة جوية ، وإن هذه التقلبات الكبرى التى أبانت عنها سنتا ١٩١٦ و ١٩٥٤ تبلغ ثلاثة أمثال التقلبات المتوسطة ، وإنه إذا احتفظت هذه التقلبات الكبرى بمستواها بعد أن تدخل أنباء بقية المحطات الجوية فى الحساب أصبحت أهلا لإجراء بحوث أخرى خاصة لمعرفة كنهها .

قوانين مجهولة

يمكن البحث عن الأسباب الطبيعية للتغيرات التى تتعرض لها الأمطار الأرضية فى الضغط الجوى وفى بخر المياه . ولأن الضغط الجوى على الأرض ثابت ككل أو فى مجموعه فلا بد عندئذ من أن يواجه الارتفاع فى جهة ما انخفاضاً فى جهة أخرى بحيث لا يمكن أن يحدث تغير كبير بالنسبة للكرة الأرضية ، أما البخر فيمكن أن يتأثر بأشعة الشمس وبتغير التيارات الهوائية ، ولكن لا يمكن اليوم ذكر شىء كثير تتوافر فيه الدقة العلمية عن العلاقة بينهما وبين كميات المطر التى تسقط على اليابسة ، ومن المحتمل أن تكون زيادة تساقط الأمطار فى بعض السنين خاضعة لقوانين طبيعية ، ولكن ماهية هذه القوانين إذا كانت قائمة فعلا وآثارها فى زيادة الأمطار ما زالت أشياء مجهولة لم يكشف عنها بعد .

* * *

ووفقاً لما ذكر فإن القول بأن تفجير القنبلة الإيدروجينية يحدث تغييرات جوية عالمية هو بمثابة الحكم على أمور لا نعرف عنها حتى اليوم معلومات صحيحة ، فضلا على أنه يستند إلى وجود تقلبات فى كميات المطر العالمية وأسبابها . وهذ أيضاً مجرد زعم لا نعرف عن كنهه شيئاً صحيحاً .

وليس الغرض من هذا القطع بأن القنبلة الذرية عديمة الأثر فى الأحوال الجوية ، ولكن المقصود هو التحفظ والحذر فى الحديث والحكم على مثل هذه الظواهر .

وإذا كان أكثر العلماء ينصحون بوقف تجارب القنبلة الإيدروجينية فليس مرجع هذه النصيحة إلى ما قد تحدثه هذه التجارب من تقلبات جوية ، ولكن إلى حقيقة أوضح تنحسر عنها هذه التجارب ، وهى تلويث الهواء والمطر بإشعاعات الراديوم ، فإن هذه الإشعاعات وإن كانت دون حدود الخطر المعروفة بكثير لا نعرف أيضاً الكثير عن آثارها الضعيفة فى الأجلين القصير والطويل إذا طال وجودها ، أو إذا اتخذت صفة الاستمرار أو التكرار حتى لنستطيع أن نقول واثقين : إن العالم لم يلج منطقة الخطر بعد .

عن مجلة : المراسلات الألمانية

سمات حضارة الأمم

بقلم الأستاذ على أدهم

لم تستطع أمة من الأمم المتحضرة سواء فى الماضى أو الحاضر أن تحقق المثل الأعلى للحضارة الإنسانية ، والظاهر أن تحقيقه من المسائل المتروكة للمستقبل إذا اطردت حركة التقدم ، ولم تقم فى سبيلها العقبات .

ويتفاوت حظ الأمم من الحضارة ، فبعض الأمم لا يزال متخلفاً فى مضمار الحضارة ، وبعضها قد نزل منها منزلا وسطاً ، وبعضها الآخر قد بلغ فيها المدى البعيد، ولكن الأمم المتحضرة بوجه عام تشترك فى سمات خاصة كلما عظم نصيب أمة منها كانت حضارتها أرفع مستوى وأبقى على الزمن . وقد تحرّى الكثيرون من الباحثين الاجتماعيين الكشف عن هذه السمات ، وسأشير إلى بعضها دون أن أحاول استقصاءها . وقد يختلف المفكرون فى تقدير قيمة كل سمة من هذه السمات ، ولكنها جميعها فى رأيى من الأهمية فى الطليعة .

* * *

وأرجّح أن أول سمة تمتاز بها الأمة الحية المتحضرة هى تقدير ماضيها ، ودراسته والعناية به ، ومحاولة استخراج العبر والعظات من ثناياه ، واستمداد الثقة بالنفس من مواقفه المشرقة ، وصفحاته الناصعة ، والإفادة مما قد يلمّ به من عيوب وسقطات ، وهزائم وانتصارات. وقد يكون هذا الماضى بعيد الأعراق طويل الآماد ، وقد يكون مقصوراً على عشرات السنين ، ولكن سواء طال هذا الماضى أو قصر فإن الأمة التى تنسى ماضيها وتتنكر له ، وتهمل ذخائره ولا تعبأ بتراثه ، وتتقدم فى طريق الحياة خالية الوفاض من الذكريات ربما لا تكون من الأمم المتخلفة ، ولا نستطيع فى الوقت نفسه أن نعدّها من الأمم التى ارتفع مستواها الحضارى . وماضى الأمة هو رأس مالها المتجمع على مدى السنين ، وبدون رأس المال لا تستطيع الأمة أن تبتنى لها مجداً ، أو توطد لها مكانة . وبطبيعة الحال لا مفرّ من مراعاة المحافظة على التوازن بين الماضى والحاضر لأن الأمة التى تتجه بكليتها إلى الماضى ، ولا تدير الطرف إلى الحاضر والمستقبل ، وتظل مستغرقة فى ذكرياتها السوالف ، وأمجادها القديمة قد تصاب بالجمود ، وتقف حركة تقدمها . والإسراف فى عبادة الماضى يضر بحياة الأمم كالإسراف فى أى شىء آخر .

* * *

ومن أهم السمات التى تتسم بها حضارة الأمم قدرة الأمة على خلق المؤسسات ، والنظم الثقافية والمالية والسياسية. وكل مؤسسة من المؤسسات أو نظام من النظم نتيجة لاحتشاد قوة من القوى البشرية ، وهذه القوة الشخصية تمثل السيطرة على قوى أخرى غير شخصية . ونستطيع أن نشبه الإنسانية بنهر عظيم تجمع مياهه من مستويات مختلفة ومنحدرات شتى ، وتتزايد قوته ، ويزخر تياره بتجمع هذه المياه وانطلاقها فى مجراه ، وهى تظل فى تدفقها واندفاعها حتى تصب فى البحر أو المحيط ، وفترة حياتها من المنبع إلى المصب تشبه حياة الإنسان الذى يولد ويشق طريقه فى الحياة ، وتنتهى حياته فى أعماق القبر ، ولكن على شواطئ النهر تبنى المدن العظيمة والحواضر الزاهرة ، ومن مياهه المنسابة المتدفقة تستمد

القوى لتشييد المنازل ومختلف أوجه النشاط الإنساني ، وهذه المدن العامرة والديار المشيدة تمثل المؤسسات والنظم الباقية ، التى تحفظ جهود الإنسان . والمدارس ومعاهد التعليم والجامعات جزء من هذه النظم والمؤسسات ، وبدونها تنطفئ شعلة الفكر ، ويخبو ضوء الثقافة . والمصارف ثمرة من ثمرات مجهودات الأمة المادية ، وهى تحفظ ثروتها ، وتتكفل بنقلها سليمة مصونة من جيل إلى جيل ، وتزيدها وتنميها . والفرد يذهب ويغمره النسيان ، ولكن النظام التربوى والنظام المالى والنظام السياسى كلها تبقى . والحكومة المدنية كذلك جزء من هذا النظام ، وفى ظلها الوارف يأمن الناس شر العدوان وخطر الفوضى التى تثير المنازعات ، وتجر الخراب والدمار .

ويعتقد الأوربيون أن الذى حفظ الحضارة الغربية لمدة ألف وخمسمائةسنة ووقاها الانهيار بالرغم مما استهدفت له خلال تلك الفترة الطويلة من الهزات العنيفة والأخطار الماحقة ثلاثة نظم : وهى النظام الإمبراطورى ، والنظام البابوى ، والنظام الجامعى . فقد كانت الإمبراطورية والكنيسة والجامعة هى موئل الحضارة وملاذها .

* * *

ومن سمات الأمم المتحضرة البارزة قدرة الناس على التكاتف والتعاون والائتلاف ، فالتضامن لازم لبلوغ أى هدف من الأهداف ولتحقيق الأمانى والآمال ، وهو عنصر جوهرى من عناصر إنشاء المؤسسات وخلق النظم ، وذلك لأن الفرد إذا أصر على الاعتزال ووقف منفرداً غلب على أمره ، وهان شأنه ، وأعجزه استغلال مواهبه ، وذهبت جهوده سدى ، ولكن إذا انضم إلى غيره من الناس أو ضم غيره من الناس إليه وجد فى هذا الاتحاد قوة ، وأعانه ذلك على إجادة التدبير واستيفاء أوجه النقص ، واتسع نطاق عمله . وتوحيد الصفوف يزيد الإنتاج ، وينمى الثروة ، ويضمن البقاء ، ويفسح المجال للمواهب المتنوعة التى يكمل بعضها بعضاً . وكذلك تكثر فى الأمم المتحضرة المشروعات الجماعية والشركات الكبيرة الناجحة والمؤسسات المالية الموفقة ، على خلاف الأمم المتخلفة التى يقل فيها التضامن بين الأفراد ، وتخفق فيها المحاولات لأنها تعتمد على المجهود الفردى المحدود ، ولا تحسن تعبئة المواهب وحشد القوى المختلفة ، فالتضامن قاعدة من قواعد الحضارة ، وسر من أقوى أسرار النجاح .

* * *

ومن دلائل حضارة الأمة اتساع صدرها . وامتداد آفاقها ، وسمو تفكيرها ، وخلوص نيتها ، وقدرتها على فهم موقف غيرها من الأمم وتقدير حاله النفسية ؛ فالأمة المتسامحة تحترم حقوق غيرها . وكما أن حسن الفهم والميل إلى التسامح والشعور بالواجب صفات الرجل الفاضل المحبوب ، هى كذلك صفات الأمة المتحضرة الراقية المحبوبة من سائر الأمم ، والأمة التى تعتقد على الدوام أن موقفها فى كل الظروف والمناسبات هو الموقف الحق ، وأن غيرها هو المبطل فى كل الحالات ، تعجز عن تفهم وجهة النظر فى غيرها من الأمم ، وتثير الأزمات ، وتستهدف للعداوات . وقد سقطت أمم كثيرة من مكانتها السامية لأنها لم تكف عن فرض سلطانها بطريق العنف والقسوة والاعتقاد بأن لها حقوقاً ، وليست عليها واجبات . وما يسمونه بالسياسة «المكيافيلية» قد تنفع الأمم نفعاً موقوتاً ، ولكنها فى المدى المتطاول تعود عليها بأفدح الأضرار وأعظم النكبات ، وفى التاريخ شواهد كثيرة على ذلك .

وقد ذكرت أن عناية الأمة بالأخذ بماضيها من سمات حضارتها ، ويمكن أن أؤكد كذلك أن اهتمام الأمة بمستقبلها من أول الدلائل على حضارتها ، وإذا كان تفهم الماضى له علاقة بحسن فهم النتائج التى أسفر عنها فإن الاهتمام بالمستقبل مرتبط بالنتائج المجهولة المرجوة ، والأمة تواجه هذا المستقبل المجهول ، فعليها أن تعد العدة للاحتمالات المختلفة ، وعليها أن تنمى مواردها المادية ، وأن تعنى بتنشئة الجيل الجديد ، ولا تألو جهداً فى النهوض

بمستواه ، وأن تتحرى ألوان التربية الملائمة لتفتح ملكات أفراد الأمة . وقد يكون حاضر الأمة زاهراً بساماً ، ولكن الأمة التي لا تفكر في غير نطاق هذا الحاضر الرغد لا تستطيع أن تضمن دوام الحال ، ولا أن تأمن تبدل الظروف والملابسات وتنكُّر الأيام وسوء ما تأتي به .

* * *

ومن أهم السمات التي تتسم بها حضارة الأمم المحافظة على كيان الأسرة وتقوية أواصرها لأن الأسر هي الوحدات التي يتكوّن منها المجتمع في أية أمة ، والأسرة تمثل سلسلة طويلة واغلة في الماضي ، وقد عرفت المجتمعات الإنسانية ألواناً شتى من الزواج : منها زواج الواحدة ، والزواج الذي لا يكتفي فيه الرجل بالزوج الواحدة ، والزواج الذي لا تقنع فيه الزوجة بالزوج الواحد ، وقد دلت تجارب الإنسانية على أن الاكتفاء بالزوجة الواحدة هو غاية التقدم لأنه يصون الأسرة من التفكك والانحلال ، ولأنه قمينٌ باستبقاء المودّة بين أفرادها . والأسرة التي تقوم على الود الخالص والصفاء التام خير مدرسة لتقويم الأخلاق وتهذيب الطباع ، وفضلا على ذلك فإن ظروف العالم الاقتصادية في شتى الأمم أصبحت لا تسمح للرجل بعدم الاكتفاء بالزوج الواحدة ، ومن مصلحة الطرفين في الزواج الامتناع عن إضافة شريكة جديدة ففي ذلك خير ضمان لوقاية الأطفال والعناية بأمرهم ، وحسن تربيتهم وتجنيبهم مساوئ الحياة العائلية المضطربة العاصفة بالمشكلات والهموم ، ودواعي الفرقة والتنافر . والأسر التي يهدمها الانطلاق مع الشهوات ، والإكثار من الزوجات ، وتهز كيانها من الحين إلى الحين حوادث الشقاق والطلاق تهدد حضارة الأمة ، والأمم التي تفقد إيمانها بقيمة تكوين الأسرة يفضي بها الأمر إلى العلاقات الجنسية الشاذة ، ومعنى ذلك الفوضى الاجتماعية ، وهبوط مستوى الأخلاق .

* * *

وهناك سمة أخرى من سمات الأمم المتحضرة يعنَى بها المفكرون السياسيون ، وربما كان من الصعب إثبات لفظة تحدد هذه السمة ، وأقصد بها قدرة الدولة على الجمع بين الثبات والاستقرار ، والمرونة والليونة . والحكمة القائلة « لا تكن صلباً فتكسر ولا ليناً فتعصر » تصدق على الحكومات . فالحكومة الطاغية المستبدة تدفع الأمة إلى الثورة ، والحكومة الرخوة المستضعفة تسوق إلى الفوضى ، والحكومة المطلقة تقضي على حرية الفكر والقدرة على الابتكار ، والحكومة العاجزة الواهنة تساعد في انطلاق النوازع الشريرة ، ويستغلها أصحاب الغايات المسفة والأهواء العارمة : وقد عمرت الدولة الرومانية طويلا لأنها استطاعت أن تجمع بين الشدة والحزم والصلابة والمرونة . ومعظم الأمم التي أخفقت في حياتها السياسية أوتيت من الناحيتين : ناحية الإسراف في الشدة ، أو ناحية الإفراط في اللين . ومن دلائل السمو في حضارة الأمة قدرتها على الملاءمة بين الشدة واللين ، والمرونة والثبات .

* * *

ومن السمات البارزة في حياة الأمم المتحضرة احترام حياة المواطن والعناية بصحته ؛ فالأمة المتحضرة تعرف أن صيانة حياة الفرد شرط لازم وواجب في طليعة الواجبات لأن حياة الأمة إذا سلبت تهاوى كل ما يقوم عليها وينبثق منها ، وإذا لم تقدّر حياة الفرد قلّ احترام كل ما ينشأ عن هذه الحياة وينبعث منها . واحترام حياة الفرد معناه احترام القوانين والنظم والعوامل المختلفة التي تخلقها حياة الفرد ، ويقال مثل ذلك فيما يتصل بصحة الفرد ؛ فالأمة المتحضرة تعمل للمحافظة على صحة الفرد ، وتتخذ كل الاحتياطات لصيانتها ، وتقاوم الأمراض ، وتوفر أسباب العلاج ، لتطيل حياة الفرد ، وتزيد سعادته ، وتقلل بؤسه وشقاءه . وفي تعريض حياة الفرد للعلل والأسقام تبديد لقوة الأمة لأن حيوية الأمة مستمدة من حيوية الأفراد ، وقد علل

بعض المؤرخين سقوط الدولة الرومانية بتفشى حمى « الملاريا » بين جندها العاملين ، فقد أنهك هذا المرض حيويتهم وأضعف عزائمهم .

° ° °

وسمة أخرى من سمات الأمم المتحضرة تستحق أن نقف عندها وقفة طويلة ، وأن نعيرها عناية كبيرة ، وهى إكبار الإنتاج الفكرى والآثار الفنية ؛ وأى دليل على ارتفاع مستوى حضارة الأمة أقوى من ذلك الدليل ؟ والعقل الإنسانى نتيجة حركة التطور الطويلة المدى ، وهو مفخرة الإنسان وأساس مجده وسلاح قدرته . وإنتاج العقول الراجحة الكبيرة هو أثمن ما تملكه الأمم وأغلى ما تعتزّ به الحضارات .

° ° °

وتظهر سمات حضارة الأمة جلية واضحة فى تقديرها لطرائف الفن من صور جميلة وتماثيل متقنة الصنع ومبان فخمة ، وتظهر كذلك فى مؤلفاتها الأدبية والفلسفية وطريقة مؤلفيها وكتّابها ومفكريها فى تناول مشكلات المجتمع وقضايا التاريخ ومعضلات القانون . وتعرف الأمة المتحضرة لرجال الفكر والفن فضلهم وحسن بلائهم فلا تقصر فى إكرامهم وإعلاء شأنهم وإتاحة الفرصة لهم ليفرغوا للإنتاج لأنها تعرف أن الفائدة الكبرى من هذا الإنتاج تعود عليها ، ويبقى ذخراً لها ، وأن الجزاء المادى زائل ، والأثر الأدبى أو الفنىّ باق ، وأن فى تشجيع العلماء والمفكرين ورجال الفنون تشجيعاً للروح العلمية والفنية ، واتجاهاً نحو الحضارة الإنسانية المثلى .

° ° °

ومن سمات الأمة المتحضرة عنايتها بالتربية وأساليبها ، واهتمامها بتحسين وسائل التعليم والتجديد فى أساليبه لمسايرة الظروف المتجددة ، وتوسيع نطاق التعليم والإكثار من المدارس والمعاهد والجامعات ، وتيسير أسباب الدراسة وإتاحة الفرص لأفراد الأمة للاغتراف من العلم والمعرفة .

وهناك سمة أخرى لها مكانة سامية بين سائر السمات التى ذكرتها ، وهى موقف الأمة من المجهول وسلوكها إزاء اللانهاية . ويختلف موقف الناس من المجهول الكامن وراء العلوم : فمن الناس من يقفون منه موقف عدم المبالاة ، ويعرضون عن التفكير فيه ، وهؤلاء تغلب عليهم السطحية والانصراف إلى مسائل الحياة المادية البحتة ، ومنهم من يقف من هذا المجهول موقف التحدى والإنكار ، وقد يكون من بين هؤلاء جماعة من ضحايا القضاء المحزن والمصير المؤلم ، ولكن الذين يقفون من هذا المجهول موقف الإجلال والإكبار هم المفكرون الأعلياء . وكلما كان مستوى حضارة الأمة أسمى كثر فيها المعنيون بالمجهول المكبرون لشأنه والذين يحاولون أن يقيموا الحياة الإنسانية الفانية على أساس من الأبدية الباقية . وموقف الأمة من الدين وأسلوبها فى فهمه ينمّ على نوع حضارتها ، ويكشف عن حقيقة معدنها .

° ° °

وهذه السمات التى ذكرتها هى بعض ما تمتاز به الأمم المتحضرة ، وكلما عظم نصيب الأمة من هذه السمات كان ذلك دليلا على أنها سائرة فى طريق التقدم ، وقد تتفاوت قيمة هذه السمات : فبعضها قد يكون له قيمة أسمى ، وقد تكون هناك سمات أخرى جوهرية فى حياة الأمم مثل القدرة على بذل المجهود ومصابرة الحوادث ، ومثل الاستفادة من أوقات الفراغ ، وطريقة الأمة فى مباشرة الألعاب الرياضية ، ولكنى كما ذكرت فى مستهلّ هذه الكلمة لم أقصد إلى الاستقصاء واستيفاء جميع السمات .

° ° °

والآن أودّ أن أنظر إلى حضارتنا المصرية المعاصرة فى ضوء هذه السمات التى تمتاز بها حضارة الأمم الراقية ؛ فما نصيب حضارتنا من هذه السمات ؟

لست أشك فى أننا أمة لها ماض عريق مجيد ، وحاضر

مقبول ، ومستقبل مأمول ؛ وعندنا الكثير من سمات الأمم المتحضرة ، ولكن بعض هذه السمات ينقصها فى حضارتنا التأكيد والتوضيح ، ومن الخير أن نعرف ما ينقصنا لنستكمله ، وأن نعرف عيوبنا لنصلحها ؛ ونحن أمة تعتز بماضيها ، وتفخر بآثاره الباقية ، ولكن تاريخنا طويل المدى ، وحضارتنا المصرية القديمة فى رأى بعض العارفين أقدم الحضارات ، ويشمل تاريخنا مصر الفرعونية القديمة ومصر اليونانية الرومانية ومصر الإسلامية ومصر الحديثة . ولمصر فى جميع هذه العهود أيامها المأثورة ، ومواقفها المشرقة ، وحضارتها اللاحقة ، ولكننا إذا استثنينا بعض المؤلفات القليلة النادرة لا نزال مقصرين فى دراسة هذا الماضى الطويل العريق ، والكثير من معلوماتنا عنه تنقصها الدقة ، وتعوزها الدراسة المستفيضة والبحث المستقصى .

أما من ناحية خلق المؤسسات وإنشاء المعاهد والجامعات فإننا منذ تخلصنا تخلصاً جزئياً فيا بعد سنة ١٩١٩ من براثن الاستعمار لا نزال ماضين فى الاستكثار منها ، وقد أخرجت هذه المؤسسات طائفة من المفكرين والكتاب والباحثين والعلماء ، وتسير هذه الحركة فى اتساع وشمول متزايدين ، ويرجى من ورائها الخير الكثير وتجديد الثقافة المصرية وتعميقها . وقد صحب ذلك حركة إنشاء المصارف والشركات والجمعيات التعاونية والنقابات والاتحادات الصناعية ومختلف المشروعات الاقتصادية والاجتماعية .

أما مسألة الشعور بالواجبات إلى جانب المطالبة بالحقوق فما تزال من السمات التى تحتاج إلى التأكيد والإبراز . وعندنا أفراد كثيرون يعرفون خير معرفة ما عليهم وما لهم ، ولكن السواد الأعظم فى الأغلب الأعم يعنون بالمطالبة بحقوقهم أكثر مما يعنون بمعرفة واجباتهم ؛ وربما كان السبب فى هذه الظاهرة ظلم الحكام فى العهود المظلمة التى ابتليت بها بلادنا ، وما نزال نعانى بعض آثارها السيئة وما خلفته فى النفوس من عقد وأسقام . والرجل المسلوب الحق له العذر إذا كان لا يفكر فى غير المطالبة بحقه المغتصب .

والتفكير فى مواجهة المستقبل وإعداد العدة لتلقى مشكلاته من السمات التى تجلت فى الحضارة المصرية المعاصرة ، وبخاصة منذ عهد الثورة الحديثة التى عصفت بالنظام الملكى الفاسد ، وأتمت على البلاد نعمة الاستقلال التام .

ولقد كانت سياسة « وبعدى الطوفان » غالبة على العهود التى سبقت الثورة ، أما العهد الحاضر فإنه يتهيأ للقاء المستقبل بحركة تصنيع واسعة النطاق ، وإجراء بحوث شاملة لتفجير منابع جديدة للثروات المختنقة ، ومحاولة صادقة لاستصلاح الأراضى البور ، وتمكيننا من الانتفاع بمياه النيل التى يذهب جزء كبير منها هدراً فى مياه البحر الأبيض المتوسط . وتيسير الانتفاع بهذا الجزء الضائع يمكننا من إحياء موات الصحراء ، واستنبات قفارها .

والأسرة المصرية فى حاجة إلى التدعيم والرعاية . وكثرة حوادث الطلاق تستوجب النظر ، وتتطلب تلمس أوجه العلاج ، والمعنيون بشئوننا الاجتماعية فيما أعلم يعرفون ذلك ويقدرونه ويعملون على إصلاحه بطرق شتى ، وفى مأمولنا أن تثمر جهودهم ، وتوفق محاولاتهم .

وقد قطعنا مرحلة فى العناية بصحة المواطنين وسلامة بنيتهم ، ولكن ما يزال أمامنا الكثير فى هذا السبيل . وعدد الأطباء غير متناسب مع عدد السكان ، وحياة الفلاح لا تزال فى ظروف مختلفة مستهدفة للأمراض المتوطنة ، ومستشفياتنا ليست مستشفيات نموذجية . ولست أنكر الجهود التى تبذل لإصلاح كل هذه العيوب ، ولكننا فى حاجة ماسة إلى المزيد .

ونهضتنا الفكرية على ما بها من ازدهار وتقدم يعتورها بعض أسباب النقص والتخلف ، والكتب التى تخرجها مطابعنا رديئها أكثر من جيدها ، ومعظمها لا يحمل سمة من سمات البقاء . وإذا استثنينا عدداً قليلا منها وجدنا أن الكتب التى تخرجها مطابعنا سطحية ينقصها جدية

البحث والتضج واستقامة التفكير واتزان الأحكام وجودة التحرى ، وقليلا ما تظهر بها الروح العلمية أو الروح الفنية . ويعتذر بعض الكتاب عن تناولهم الموضوعات التافهة بأن جمهور القراء تشق عليه البحوث المدروسة والفصول المعنى بها ، وأنهم يؤثرون السهل الدارج الذى لا يتطلب بذل أقل مجهود فكرى . وإذا سلمنا جدلا بأن وصفهم لجمهور القراء يطابق الواقع فإن من واجبهم بالرغم من ذلك أن يعملوا على الارتفاع بعقلية الجمهور وتعويده على تذوق الكتابة الجدية والعناية بالبحوث المتقنة .

وإقبالنا على القراءة وحب الاطلاع لا يلائم مستوى حضارتنا . وتتجه العناية إلى تزويد مكتبات المدارس والمعاهد بعدد أوفر من الكتب لتشجيع الطلبة على القراءة ، ويخيل إلىّ أن الأمر فى حاجة إلى مزيد من العناية .

وإقبال المصريين على التعليم ظاهرة واضحة وهو إقبال يزداد على مر الأيام . وطرائقنا فى التعليم لم تبلغ بطبيعة الحال حد الكمال ، وما تزال فى حاجة إلى المراجعة والتنقيح ، وإن كانت وزارة التربية لا تألو جهداً فى تحرى النظم الكفيلة برفع مستوى التعليم ، وتستعين فى ذلك بخبرة العارفين وتجارب المتخصصين ، وهى تحاول أن تتعرف العلل وتستدرك أوجه النقص .

والواقع أن تقلص النفوذ الأجنبى ، وتملكنا زمام أمورنا ، قد أتاحا لنا الفرصة للقيام بحركة إصلاح ثورية شاملة ستؤتى ثمارها . وعندنا من الإمكانيات المادية والعقلية ما يجعل فى استطاعتنا خلق حضارة ممتازة واضحة المعالم باهرة السمات .



جامعة القاهرة فى الصباح — للأستاذ عبد الفتاح عيد



زهور بالأشعة السينية

الدكتور صبحي ملوك

رسالة الشعر الفنية

بقلم الأستاذ مصطفى عبد اللطيف السحرتى

(١)

على ولاء الزمن يحيا قصيد ، وترقد فى مثواها الأخير آلاف من القصائد .

* * *

يحيا القصيد الفنى ويجتاز القرون ، وإن اختفى فى جيل ، لمع فى جيل آخر ، كالبدر فى السماء إذا حجبته سحابة دكناء ، ما يلبث أن يعود بعد انقشاعها باهر الضياء .

والقصيد الفنى هو وليد تجربة شعورية فى البداية يخمرها العقل الباطن ، ويهذبها العقل الواعى بعد أن ترقى إليه ، ثم يبرزها إلى عالم النور .

القصيد الفنى خلق جديد ، ينجبه الشاعر الموهوب بوسائله الفنية ، جامعاً إلى الإيقاع الآسر : الخيال المحلق . . . وينظم منه كائناً عضوياً جديداً ، تجربة جديدة متماسكة موحدة على درجة كبيرة من الحدة والمفاجأة .

رقدت قصائد أبى العلاء المعرى فى الظلال ، ولمعت فى الأضواء قصيدته :

غير مجد فى ملتى واعتقـــادى
نوح بـــاك ولا ترنم شاد
وشبيه صوت النعى إذا قيـ
س بصوت البشير فى كل ناد
أبكت تلكم الحمامة أم غنـ
ـت على فرع غصنها المياد
صاح ! هذى قبورنا تملأ الرحـ
ـب ، فأين القبور من عهد عاد ؟!

لمع هذا القصيد لا لفكرته فقط ، بل لفنيته ، لجلال موسيقاه ، لصوره المقوية لفكرته ، لتقفيته الداخلية ، لوحدته العضوية ، لحيوته التعبيرية . . للشعور الذى ينتال منه بمآل الإنسان .

هذه التجربة الشعورية ، ليست فكرتها خافية ، وإنما الكلمات المنتقاة والإيقاعات السيالة ، والصور المتحركة فيها ، تنقل إلى القارئ عند التلاوة شعوراً جديداً ، شعوراً جليلا حاداً مرهفاً بالفكرة .

هذا الشعور المنتقل إلينا فى حدة ، هو الذى يكشف عن رسالة الشعر الفنى ، هذه الرسالة التى تنعش الروح ، تقوى الشعور ، تزيده سعة ، وتملؤه فرحة ، وتلهب الحماسة وتضفى على أفكارنا الإضاءة واللمعان .

هذه هى رسالة الشعر الفنى فى كل جيل .

(٢)

وليست رسالة الشعر الفنية مقصورة على فنيته ، أو جماليته ، بل إنها تشغل مادته ومحتواه ، وقيمة هذه المادة أو ذاك المحتوى فى عصره ، وقيمة الحقائق والفكرات التى ينتظمها الشعر ، تحدد — فى العصر الذى يعيش فيه — درجة امتيازه أو نبوغه أو عبقريته .

فعصر يحفل بالفكرات المطلقة ، وعصر يحفل بالخواطر النفسية ، والعواطف الفردية ، وعصر يحفل بالتأملات الذاتية ، وعصر يحفل بالفكرات القومية ، وعصر يحفل بالفكرات السياسية والاشتراكية .

والعصور فى تقلبها تحتضن فكرات وعقائد معينة ، ويرفع الشعر من أجلها درجات فى عصرها .

ومع هذا ، فإن الإنصاف يقول : إن القصيد الفنى يرتفع على هذه الالتزامات الموضوعية ، وتبقى حقيقة لا مرية فيها ؛ هى حرية الفنان فى الموضوع الذى يختاره ، لأن من رسالة الفن الحرية .

° ° °

قد لا نرضى بفكرات الرومانتيكيين فى جيلنا الحاضر ، وقد لا يروق لنا تعبيرهم عن فرديتهم وخلجات نفوسهم ، وشطحاتهم مع أبناء الطبيعة وبناتها ؛ ومع هذا فإننا لا نستطيع إنكار حريتهم وفنهم ، لا نستطيع إلا أن نسجد سجدة الفن لقول أبى القاسم الشابى فى قصيدته « أغانى الرعاة » :

أقبل الصبح يغنى للحياة الناعسه
والربى تحلم فى ظل الغصون المائسه
والصبا تُرقِص أوراق الزهور اليابسه
وتهادى النور فى تلك الفجاج الدامسه

وذلك على الرغم من شعرها الصافى ، الذى لا هدف من ورائه ، ولا نستطيع إنكار حرية الشاعر اليائس أى شبكة . . . هذا الشاعر اللبنانى ، المتألم ، الساخط ، البرم من الحياة ، إذا حدثنا عن لحظة من لحظات هدوئه — وهى نادرة جداً — فى مشهد الغروب الجليل إذ يقول :

اسجدى لله يا نفسى فقد وافى المغيبْ !
واستريحى من عناء الفكر فالفكر رهيبْ
واسترى الآلام حيناً بابتسامات الحبيبْ
فغداً ترجع آلامك والآتى قريبْ !

° ° °

هو ذا الفلاّح قد عاد من الحقل الجميلْ
فى يديه المنجل الحاصد والرفش الطويلْ
وعلى أكتافه حملٌ من القمح ثقيلْ
فهو تعبان وفى عينيه آثار اللهيبْ
اسجدى لله يا نفسى فقد وافى المغيبْ !

° ° °

مثل هذه الدرر الفنية ستعيش ، بل إنها ستخلد ، لما تحمل من رسالة جمالية منعشة للوجدان مذكية للتأمل ، واليقظة الروحية .

(٣)

وإذا كانت رسالة الشعر الموضوعية تتحدد بفكرات العصر ومعتقداته ، وأشواقه وآماله ، فما هى رسالة الشاعر فى الوقت الحاضر ؟ .

وفى الوقت الحاضر لم يعد الشاعر يهتمّ كثيراً بالتعبير عن أى شىء وكل شىء ، فرسالة الشاعر لم تعد مطلقة الحرية .

إن شاعر اليوم عاد لا يهتمّ بمناجاة القمر لذاته أو مسامرة الوردة ، أو مناغاة البلبل ، ولم يعد يهتم بالتعبير عن خواطره وعواطفه الفردية : آلامه وأشواقه ولواعج قلبه ، بل إنه ألقى اهتمامه إلى الوعى الجديد ، وصلاته بمجتمعه ، وناسه ، ودنياه ، وما يعجّ فيها من أحداث .

هذا الوعى الجديد بالمشاركة الجماعية عدّل من رسالة الشعر الجمالية المطلقة الحرية ، وأصبح المحتوى الاجتماعى من العوامل الفعالة فى إعلاء قيمة الشعر الفنية .

لم يعد يرضينا تناول الشاعر حبّه الخاص ، وإن أشجانا بفنه ، بقدر ما يعنينا تناول الشاعر لحب وطنه أو حب الإنسانية .

وفى هذا التحوّل من ميدان الذاتية إلى الميدان العام ، أو إلى الميدان الإنسانى غنم مزدوج للبشرية ، وللشاعر نفسه ، فى تقوية شخصيته وتوسيع آفاقها ، وفى ذلك تقدّم للبشرية لا ريب فيه .

فهذا الشاعر الفرنسى « أراجون » ينصت إلى المذياع ليلة ، فيسمع أغنية من أغانى الحب ، فينتفض القلم فى يده ، ويقول :

« لا تحدثونى عن الحب ، فإنى أسمع قلبى يضطرب ، إن النار تغنى فى المذبح المتّقد ، واللهب يصنع عطراً من القبلات ! » .

وهذا « بالمونت » الشاعر الروسى ، يغلق قلبه ، ولا يفتحه على الحب ؛ لأنه مشغول بحب أوسع ، بحب كبير ، إذ يقول فى قصيدته « لاحب » ! .

على وسادة منتصف الليل كنا توأمين
ولكنى كنت فى روحى وحيداً
لقد بحثت عن الخداع
والنسيان فى النوم العذب
لأنى أعلم أن لا حبَّ فى الحب . . .
الحبُّ سرابٌ عميق . . . . . .
يورِّث أرواحنا عذاباً جديداً وعميقاً ؛
الحب صديقٌ سائر ، وعدوٌّ باق
فلا تعذِّب روحى بالألم الكامن
إنسَ ، وتعلَّم ألا تبكى أو تحب !

. . .

شاعر اليوم لا يقف عند هذا الحب الكبير ، ولكنه يميل إلى الفكرة ، ويميل إلى الفكرة المحددة ، لا الفكرة السائبة المطلقة التى كانت ، ولا تزال تسوم أغلب الشعر العربى : قديمه وحديثه .

فالشاعر الوطنى الذى يدور ويحوم حول المعانى بحب الوطن ، أو مجاهدة الاستعمار ، أو الانقضاض على الظلم ، أو التأثر لبؤس شعب أو جماعة فى شعب ، ويعبر عن نفسه تعبيراً مطلقاً — لم يعد يجذبنا مثل هذا الشاعر الذى يحدد فكرته ، ويتناول موضوعه ، فى تحديد ودقة ، وخصوصية .

. . .

وحتى فى الشعر الوجدانى نجد شاعر اليوم يتفلت من الأفكار المطلقة ، وينسج قصيدته من واقعه ، ويشحنها بخصوصياته .

ولم يعد شاعر اليوم بذلك الخانع المتهافت ، الواهن ، المنهزم ؛ بل ذاك الشجاع ، الآمل ، المتفائل ، العامل ، المنتصر .

لا أقول إن المرارة لا تتسرب إلى قلبه ، والتشاؤم لا يطوف بمزاجه ، ولكنه إذا رسب بقلبه مثقالان من المرارة فإلى جانبهما عشرة مثاقيل من التفاؤل ، لقد آمن بنفسه وآمن بإمكانياته الواسعة ، وآمن بأخيه الإنسان .

وأبرز ما نجد هذا الأمل فى شعر الشاعر التركى الكبير ناظم حكمت ، إذ نجد فى شعره تفاؤلا عجيباً وحبًّا قويًّا لشعبه مهما كابد من عذاب .

يقول فى سجنه :

« ليس لدىَّ ما أقدِّمه لشعبى
لا شىء إلا تفاحة . . .
تفاحة حمراء . . . هى قلبى ! »

. . .

وشاعر اليوم يحتضن وطنه كما يحتضن الإنسانية جمعاء إنه يدين بالإخاء ، والإيثار ، والنزعة الإنسانية ، والسلام ؛ سواء اقتطع تجربته من مجتمعه أم اقتطعها من حياة الآخرين . فهو دائماً الرجل الإنسانى ، الشفيق ، العاطف ، السمح ، المتسامح ، الغافر لذنوب الناس وأخطاءهم .

وهذا هو الشاعر الفنان :

يقول المرحوم الدكتور أبو شادى :

من ظُبا الألم قد خُلقتْ نفـ
سى ، ومن ظُلْمة الورى جاء يأسى
وأرى الله فى الحياة ، فدعنى
عابداً ، غافراً لأبناء جنسى

. . .

ولا نستطيع الاستطراد فى تبيان تفاصيل الرسالة الفنية للشاعر ، سواء أكانت موضوعية تستوحى روح الجيل ، وتجاربه الإنسانية ، أم كانت شكلية تعتمد الحرية والمغامرة ، والتجريب ، والتحرُّر من القوالب التقليدية ، ولكنا نكتفى بالقول إجمالا :

إن رسالة الشعر الفنية هى رسالة الجمال والحرِّية من الوجهة الشكلية .
رسالة الحب الكبير والتفاؤل ، والعمل ، والجهاد .
رسالة الإيمان بالإنسان وإمكانياته الواسعة .
رسالة الإخاء والسلام .



١ — حشوة من الرخام

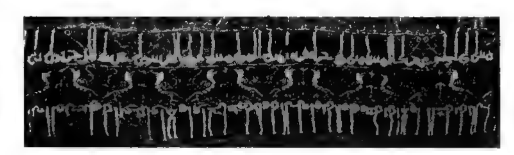
الكتابة العربية عنصر زخرفي

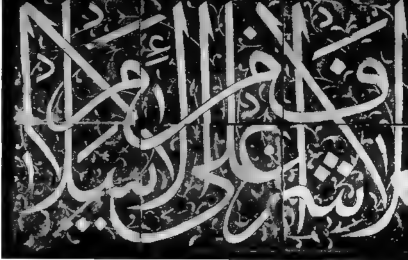
بقلم الدكتور محمد مصطفى

الفنان يهدف إلى الكشف عن الجمال وإبراز مظاهره ، ويجعلنا نتذوق فتنة التحفة ونحبها . فالجمال والحب يتمم كل منهما الآخر ، والتحفة الإسلامية تشعرنا بالجمال والحب ، وتنطبع بهما ، فالفنان المسلم يضع نصب عينيه دائماً قول النبي محمد عليه السلام : « إن الله جميل يحب الجمال » .

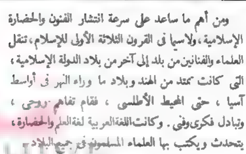
وإننا إذا استعرضنا تحفاً من شتى البلاد الإسلامية ، فنشعر لأول وهلة أنه يجمع بين هذه التحف — بصفة عامة — طابع خاص يتميز به الفن الإسلامى ، وأنها تنتمى إلى وحدة فنية واحدة ، تربط بينها ، بالرغم من بعد الشقة بين البلاد التى صنعت فيها ، والعصور المختلفة التى ترجع إليها .

٢ — زخارف منسوجة على قطعة من الشاش الرفيع





٣ — بلاطات من خزف آسيا الصغرى



ومن أهم ما ساعد على سرعة انتشار الفنون والحضارة الإسلامية، ولاسيا فى القرون الثلاثة الأولى للإسلام، تنقل العلماء والفنانين من بلد إلى آخر من بلاد الدولة الإسلامية، التى كانت تمتد من الهند وبلاد ما وراء النهر فى أواسط آسيا، حتى المحيط الأطلسى، فقام تفاهم روحى، وتبادل فكرى وفنى. وكانت اللغة العربية لغة العلم والحضارة، يتحدث ويكتب بها العلماء المسلمون فى جميع البلاد.

* * *

واختص الفن الإسلامى وحده دون غيره من الفنون، باستعمال الكتابة العربية كعنصر زخرفى، لما تتميز به من جمال ومرونة، وقابلية على التشكيل والتصنيف. والبلاطات من الخزف فى شكل ٣ (رقم السجل ١٥٠٠٧) من صناعة آسيا الصغرى فى القرن الحادى عشر الهجرى (١٧ م)، عليها كتابة عربية، راعى الخطاط فى كتابتها أن تظهر فى انسجام وتناسق، فزخرف أرضية الكتابة بفروع نباتية دقيقة، مزهرة ومورقة، وهادئة الألوان، ليزيد من جمال الكتابة، ومن الغرض الزخرفى.

* * *

وإننا نجد فى كثير من خزائن القصور والكنائس الأوروبية، تحفاً إسلامية، وصلت إلى هناك عن طريق تبادل الهدايا، أو التجارة، أو كانت مما أخذه معهم الحجاج والرحالة، وقناصل الدول وسفراؤها، أو غيرهم من عشاق

٤ — كوب من الخزف المتعدد الألوان



الفن من الأوروبيين، الذين استهواهم ما فى هذه التحف من خيال رائع ، وجاذبية ساحرة وانسجام ، فكانوا يحفظونها فى قصورهم ، أو يودعونها للنذور خزائن الكنائس ، حيث كانت تستعمل لحفظ الماء أو الدم المقدس ، وفى الأغراض الكنسية والطقوس الدينية ، بالرغم مما عليها من كتابات عربية إسلامية .

وقد بلغ إعجاب الأوروبيين بهذه التحف الإسلامية ، وبما عليها من كتابات عربية جميلة ، أن الكثيرين من مصورى عصر النهضة ، كانوا يزخرفون أطراف الملابس والأشرطة بحروف من الكتابة العربية ، كلما أرادوا أن يضفوا على لوحاتهم لوناً من الجلال يليق بمقام صاحب الصورة .

وفى شكل ٦ لوحة تمثل « تتويج العذراء » للمصور فرا ليبو ليبى محفوظة بمدينة فلورنس . ونرى فى هذه اللوحة حروفاً من الكتابة العربية ، تزخرف شريطاً يمسك به الملائكة .



٥ – ورقة من مصحف

. . .

والواقع أن تجويد الخط العربى ميدان واسع من ميادين الفنون الإسلامية ، اشتهر فيه كثيرون من



٦ – « تتويج العذراء » للمصور فرا ليبو ليبى

الخطاطين ، نطالع أخبارهم فيا كتبه لهم المؤرخون من تراجم . كما أننا نعرف عدة أنواع من الخط العربى ، اشتهرت وازدهرت ، وشاع استعمالها فى بلاد إسلامية مختلفة ، وعصور متتابعة .

وليس هذا مجال الحديث عن أنواع الخطوط العربية ، أو عن مشاهير الخطاطين ، بل إننا سوف نقتصر فى الكلام على استعمال الكتابة العربية ، كعنصر زخرفى ، على التحف الإسلامية . والتحف المنشورة هنا محفوظة فى متحف الفن الإسلامى بالقاهرة .

• • •

غير أننا نذكر هنا نوعين رئيسين من الكتابة العربية ، شاع استعمالها فى جميع البلاد الإسلامية ، هما : الخط الكوفى ، والخط النسخى .

وفى شكل ٥ (رقم السجل ١٣٩٩٩) ورقة من مصحف ، مكتوب بالخط الكوفى ، فى بلاد الجزيرة ، فى القرن السادس الهجرى (١٢ م) . وقد عمد الخطاط أن يكتب المتن على أرضية من فروع وسيقان وأوراق نباتية ، ليزيد من جمال الكتابة التى تمتاز بالانسجام وحسن التوزيع .

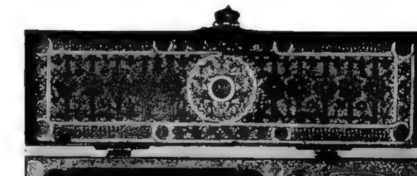
والكوب من الخزف الإيرانى فى شكل ٤ (رقم السجل ٣٦٠٠) من نوع مينائى متعدد الألوان ، من القرن السابع الهجرى (١٣ م) ، يزخرفه شريط به حيوانات خرافية ، تخطو بعضها خلف بعض . وعلى حافة



٧ - شمعدان من النحاس المكفت بالفضة .

الكوب كتابة دعائية بالخط الكوفى ، نراها باللون الأسود على الحافة من الداخل ، وبالأبيض المحفوظ على أرضية سوداء على الحافة من الخارج .

ومن أمثلة الخط النسخى حشوة صغيرة من الرخام فى شكل ١ (رقم السجل ٢٣٣٠) ، من مصر فى القرن



٨ - مقلمة من النحاس المكفت بالفضة والذهب



٩ – تركيبة من الخشب من المشهد الحسينى

الثامن الهجرى (١٤ م) ، كتبت عليها البسملة ، بارزة بالحفر على أرضية تقل بروزاً ، من فروع نباتية مورقة ، تلتفّ فى أناقة ورشاقة .

والمشكاة من الزجاج المموه بالمينا المتعددة الألوان ، فى شكل ٢٣ بالألوان (رقم السجل ٣١٣) ، من أواخر القرن السابع الهجرى (١٣ م) ، نرى على رقبتها آية النور بالخط النسخى ، وعلى بدنها كتابة دعائية بالخط النسخى أيضاً للسلطان الناصر محمد بن قلاون ، أحد سلاطين المماليك بمصر . والكتابة على أرضية من فروع مورقة ، وتتخللها أشرطة بها زخارف نباتية دقيقة .

* * *

وأحياناً نجد هذين النوعين من الخط – الكوفى والنسخى – مجتمعين على تحفة واحدة إمعاناً فى التنويع فى زخارف هذه التحفة .

وفى شكل ٩ جانب من تركيبة من الخشب (رقم السجل ١٥٠٢٥) ، صنعت للمشهد الحسينى فى القاهرة ، فى عصر السلطان صلاح الدين يوسف بن أيوب ، وعليها كتابات قرآنية على أرضية من زخارف نباتية ، بارزة بالحفر ، تقرأ منها البسملة ، مرة بالخط الكوفى ، وأخرى بالخط النسخى .

والمقلمة فى شكل ٨ (رقم السجل ٤٤٦١) من النحاس المكفّت بالفضة والذهب ، على قاعها كتابة دعائية بالخط النسخى ، للسلطان المنصور محمد بن قلاون ، أحد سلاطين المماليك بمصر ، فى القرن الثامن الهجرى (١٤ م) ، وعلى الغطاء كتابة بالخط الكوفى الزخرفى ، ذات حروف مجدولة متناسقة . ويحيط بالكتابة زخارف نباتية ، من وردات وزهرات لوتس صينية .

* * *

ولم يقتصر الفنانون المسلمون على هذه الأنواع من

١٠ – شمعدان من النحاس



11 – تفاصيل من رقبة الشمعدان فى شكل 12



الكتابة العربية ، فى شكلها العادى ، بل حوروا فى أشكال الحروف ، وجعلوها مرة تنتهى بضفائر مجدولة تشبه المقصات ، كما نرى فى شكل 10 (رقم السجل 4072) على شمعدان من النحاس باسم سلطان مصر الأشرف قايتباى الذى وقفه على الحجرة النبوية الشريفة بالمدينة المنورة ، فى سنة 887 هـ (1482 م) .

ومرة أخرى يسبح الفنان فى أفق الخيال . ويجعل حروف الكتابة تنتهى بصور أشخاص فى مناظر صيد وموسيقى وطرب ، ويرسم بدلاً نقط الحروف رءوس حيوانات وطيور ، كما نرى فى شكل 12 على رقبة شمعدان من النحاس المكفت بالفضة والذهب (رقم السجل 4463) ، تزخرف الشريط الأسفل منه كتابة دعائية من هذا النوع ، تظهر تفاصيلها فى شكل 11 . وعلى القسم العلوى من هذه التحفة سطر كتابة بالخط النسخى باسم كتبغا المنصورى الذى تولى الحكم فى مصر فى سنة 694 هـ (1294 م) .

12 – رقبة شمعدان من النحاس المكفت بالفضة والذهب



• • •

واتخذ الفنانون ، فى جميع البلاد الإسلامية، الكتابة العربية كوسيلة للربط بين الوحدات الزخرفية ، أو لملء مناطق وجامات بكلمات ، أو بأبيات من الشعر .

وقطعة النسيج فى شكل 13 (رقم السجل 3085) من مصر فى القرن الثامن الهجرى (14 م)، عليها شريط



١٣ – نسيج عليه زخارف مطرزة

مطرّز ، بوسطه كتابة دعائية بالخط النسخى ، تقرأ : « سعادة مؤبدة ونعمة مخلدة » . وتتكرر هذه الكتابة فى مناطق تربط بين وحدات زخرفية دقيقة .

والقدر فى شكل ٢٢ بالألوان (رقم السجل ١٥٩٨٠) من الخزف من نوع الفيوم ، ويرجع إلى أواخر القرن

١٤ – سجادة من نوع إصفهان



الخامس الهجرى (١١ م) ، عليه مناطق نجمية الشكل ، تزخرف بعضها كلمات دعائية بالخط الكوفى ، تقرأ : « بركة كاملة » .

والسجادة فى شكل ١٤ (رقم السجل ١٥٧٦٤) ، من نوع إصفهان من القرن الحادى عشر الهجرى (١٧ م) ، وتتألف زخارف الإطار من جامات ممتدة ، بها أبيات من الشعر الإيرانى ، وتربط بين الوحدات الزخرفية الأخرى .

• • •

وكثيراً ما يملأ الفنانون مساحات وأشرطة بعبارات وكلمات ، أو بحروف من شبه الكتابة ، لا رابط بينها ، ولا معنى لها سوى الغرض الزخرفى المحض .

وفى شكل ١٨ (رقم السجل ٢٠٧٧) بلاطة من الخزف المصرى من القرن الثامن الهجرى (١٤ م) ، ملأها الفنان بأنواع مختلفة من الكتابة العربية للغرض الزخرفى المحض . فنرى عليها فى الوسط كتابة بالخط النسخى ، تنتهى حروفها بأشكال مجدولة بطريقة هندسية ، وتحيط بها على الحافة كتابة أخرى بالخط الكوفى الزخرفى . وفى الأركان توقيع الخزّاف غيبى بن التوريزى ، وقد قصد فى أسلوب كتابته أن يقلد به توقيعات الخزّافين الصينيين على أنواع البورسيلان والسيلادون التى كانت تستورد إلى مصر ، وكان لها تأثير كبير فى الأسلوب الفنى المصرى ، ولا سيا فى القرن الثامن الهجرى (١٤ م) ، فاقتبس من الفن الصينى بعض العناصر الزخرفية ، ومحاكاة الطبيعة فى رسم الحيوانات والطيور والنباتات .



١٥ — صحن من خزف من نوع آمول

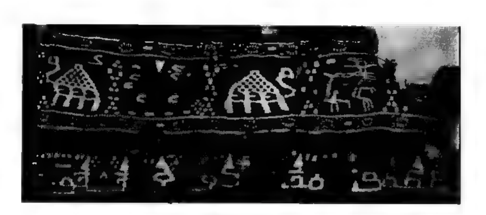
والشمعدان فى شكل ٧ (رقم السجل ١٥١٢٤) ، من صناعة الموصل فى أوائل القرن السابع الهجرى (١٣ م) ، يزخرفه شريطان رفيعان ، بهما كتابة دعائية بالخط النسخى ، ويحدهما من أعلى وأسفل شريطان عريضان ، عليهما صور سباع بارزة . وتعلو جدار الشمعدان تماثيل طيور صغيرة ، تظهر وكأنها شرفات .

وقطعة النسيج فى شكل ١٦ (رقم السجل ٥٢٦١)، من صناعة مصر فى القرن الرابع الهجرى (١٠ م) ، عليها سطران مطرّزان من شبه كتابة زخرفية ، ومثبت بينهما شريط منسوج به جامات سداسية الشكل ، بكل منها رسم طائر يشبه البطة ، وبألوان متعددة ما زالت زاهية وقوية فى مظهرها .

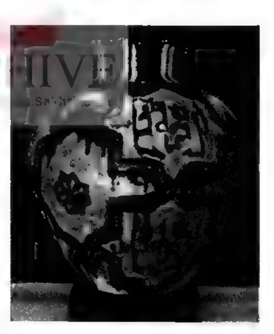
والصحن فى شكل ١٥ (رقم السجل ١٦٠١٩) ، من الخزف الإيرانى ، من نوع آمول ، ويرجع إلى القرن السادس الهجرى (١٢ م) ، يزينه فى الوسط طائر ، رسمه الفنان بخطوط بسيطة ، سريعة ، لها تأثير خاص . ويحيط بالطائر شريطان بهما حروف من شبه الكتابة الزخرفية .

١٦ — نسيج عليه زخارف منسوجة وشبه كتابة مطرزة

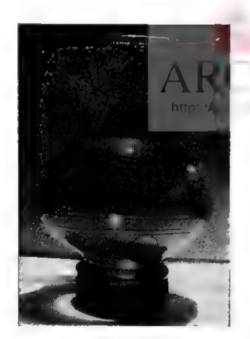




٢١ – نسيج من صناعة الفيوم



٢٢ – قدر من الخزف من نوع الفيوم



٢٣ – مشكاة من الزجاج المموه بالمينا

تصوير الدكتور محمد مصطفى

ومن الطبيعى أن يستعمل الفنانون الكتابة العربية ليُنقش بها اسم صاحب التحفة ، مقروناً بصيغة دعائية له ، وكذلك اسم الفنان ، ومكان الصناعة وتاريخها .

والسلطانية من الفخار المطلى بالمينا ، فى شكل ١٧ (رقم السجل ٣٩٤٥) ، عليها رنك صاحبها السيفى قرجى ، يتخلل سطر كتابة دعائية له بالخط النسخى ، وهو أحد أمراء المماليك فى مصر فى القرن الثامن الهجرى (١٤م) .

وفى شكل ٢ (رقم السجل ٨٢٦٤) جانب من قطعة من الشاش الرفيع ، عليها سطران من كتابة بالخط الكوفى باسم الخليفة الفاطمى الحاكم بأمر الله وولىّ عهده عبد الرحيم بن إلياس الذى نصّب وليّاً للعهد فى سنة ٤٠٤ هـ (١٠١٣ م) . وبين هذين السطرين شريط به وحدة زخرفية متكررة، تتألف من عصفورين متقابلين بينهما شجرة الحياة . وهذه الزخارف



١٧ – سلطانية من الفخار المطلى بالمينا

١٨ – بلاطة من خزف عليه ترقيع قيشى



منسوجة بدقة وعناية ، تدل على مقدار ما بلغته صناعة النسيج فى مصر من إتقان وإبداع .

وفى شكل ١٩ (رقم السجل١٣٩) ، سطح كرسى من النحاس المكفت بالفضة ، نرى عليه فى الوسط كلمة «محمد» بالخط النسخى ، ويحيط بها بالخط الكوفى كتابة دعائية ، تشمل اسم السلطان الناصر محمد بن قلاون وألقابه ، ثم تتكرر هذه الكتابة مرة أخرى على الحافة ، ولكن بالخط النسخى ، وتتخللها فى الأركان رسوم بط طائر . وعلى هذا الكرسى توقيع الصانع محمد بن سنقر البغدادى ، وتاريخ سنة ٧٢٨ هـ (١٣٢٧ م) .

والصحن فى شكل ٢٠ (رقم السجل ١٤٩٣٠) ، من الخزف ذى البريق المعدنى ، عليه فى الوسط حيوان خرافى مجنح ، يتدلى من فمه فرع نباتى . وعلى الحافة جامات بها زخارف عربية ، تتخللها مجموعات متماثلة من أوراق نباتية ملتوية ومدببة الأطراف ، وإلى جانب إحداها توقيع الخزاف «مسلم بن الدهان» ، الذى



١٩ – سطح كرسى من النحاس المكفت بالفضة



٢٠ – صحن من الخزف ذى البريق المعدنى عليه توقيع مسلم بن الدهان

اشتهر بصناعة الخزف ذى البريق المعدنى فى مصر فى أوائل القرن الخامس الهجرى (١١ م) .

أما قطعة النسيج فى شكل ٢١ بالألوان (رقم السجل ٩٠٦١) ، من القرن الرابع الهجرى (١٠ م) ، فقد كتب عليها إنها نسجت « فى طراز الخاصة بمطمور من كورة الفيوم » ، مما نلاحظ أثره فى الطريقة الريفية الجميلة لرسم الحيوانات والجمال على الشريط الزخرفى ، وفى أسلوب الكتابة أسفل ذلك .

* * *

وهكذا نرى أن الكتابة العربية تستعمل فى زخرفة التحف الفنية وتزيينها فى جميع البلاد الإسلامية . ولا غرابة فى ذلك ؛ فإن المسلمين فى أنحاء العالم يحفظون القرآن الكريم بلغته العربية ، كما كانت جميع الشعوب الإسلامية تكتب لغاتها بالحروف العربية ، ولو لم تكن اللغة العربية لغة بلادها ، بل ظلت كتابة النصوص التاريخية على المبانى والتحف تكتب باللغة العربية إلى عهد قريب فى كل هذه البلاد .

يوم مشهود في تاريخنا الإسلامي

بقلم الدكتور عبد الرحمن زكي

التاريخ مرآة الأحداث الجسيمة التي غيرت الكثير من أحوال العالم منذ بدء الخليقة إلى يومنا هذا ، وليس يخاف أن الحروب كانت – وما زالت – أسمى اختبار لأخلاق الشعوب وتربيتها ، وقدرتها على تحمل الكوارث ، أو على الأقل تجنب هذه الكوارث ؛ وأنها – أي الحروب – امتحان قاس لأسلوب هذه الشعوب في التفكير ، ودرس لقوة معنوياتها ، وصلابة عزمها .

ولا بدّ للساسة من معرفة التاريخ بأقسامه الرئيسة : السياسي والاقتصادي والحربي ، لا لفهم مجرى السياسات الخارجية والداخلية فهماً تاماً فحسب ؛ ولكن للتعمق في أسرار قصة الكون عامة ، ومدى تطور الجنس البشري .

ولعمري ، كم أتمنى لو أتيح لساسة الأمم هذا التعمق في مطالعة التاريخ والوقوف على مدى أثر الأخلاق والمعنويات حتى يفكروا التفكير السليم في توجيه شعوبهم على هدى الطبائع ، والتقاليد البشرية ، وإمكانيات هذه الشعوب في الاقتصاديات !

ومع أن التاريخ لا يعيد أحداثه دائماً في صور مطابقة فإن هناك ظروفاً تتشابه ، نستطيع الإفادة منها . وفي تاريخنا الإسلامي والمصري ذخيرة من الأحداث الجسام تمدّنا بالعبر والعظات .

وقد نجد في الحروب الصليبية التي استمرت زهاء قرنين من الزمان على مسرح البلاد العربية ما يشبه الأحداث التي تمر بها بلادنا الآن . فها نحن أولاء نشاهد اليوم تكرار القصة المتوارثة ، قصة النضال بين الشرق والغرب ، تلك الحروب التي فتح بابها الإسكندر المقدوني في الشرق ليردّ اعتداء « فارس » على بلاده . . .

* * *

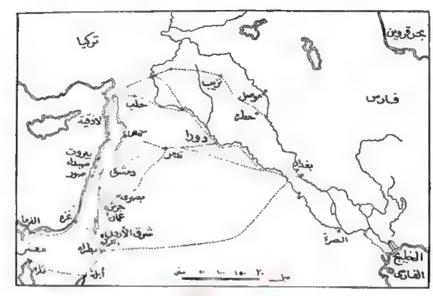
فهذه هي مغامرة للأمير أرناط الصليبي « ريجنالد » كما يسميه الإنجليز أراد من ورائها التسلل إلى قلب البلاد العربية في القرن الثاني عشر الميلادي إبان زعامة صلاح الدين الأيوبي للعالم الإسلامي نجدها مغامرة حافلة بكثير من الحوادث التي تشبه تلك المحاولات اليائسة التي تقوم بها إسرائيل المزعومة .

وسنحاول بقدر ما تيسر لنا من المراجع أن نكتب عن تلك المغامرة الحربية التي لم تحظ بعد بعناية الكتّاب .

* * *

كسب الصليبيون تحت أستار الدعوة الدينية الجولة الأولى في حملتهم على البلاد العربية ، وثبّتوا أقدامهم في أنطاكية عام ١٠٩٨ م . واستولوا في العام التالي على القدس ، ونصّبوا « جود فري دي بويون » نفسه أميراً عليه ، ومات في (عام ١١٠٠م) ، ثم خلفه أخوه بلدوين ، وفي أيامه تسلل الصليبيون عبر بلاد الأردن ، ثم بدءوا تشييد عدة حصون يحتمون في داخلها لتكون بمثابة قواعد يشنون منها الغارات على جيوش المسلمين .

ولقد ربحوا الجولة الأولى ؛ لأن حكام العرب في الجزيرة والشام وفلسطين ومصر كانوا منقسمين ، لا تجمعهم كلمة ولا تضمهم وحدة ، يريد كل منهم أن يتزعم الآخرين . . إلى أن قيّض الله لهم صلاح الدين الأيوبي ، وظهر على مسرح الأحداث بعد عماد الدين زنكي ونور الدين السلجوقي .



المنطقة التي دارت فيها أحداث القتال

توالت الهزائم على الشام ، واحتلت جيوش بلدوين مصر ، لكنه مات فى أثناء عودته منها عام١١١٨ م. وخلفه ابن أخيه بلدوين الثانى الذى شنّ عدة غارات على قوات المسلمين ، ثم وقع أسيراً فى قبضتهم عام١١٢٥ م . إلى أن أطلق سراحه فيما بعد .

وكانت مملكة القدس أيام بلدوين الأول قد امتدت من بيروت فى الشمال إلى العريش فى الجنوب ، وتجاوزت نهر الأردن نحو الصحراء ، وإلى جنوب البحر الميت وضع بلدوين يده على أنقاض مملكة إيدوم القديمة التى امتدت نحو ثغر أيلة المواجه للعقبة على رأس الخليج المعروف باسم العقبة ، واستولى أيضاً على شقة من الأرض شرق البحر الميت كانت تعرف قديماً باسم بلاد مؤاب ، وتحتوى مدينة البطراء الشامخة بآثارها الخالدة .

ولقد أكسب احتلال تلك الصحارى الصليبيين منطقة إستراتيجية هامة ، وهى جنوب الأردن اليوم ، وجعلتهم على اتصال بالبحر الأحمر ، ويسرت لسفنهم التسلل فى مياه

النجب (النقب) وسيناء

هذا البحر والتعرض لسفن الملاحة العربية ، فضلا على إشراف الفرنجة على طرق القوافل التجارية والحجاج بين دمشق ومصر إلى الحجاز . .

وقد ثبّت الصليبيون أقدامهم فى تلك البقاع الهامة بما شيدوه من القلاع والحصون المنيعة ، ولا سيا فى الفترة الأولى من حكمهم (١١٠٠ – ١١٣١ م) . . . تلك الحصون التى تشبه إلى حد ما ما يقيمه الإسرائيليون اليوم من المستعمرات المسلحة تحت ستار المزارع الآمنة !

وكان من أهم القلاع الصليبية التى شيدت شرق البحر الميت وجنوبه :

١ – قلعة مونتريال أو كرك مونتريال ، شيدت عام ١١١٥ م . بين طفيلة ومعان إلى الشمال الشرقى من بتراء بالمقرب من الشوبك[1] ، وما زالت أنقاضها قائمة إلى اليوم .

٢ – قلعة وادى موسى ، وعرفت عند الصليبيين باسم قلعة « فال مواز » أو سيلة . وشيدت فى بتراء ، وقد احتلها بلدوين الأول حوالى عام ١١١٦م ، وما زالت خرائبها قائمة كذلك إلى اليوم .

٣ – قلعة مؤاب أو الكرك ، وهى من أشهر الحصون الصليبية شرق نهر الأردن .

٤ – قلعة معان .

٥ – قلعة طفيلة .

٦ – قلعة جبل الشراة . . . إلخ

وهكذا ملأ الصليبيون تلك المنطقة بالحصون المنيعة للإشراف التام على الطرق المؤدية إلى البحر الأحمر وثغر أيلة الذى احتلوه عام ١١١٦ ؛ كما استولوا على قلعة الجزيرة الصغيرة المواجهة لأيلة ، وقد عرفت إذ ذاك باسم جزيرة القُرَيَّة ، ولكن ما لبث أن استولى عليها صلاح الدين عام ١١٧٥م لما أدرك أهميتها للقضاء على السيطرة الصليبية على مياه البحر الأحمر . . .

* * *

تلك هى صورة الأرض التى أشرف عليها الصليبيون فى قلب البلاد العربية ، ويدلُّنا هذا على تفهم خططهم لقطع أوصال البلاد العربية ، وإقامة دولة لهم بين الشعوب العربية ، للقضاء على وحدتهم ، وجعل تعاونهم أمراً مستحيلا أو متعذراً . وبلغ من اهتمامهم بتلك المنطقة ، من الناحية العسكرية ، أنهم جعلوها إمارة قائمة بذاتها يحكمها الأمير أرناط ، وكان من أشجع رجالهم وأقدرهم .

ولد هذا الأمير فى شاتيّون . وكانت بلدة صغيرة فى وادى نهر السين حوالى عام ١١٢٧ م من أسرة نبيلة ، ثم التحق بحملة لويس السابع ولما يبلغ العشرين ، واشترك فى حصار عسقلان عام ١١٥٣ م تحت إمرة بلدوين الثالث ، وعرف منذ ذلك الحين بإقدامه وتهوّره وحماسته . . ثم تزوج كونستانسة أرملة ريمون أمير أنطاكية الذى مات فى ميدان القتال .

* * *

وكان الأمير أرناط متعجرفاً وقحاً اعتاد الإساءة إلى منصبه كثيراً ، مستخدماً وسائل العنف مع صحبه من العسكريين والرهبان . ويذكر المؤرخون له عدة حوادث تدل على سوء تصرفه ، وكان لا يقدر كلمة الوعد أو الشرف ، وعرف عنه أنه قام بغزو قبرص بدون موافقة رؤسائه ، فاستولى عليها فى عام ١١٥٥م ، ونهبها ، وعذّب رهبانها ، واستباح النسوة ، وذبح الأطفال .

ولما فرغ من تلك الغزوة عاد إلى الشام ، واستأنف حرب العصابات ضد السلطان نور الدين ، فحالفه الحظ أحياناً ، إلى أن وقع أسيراً فى قبضة مجد الدين بن الداية عامل نور الدين عام ١١٦٠ ، وظل سجيناً فى حلب إلى عام ١١٧٦م ، أى إلى ما بعد وفاة نور الدين دون أن يتدخل إمبراطور بيزنطة لإنقاذه ، وأخيراً أخلى سبيله بعد أداء الفدية . وقيل إنه حاول تعلم اللغة العربية فى أثناء سجنه ، لكنه لم ينس الانتقام .

* * *

---

(١) تعرف اليوم باسم قلعة الشوبك

ولقد ولى صلاح الدين زعامة العالم العربي ، فوحّد كلمتها بعد فرقتها ، وأعاد بناء قواتها ، لتضرب الأعداء ، وتطهّر الوطن العربي كلّه .. وكان أول ما بدأ به التخلص من أسرة الفاطميين في مصر ، ثم ضم دمشق إلى دولته ، ولم يصادفه التوفيق في معركة الرملة عام ١١٧٧م ، واضطر إلى المهادنة ، ولكن أرناط لم يعبأ بشروط الهدنة ، وكان قد أعيد في إمارة ما وراء الأردن لكيلا تقع في أيدي المسلمين ، وكان أكثر ما اشتملت عليه إمارته منطقة النقب الجنوبية[1] ونافذتها على البحر « أيلة » ، وكانت تمتد إلى الشمال عند زيزة جنوب عمان ، فجعل منها قاعدة عسكرية هامة .

* * *

ولم يضيع « أرناط » وقته سدى ، فقد ألمّ بوسائل الحرب البحرية منذ غزوة قبرص ؛ كما أدرك خطر وقوع أيلة في قبضته إذا استعان ببناء أسطول صغير يهدد به الثغور المطلة على البحر الأحمر ، ولكي يدخل الفزع على الملاحين المسلمين . . .

وليحصل أرناط على الخشب اللازم لصنع سفائنه ، أمر بقطع غابات إقليم الكرك ، وحمله أتباعه إلى حصن الكرك عام ١١٨١ م ؛ كما عهد إلى رهبانه بصنع بعض السفن الصغيرة ، وأمر أهالي عسقلان من الفرنجة بصنع قوارب أخرى ، وهكذا صار لديه خمس سفن حربية ، وإلى جانبها عدد لا بأس به من السفن الخفيفة ، ونقلها جميعاً مفككة على جمال البدو إلى ساحل البحر الأحمر ، ثم شحنها بالمقاتلين وعتاد الحرب .

وكان أرناط لا مثيل له كما قلنا في تمزيق المعاهدات ، ففي عام ١١٨١ م قام على رأس رجاله بإغارة عنيفة ، ووصل إلى « تيماء » مفتاح المدينة وقلب الحجاز ، واعتدى على قافلة دمشقية ، ثم عاد مثقلا بالغنائم يصحبه مئات الأسرى من الرجال والنساء إلى قاعدته في الكرك . وقد أشار أبو الفدا المؤرخ المعروف إلى تلك الإغارة الطائشة .

والمعروف أن أرناط كان يهدف في الواقع إلى الاستيلاء هذه المرة على المدينة المنورة وكنوزها ، ولكن فرّوخ شاه أمير حلب كان قد وصل في الوقت المناسب ، وقذف رجال أرناط بعيداً نحو الشمال ، فلم يتحقق حلم ذلك الشيطان .

ولما بلغ مسامع ملك القدس أنباء هذه الإغارة غضب غضباً شديداً على أرناط ، وأمره بأن يعيد الأسرى والغنائم إلى أصحابها ، ولكن أرناط لم يعبأ بالأمر ، ورفض إعادة أي شيء . وكان وقع هذه الأنباء على صلاح الدين والعرب لا يوصف ، وبالرغم من حلم السلطان عمل على الانتقام ، فلم يكن منه إلا أن أرسل شجعانه لكشف مدى قوة أرناط ، والعبث بالأراضي المحيطة بقلعة مونتريال ، فأتلفوا مزارع الصليبيين ونخيلهم ، وقرر صلاح الدين أن يحاربه بأسلوبه . . . حرب العصابات .

* * *

وفي عام ١١٨٢م تراءى لأرناط أن يقوم بمشروعه الجريء لغزو الإسلام في مهده والاستيلاء على المدينة ومكة ، وكان قد أعدّ لكل شيء عدّته .

ولا تطيل المراجع العربية الكلام عن حملة أرناط مع أهميتها سواء في البر أو في البحر ؛ ولذلك نستمد أكثر ما نكتبه عنها مما دوّنه أرنولد المؤرخ الفرنسي المعاصر لتلك الحملة الجريئة ، ومن الصعب أن نلمّ بعدد المقاتلين الصليبيين الذين اشتركوا في الحملة ؛ فربما كانوا نحو الألف من الفرسان يساعدهم بعض البدو والملاحين .

وكان المسلمون قد استولوا على جزيرة « القرية » المواجهة لأيلة ، وهددوا الثغر ، ولكن أرناط استطاع أن يرصد سفينتين حربيتين بالقرب من شواطئ الجزيرة تمنعان أهلها من استقاء الماء .

* * *

يقول أرنولد : إن الأسطول الصليبي انقسم قسمين ،

---

(١) عرفت هذه المنطقة الصحراوية ، منذ القدم ، باسم النجب بكسر النون والجيم (بالعبرية) ، أي « الجنوب » ومعناها الأصلي « الجافة »

أحدهما كان بقيادة أرناط ومعه سفينتان حربيتان كبيرتان مهمتهما حصار جزيرة جراى مفتاح خليج العقبة لإجبار رجال حاميتها على التسليم أو الموت جوعاً ، أما القسم الآخر فاتخذت سفنه سبيلها فى البحر الأحمر للقرصنة ، فوصلت إلى ثغر عيذاب ، حيث عبث الصليبيون بها كثيراً ، واستولوا على سفينة للحجاج ، وعلى سفينتين أخريين كانتا مقبلتين بالتجار والسلع من اليمن . وكانت عيذاب فى تلك الأيام قد انتقلت إليها أهمية طريق الحجاج عبر سيناء والنقب على أثر تهديد الصليبيين له والتحرش به ، واتخذ الحجاج طريق قنا — القصير أو قنا — عيذاب ، ومن أحدهما كانوا يسلكون البحر إلى رابغ أو جدة على الشاطئ المقابل .

وتمكن أرناط بمسلكه المشين من أن يدخل الرعب والفزع على سكان ثغور البحر الأحمر ، ولا سيما عيذاب ، ويستولى على ما لا يقل عن ١٦ سفينة محملة بالسلع والدقيق ، وهاجمت سفنه أيضاً الحوراء ثغر المدينة شمال ينبع ، وكذلك رابغ شمال جدة .

ويذكر القاضى الفاضل أن سفن أرناط قد وصلت قراصنتها إلى ثغر عدن مفتاح المحيط الهندى ، فكأنهم قد سبقوا الملاحين البرتغاليين بعدة قرون ، وأصبحت للصليبيين السيادة على البحر الأحمر عدة أشهر بين عامى ١١٨٢ و ١١٨٣ م .

* * *

كان هذا شأن العمليات البحرية وهى لا تخرج عن أعمال القرصنة ، وليس فيها ما يطلق عليه المعارك البحرية ؛ أما فى البر فقد سارت قوات أرناط إلى بلدة تبوك لقطع خطوط الأمداد والمواصلات بين المسلمين فى أيلة والشام ، على حين اتجهت قوات أخرى عبر الصحراء نحو الجنوب قاصدة المدينة المنورة ، وكانوا فى سيرهم يستمدون معونة البدو الطامعين فى النهب ، واستمروا فى تقدمهم حتى اقتربوا من المدينة .

دبّ الفزع فى قلوب العرب ، فما هم فاعلون وليس بأيديهم ما يكفى من الرجال والسلاح صدّ المعتدين ؟ لم تكن لهم حيلة فى البر ؛ وقد صُدّوا فى البحر ، وكأنهم قد اختاروا الدفاع عن ديارهم .

لكن مصر كانت يقظة واقفة لهم بالمرصاد ، فعندما بلغت تلك الأخبار السيئة صلاح الدين وهو يجاهد حول الموصل بعث إلى أخيه ونائبه فى القاهرة الملك العادل أبى بكر بن أيوب يأمره بإنشاء أسطول فى مصر ودمياط والإسكندرية ، فأسرع بتلبية الأمر ، وسافر إلى القلزم (السويس) ، وعهد إلى قائد الأسطول الشيخ حسام الدين لؤلؤ أن يحمل السفن مفككة على الجمال إلى السويس ، وأشرف فى هذا الثغر على تركيبها وتعميرها بالرجال ، وكان معظمهم من أهل تونس والجزائر الملمّين بشئون القتال البحرية والملاحة ؛ وهكذا اتجهت العناية بالبحر ، وبالعمليات البحرية البرية .

* * *

قسم حسام الدين أسطوله قسمين : قسم اتجه بمراكبه إلى جزيرة أيلة سالكا طريق رأس محمد جنوب سيناء ، وانقضّ على المرابطين فيها انقضاض الجوارح ، وقذفهم بسهامه القاتلة ، فأخذت مراكب العدو برمتها ، وقتل أكثر رجالها إلا من تعلق بهضبة أو اختفى فى كهف أو وكر . . . وحتى هؤلاء كتب عليهم الموت ، فلم ينج منهم إلا من وقع فى الأسر .

أما القسم الآخر من الأسطول فقصد أولاً عيذاب ، وتمكن رجاله من إطلاق أسرى المسلمين وردّ ماسلب منهم ، لكنهم لم يعثروا هناك على الصليبيين ، واستمرت العمليات البحرية فى البحر الأحمر نحواً من شهرين ، وأخيراً اتجهت السفن بقيادة حسام الدين إلى رابغ حيث أدركت الأعداء معتصمين بساحل الحوراء ، وكان عددهم نحو ثلثمائة رجل مسلح يعاونهم بعض البدو ، فلما شاهدوا جنود لؤلؤ ولّى البدو الأدبار ، وأسرع الصليبيون إلى الالتجاء فى رأس جبل صعب المرتقى ، فركب عشرة من المسلمين وراءهم لاقتناصهم أسرى وقتلى ، واستمروا يتبعونهم خمسة أيام أخرى نهاراً وليلا حتى لم يبقوا لهم أثراً ،

وسيق الذين استسلموا أسرى ، وقيد منهم ستة وسبعون ومائة أسير ، وتم ذلك على مسافة يوم واحد من المدينة المنوّرة . . وصادف هذا النصر المبين أشهر الحج ، فسيق منهم أسيران إلى منى وذبحا بها ، أما الباقون فعاد بهم القائد لؤلؤ إلى مصر ، وفى أرجلهم القيود ، وكان دخولهم القاهرة يوماً مشهوداً .

وصادف دخولهم الإسكندرية يوم ١٦ من إبريل عام ١١٣٨ وجود الرحالة الأندلسى ابن جبير بها ، فشاهد الأهالى مصطفين على جانبى الطرقات لمشاهدة أولئك الأسرى وهم راكبون الجمال ، ووجوههم إلى أذنابها ، وحولهم الطبول والأبواق ، ثم أمر السلطان بقتلهم بأيدى الصوفية والفقهاء .

وكان لهذا الفوز دوىّ فى العالم الإسلامى ، وتبارى الشعراء المعاصرون فى وصف هذا الظفر الكبير ، ومنهم أبو الحسن بن الذروى . قال :

مرّ يومٌ من الزّمــان عجيبٌ
كادَ يبدى فيه السرورَ الجمادُ
إذْ أتى الحاجبُ الأجلّ بأسرى
قرّنتهم فى طيّها الأصفادُ
بجمــالٍ كأنهنّ جبــالٌ
وعلوجٍ كأنهمْ أطوادُ
قلتُ بعدَ التكبيرِ لمّا تبدّى
هكذا هكذا يكونُ الجهادُ
حبّذا لؤلؤٌ يصيدُ الأعادى
وسواه منَ اللآلى يُصادُ

وفيه قال الرضى بن أبى حصينة المصرى مخاطباً الفرنجة :
عدوّكم لؤلؤٌ والبحرُ مسكنُهُ
والدرُّ فى البحرِ لايخشى منَ الغيَرِ
فأمرُ حُسامكَ أنْ يحظى بنحرهمُ
فالدرُّ، مذ كانَ، منسوبٌ إلى النحرِ

ولكنّ قائدنا لؤلؤ لم يعمر بعد هذا النصر طويلا ، ففى العام نفسه توفى (فى مصر) وقيل : إن موته كان فى جمادى الآخرة من عام ٥٩٦ هـ . رحمة الله عليه . . حقّاً إنه لؤلؤة ثمينة بين أمراء البحر المسلمين ، وقلما يجود الدهر بأمثاله . . .

ولم يكتب المؤرخون المسلمون شيئاً عن نشأة حسام الدين ، ولم نقف على اسمه بين أسماء الخالدين من المسلمين . وذكر العماد المؤرخ عنه أن من دلائل سماحته ما شاهده بالقاهرة فى سنة ٥٩١ هـ . قال : «فلما حطّ القحط رحله ، وتم الغلاء ، وعمّ البلاء . ابتكر الحاجب حسام الدين الكبير مكرمة لم يسبق إليها : وذلك أنه كان يخبز كل ليلة ١٢,٠٠٠ رغيف ، فإذا أصبح جلس بالقرب من باب بيته ، وفتح منه مقدار ما يخرج منه واحد بعد واحد ، ويتناول كل فقير قرصه ، وما يزال قاعداً حتى يفرق الألوف من الأرغفة . وكان هذا دأبه فى هذا الغلاء حتى عاد الرخاء . . وقد تنوّعت صدقاته ، واستغرقت بالصلاة أوقاته» .

ويقول عنه هذا المؤرخ : «إنه كان بهىّ الشيب ، نقىّ الجيب . قد جعل الله البركة فى عمره ، وأنجده فى أوان ضعفه بتضعيف برّه . ولا شك أنه من الأولياء الصالحين» .

* * *

ولكن ، ترى هل قنع أرناط بعد ذلك بالهزيمة والفرار ؟ إن من كان الغدر شيمته ، وانتهاك العهد مأربه لايستطيع التخلص من مساويه ؛ فقد تعدّدت خياناته مرة بعد أخرى :

فى عام ١١٨٦م مرّت إحدى قوافل المسلمين الغنية بالقرب من حصن الكرك ، فلم يلبث أن انقض عليها كعادته ، وحطم الهدنة المعقودة بين صلاح الدين وبين الصليبيين ، ثم نهب متاعها وأموالها ، وأسر رجالها ونساءها ، وبجنهم . وقيل : إن أخت السلطان كانت من بينهم .

وامتلأ أرناط الغادر زهواً بفعلته ، وأخذ يشمت بهم ، ويسخر منهم ، ويصيح فيهم هازئاً :

« ما دمتم تعتقدون فى محمد . . فادعوه الآن يفكّ أسركم ويخلصكم مما أنتم فيه » .

وما إن علم صلاح الدين بذلك حتى ثار غضبه ، وأقسم ليقتلن الغادر بيده ، ولم يمض عام حتى نال الغادر جزاء غدره ، وبرّ السلطان بقسَمه .

* * *

فى ٤ من يوليو عام ١١٨٧م التقى جيش المسلمين وقوات الصليبيين على مقربة من حطّين ، ودار القتال عنيفاً بين الطرفين ، وكتب الله النصر المبين للمسلمين المدافعين عن بلادهم . وامتلأ الميدان بالقتلى من جنود أرناط وتجمعت جثثهم أكواماً . وتوالى جمع الأسرى ، وفى طليعتهم الملك جوى وأخوه وأرناط وغيرهم من الأمراء ، وسلّموا سيوفهم إلى المسلمين .

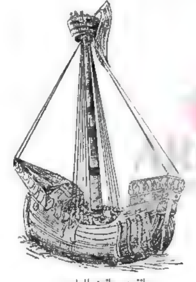
ودعا صلاح الدين الملك جوى وأرناط أمير الكرك إلى خيمته ، وأجلس الملك إلى جانبه ، ولما أعلمه بعطشه أمر فجيء له بماء مثلوج ، فشرب منه ، وأعطى الملكُ ما بقى منه أرناطَ ، فصاح صلاح الدين وقال للمترجم : «قل للملك ما سقيتُه أنا ، ولكنك أنت الذى سقيته » قاصداً بذلك أن أرناط لم يصبح آمناً بعد أن شرب من ماء صلاح الدين .

وجاء الوقت ليفى صلاح الدين بقسَمه القديم ، فقام وأنّب أرناط على تنكيله بقوافل المسلمين ، وتطاوله على مقام النبوّة ، ثم هوى عليه بالسيف فأرداه .

ارتعد الملك ، وخاف أن يثنّى به ، فأمّنه صلاح الدين قائلا : « لم تجر عادة الملوك أن يقتلوا الملوك ، أما هذا فقد تجاوز حدّه ، فجرى ما جرى ! »

وبذلك ختمت حياة الغادر ، وكان فى الستين من عمره : قضى منها أربعاً وعشرين سنة محارباً فى الأرض المقدسة ، وست عشرة سنة سجيناً . . .

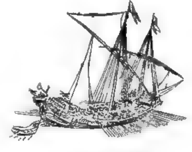
ألا ما أشبه الليلة بالبارحة ! فما زالت هذه البقعة من الأرض وما حولها حتى اليوم ذات أهمية إستراتيجية لا تخفى على أحد ، وهى مسرح كبير لعدة أحداث هامة . نهض بها قدامى العرب والإغريق والرومان والبيزنطيون والصليبيون والإنجليز أيضا منذ الحرب العالمية الأولى ؛ فهل يا ترى نتعظ ؟ ليس هناك شك فيما نعتقد .



حراقة من حراقات المسلمين



كيك شراعى مصرى فى عهد العثمانيين



شانية من شوانى المسلمين

تمثيلية هندية قديمة

على مسرح موسكو



تتخير الشعوب أنبل السبل
إذا تناست كل أسباب النضال والكراهية
ألا فليسد الحق والرشاد والعدل أبد الآبدين
ولتبق الهند وطننا الحبيب
سعيدة عزيزة حرة مدى الدهر!

بهذه الأبيات الرائعة انتهت مسرحية « عربة الوحل » وارتفع التصفيق الحاد يهز جنبات المسرح الروسي ، تعبيراً عن الإعجاب بالفن الهندي الرفيع .

وقد يتساءل قوم : لم اختارت روسيا تمثيلية مضى على حوادثها أربعة عشر قرناً لتعرضها على مسرحها في النصف الأخير من القرن العشرين ؟ والجواب على ذلك هو أنها حافلة بالأفكار الإنسانية التي وصلت إلينا من خلال الأجيال والأحقاب ، فضلا عن أنها تصور لنا أشخاصاً متنافرين أشد التنافر في الأخلاق ، ومتباينين أشد التباين في الطبقات الاجتماعية التي ينتمون إليها ، لكل منهم مصالح سياسية ومثل وطريقة في الحياة مختلفة عن غيره ؛ وفيها تمتزج المناظر المفجعة ذات الأسلوب المجيد الرائع بمشاهد يسري فيها عنصر الفكاهة ، وتمثل الحياة اليومية التي عاشها الشعب الهندي في تلك العصور الغابرة . وهذا الأثر الفني كله تشع منه روح الفكاهة ، ويتنفس بروح الشاعرية المأثورة عن الهنود .

ومن المستحيل إخراج هذه المسرحية اليوم بالطريقة التي أخرجت بها على المسرح الهندي في الماضي ، فقد احتوى النص الأصلي على عشرة فصول ، وكان تمثيلها يستغرق أيام . وقد استطاع الكاتبان الروسيان فيكتور فينيكوف Victor Vinnikov ويوري أوسنوس Yor. Osnos إبرازها في أربعة فصول وسمياها « زهرة اللوتس البيضاء » .

وليست هذه هي المرة الأولى التي تخرج روسيا فيها هذه الرواية ، فقد مثلت من قبل على مسرح كورش Korsh بموسكو في نهاية القرن التاسع عشر ، ولكن الترجمة الأولى لم تبلغ مرتبة الترجمة الثانية في الجودة .

وفي صالة المسرح كنت ترى عدداً كبيراً من الأجانب وكثيراً من الهنود بملابسهم الوطنية الزاهية ، والأنوار تخفت قليلا قليلا ، والنغمات تنبعث هادئة ، وإذا بالفرقة كلها تظهر على المسرح في كامل زينتها ، وتبارك الجمهور بدعواتها التقليدية قبل بدء الرواية ، ثم يقبل المخرج في زي هندي عصري ، فيطلب إلى الحاضرين أن يسبحوا في رحلة إلى بلاد بعيدة ويرتدوا إلى عصور سحيقة .

ويرتفع الستار عن منظر فى بلدة هندية قديمة هى « أجين » حيث ولد الحب بين « چاروداتا » البرهمى و « باسانتاسينا » المنبوذة ، إنه حب رائع عنيف ، ولكنه أيضاً شاذٌ عجيب ، فإن التقاليد الهندية تحرّم على البرهمى أن يتزوج منبوذة . ويحاول « مايتراى » ، صديق « چارودانا » الذى عرف بالعدل والصلاح ، أن يقنعه باستحالة زواجه من هذه الفتاة قائلا :

لقد نسيت أن الأقدار رسمت حياتها منذ ولادتها
وأن من يولد من الشر ، ينتهى إلى الشر
ولن تقدر على تغيير نسبها الحقير
إلا إذا استطعت أن تجعل الأفعى غصناً من الياسمين
أو تجتاز الجبل الشاهق بخطوة من خطواتك
أو تعبر المحيط بقفزة من قفزاتك !

وهذه الأبيات ليست رأى « مايتراى » الشخصى ، فهى سنّة أصبح لها قوة القانون .

ويرى « الراجا » أن هذه الفتاة قد ولدت من أصل وضيع . وأنه يجب عليها أن تستسلم لمشيئة القدر ، ولكنها تأسره بجمالها ، فإذا به ينسى كبرياءه وتحننه ، ويقع فى حب المنبوذة وترده خائباً ، فقد امتلأ قلبها بحب شخص آخر هو « چارودانا » . ويثور الحاكم ، ويعميه غضبه وحقده ، فيدبر مكيدة للتفرقة بين الحبيبين ، ولكن خطته تفشل ، وينتصر الحب فى النهاية ويصيح چارودانا : « ألا فلينتصر العدل ! » . وتجيب السموات دعاءه ، ويأتى حاكم جديد ينصر الفتى ، ويجعله كبير مستشاريه ، وتتحرر الفتاة من طبقة المنبوذين ، وتصبح زوجة الرجل الذى أحبته ، وينشد « چارودانا » فى غمرة سعادته :

يا زهرة اللوتس البيضاء !
أيتها الزهرة الرقيقة
إنك زهرة قلبى !
إنك منبع بهجتى ، ومصدر سعادتى !
وهيهات أن أفترق عنك !

وتجيبه « باسانتاسينا » :

« چارودانا » !
« چارودانا » !
لقد جمعتنا الأقدار !
إنى لك . . .
لك وحدك . . .
حتى ينتهى الأجل .

وهذا المنظر من أجمل مناظر الرواية ، فهو غنىٌ بالشعر الرائع ، حافل بآيات الحب العميق الخالص .

لقد حقق الفتى حلمه السعيد ، ولكنه لا يفكر فى مصيره وحده فحسب . إنه يفكر فى وطنه بأكمله ، يفكر فى نشر المحبة بين الناس كافة .

° ° °

وهكذا نرى أن المسرحية ليست مجرد قصة حب ، إنما هى قصة فلسفية اجتماعية نحسُّ فيها بإيمان الفتى العميق بالمستقبل السعيد الذى يتمناه للهند ولغيرها من بلاد العالم ، فنراه فى نشوته يهتف قائلا :

أيتها السماء ! ألا فلتجودى علينا بشآبيب من غيثك
ولتفيضى أيتها الأرض بالثمار الطيبة
على وطننا وعلى كل أرض فى هذا العالم
حتى ينسى الناس طعم الجوع !

° ° °

ويسدل الستار على الفصل الأخير من المسرحية الهندية القديمة التى اختارتها روسيا لتقدمها على مسرح موسكو فى النصف الثانى من القرن العشرين تقديراً للفن الهندى الخالد .

عن مجلة « نيوز السوفيتية »

النَّذْرُ

قصة للكاتب السويدي سترندبرج

نقلها إلى العربية الأستاذ علي زين العابدين حسيني

أوجست سترندبرج أول كاتب سويدي تعتبر مؤلفاته الحد الفاصل بين الأدب القديم والحديث ، ويعده النقاد عيداً للأدب الحديث في السويد منذ ظهرت قصته الأولى « الحجرة الحمراء » عام ١٨٩٧ م وقد ولد هذا الأديب في عام ١٨٤٩ وتوفي في عام ١٩١٢

خرج « إريك قستيان » من أهالي جزيرة « نلدجارد » في رحلة بحرية على ساحل النرويج حتى بلغ لوفوتن . والتقى هناك وبعض صيادي الحيتان ، وأخذ عنهم بعض طرائق صيد الحيتان برميها بالحراب ، فلما عاد إلى موطنه عنَّ له أن يطبق ما اكتسبه من علم جديد على طريقة صيد الفُقمة ، وهي صناعة كانت قد أشرفت على الزوال ، لما كانت تحدثه طلقات البنادق من فزع شديد بين هذه الحيوانات الوَجِلة الهيّابة .

وشرع قستيان يعمل بالطريقة التي نسردها فيما يلي ، وهي طريقة لم يتوقع هو أو غيره نهايتها . فقد أفضت إلى مغامرة مروِّعة لا تزال أصداؤها تتردد حتى اليوم بين الجزر الصخرية الصغيرة :

في ذات مساء في أواخر الربيع خرج قستيان ، ومعه ولد له في قارب منبسط القاع إلى الجزر الصخرية المتطرفة حيث اعتادت الفقمة أن تنزل بشاطئها لتستمتع بحرارة الشمس ودفئها ، وأحضر معه لهذا الغرض حربة من الحراب المعدَّة لصيد القُنْدس ، وهي تستخدم لاستخراج القنادس من الفجوات بين الصخور ، وقد أحكم رباط هذه الحربة على طريقة صيادي الحيتان بحبل طويل مشدود إلى مقدَّم القارب . أما كيف يتاح له أن يقترب من هذه الحيوانات الهيابة ، ويصيدها بهذه الحربة ، فهذا أمر لم يحط هو أو غيره به علما !

كانت خطّته أن ينزل الولد إلى الشاطئ ومعه البندقية ، على حين يزحف هو بقاربه بين قطع الثلج ، وهناك يتربص للحيوانات الهاربة التي لا تستطيع أن تجري سراعاً على قطع الثلج المتناثرة على الساحل .

وأنزل قستيان الولد إلى الشاطئ قبيل الغروب ، وراح يعمل في رفق ليلفّ مقدم مقذافيه بزوج من الجوارب الصوفية ليخفف صوت وقعهما في الماء ، وتدثّر بقميص أبيض فوق ملابسه حتى لا يبدو ظاهراً بين الثلوج ، وسار بالقارب في ظل الجزر الصخرية الصغيرة والثلوج المتراكمة حتى بلغ أسفل المنحدر الذي صعدت فيه الفقمة ، وتركت أخدوداً بين طريقها ، ويمكن على الأغلب أن يكون طريقها في العودة .

واقتعد قستيان قاع قاربه مختفياً عن الأنظار ، وقد رفع الحربة في يده ، وظل على هذا الوضع فترة طويلة حتى جمدت أصابعه ، وجعل يتساءل : هل طريقة صيد الفقمة بالبندقية أسهل وأدنى سبيلا ؟ وإذا كانت كذلك فها هي ذي الفقمة تملأ تلك البقعة ما في ذلك شك ، لقد سمع صريخها ، ولكن ، ترى هل تختار هذا الطريق الخطر لنزولها إلى الماء ؟ وبينما هو في غمار هذا التفكير إذ بصوت طلق ناري يدوِّي من وراء أشجار

الصنوبر ، أعقبه عويل الحيوانات التى ولت فراراً تنفخ وتلهث ، ثم صوت طرق على الثلج كوقع فقمة جارية على الأرض .

وقبل أن يدرك خطل رأيه بدا خلال الثغرة رأس فُقمة كثيفة الشعر ، والفقمة تتحفز للقفز إلى الماء ، ولكن قستيان عاجلها بحربته ، فنفذت إلى أحشائها قبل أن تبلغ الماء . وفى سرعة البرق انفرط الحبل حتى نهايته ، فجذب القارب جذباً شديداً أوقع الصياد على ظهره ، وانطلقت الفقمة والقارب فى سرعة حثيثة إلى عرض البحر .

ياللنزهة الجميلة ! لقد شاقت قستيان جدَّتها أول الأمر ، وطاف بمخيلته وصف هذه المغامرة فى صورة قصة صيد رائعة ؛ فالصيد صيده ما فى ذلك شك ، ولكنه رأى الصخور ترتدُّ سراعاً ، ورأى كوخه يختفى عن ناظريه .

وصاح معابثاً : وداعاً ، وإلى اللقاء ! سأعود قريباً .
وأحسَّ قستيان بهزات عنيفة ، ولكن لم يبد أن ثمة خطراً قريباً حتى بلغ الصخور الأخيرة . واختفت الأرض عن العيان . . . وأخذ البحر يتماوج ، وأشرفت الشمس على المغيب ، وبدت كقرص مستدير أسود فى الأفق البعيد . وحدَّث قستيان نفسه : لأثبتنَّ فترة أخرى ، فإذا تحرج الأمر صرمت الحبل ، وعدت بالقارب .

وانطلقا إلى الخضم الزاخر ، وأخذ القارب يتمايل ذات اليمين وذات اليسار تصدمه الأمواج وهو يصدمها ، وينغمس مقدمه فى الماء .

وعاد قستيان يحدث نفسه : ماذا علىَّ لو تعبت قليلا ؟ فإن ضياع صيد ثمين محقق كهذا يكون خاتمة سيئة لمثل هذا البدء الرائع .

* * *

وازداد تلاطم الأمواج ، وطلعت النجوم فى السماء ، ولم يزل يرى فأسه (بلطته) ملقاة فى مقدم القارب ، وكانت أمله الوحيد إذا ما ازداد الأمر حرجا .

« امض فى سبيلك يا صاحبى ، فسيلحقك الإعياء وشيكا » همس قستيان بهذا ، وقد جمدت أطرافه من البرد ، وكان يود لو أعمل المجداف فى الماء ، ليشعر بشىء من الحرارة والدفء .

وفى تلك اللحظة أدرك أن قدميه قد أصابهما البلل ؛ وطرق أذنيه صوت صخور تصدم أسفل القارب .

فصاح منذراً نفسه : حذار ، حذار !

وقام إلى البلطة يريد أن يصرم بها الحبل ، بيد أنه ارتدَّ قاعداً ؛ إذ جذبت الفقمة عند قيامه مقدم القارب حتى انغمس فى الماء .

وأدرك المسكين بعد عدة محاولات فاشلة لبلوغ مقدم القارب ضرورة الإخلاد إلى السكون ؛ إذ كان تحت رحمة الفقمة مسيّرا وفق ما تشاء : فإما أن يغرق ، وإما أن يعود إلى أهله حياً سالماً .

لم يصبح الأمر دعابة الآن ، وغلب على الصياد المسكين شعور بخطر الأمر وجدّيته ، وأراد أن يبعث فى نفسه مزيداً من الشجاعة ، فأمسك بمجداف ، وأدلاه من مؤخرة القارب زاعماً أنه يسيره ، ولكن الفقمة هى التى كانت تسيره . وحدَّث نفسه : « إذا قدِّر لى أن أنجو من هذه المحنة فليأخذ الشيطان . . . . »

ولم يستطع أن يتم حديثه ، فقد قطعته عليه الفقمة ببعض حركات عنيفة أتت بها ، فاختلَّ توازن القارب ، وتدفق إليه الماء ، ولم يجد بدّاً من أن يعيد المجداف إلى القارب ، ويسرع إلى وعاء يفرغ به المياه .

وإذ فرغ من هذه المهمة عاد فأدلى المجداف من مؤخرة القارب ، وأحس بهدوء كمن أصبح زمام الأمر فى قبضته .

ولكن السماء غامت عند ذاك ، وأفلت النجوم أو كادت ، ونزل بعض المطر والثلج حتى تعذر على قستيان رؤية فأسه ، وألفى نفسه وسط ضباب كثيف ، والفقمة مندفعة به نحو مصير مجهول ، وبدت الريح على وشك

الهبوب ، وأخذ البحر يعلو ويهبط ، وبعد قليل هبت الريح فى شدة ، وما لبثت أن استحالت صرصراً عاتية .

وبدأ يتولاه الفزع ، وأخذ وهو يفرغ الماء بالوعاء يفكر فى زوجه وعياله وفى مزرعته وأعماله وفى الأبدية التى هو منها قاب قوسين أو أدنى ، وكيف أنه لم يصلِّ بالكنيسة منذ سنين لم يحط بها عدداً ، لعلها منذ السنة التى تفشى فيها الوباء الأصفر . واحتك جانب القارب بركام سابح من الثلج ، فكان له أزيز وصرير ، وصاح المسكين : « ويلى أنا المخلوق الضعيف المخطئ » . . لقد نسى كل شىء « يا أبانا الذى فى السموات . . . لتكن مشيئتك ! . . . » حتى فاتحة الصلاة نسيها !

٭ ٭ ٭

ما أطول الساعات التى قضاها على هذه الحال ! ، وما أكثرها ! إن بضع ساعات أخرى فى هذه الريح لا توصلهم إلى آلاند ، ولكن إذا اكتسحهم الثلج فسيجرفهم إلى « جوتلاند » أو إلى خليج فنلندا ! إلا أنه قبل ذلك يكون قد مات برداً . وقبع فى قاع القارب ليتقى شرة الريح والبرد القارس ، وما إن ركع على ركبتيه حتى تذكر كلمات الصلاة وبدأ يستعيدها عشرات المرات ، وكلما قال : « آمين ! » جعل يخطُّ بمبراته خطاً على حافة القارب ، وكان سماعه لصوته يبعث الهدوء ، فقد كان يبدو كمن يحدث شخصاً آخر وهذا الآخر يحدثه ، وأثارت الكلمات ذكرى جماعة من الناس مجتمعين فى الكنيسة ، وخال أنه يراهم أمامه مطمئنين عاتبين ، ورأى هنالك أفراد أسرة « جيلنج » الذين صحبهم أخيراً فى غزوة لالتقاط الفحم من مركب غارق ، ورأى أيضاً . . . وهنا جذبت الفقمة الحبل جذباً مفاجئاً وصاح المسكين : « إلهى ، إذا قدَّرت لى أن أخرج من هذا حياً فإنى أنذر للكنيسة ثريا ذات سبع شعب من الفضة الخالصة هى كل ما اقتصدت لعيالى أهبه للكنيسة فضة خالصة ؛ فليباركنا الله ، ويحفظنا ، ويغمرنا بنور وجهه وإحسانه ! » .

وانبعث خلال الضباب نور كبير ، ولكنه معتم ، فظنّ قستيان أنه لا بد أن تكون منارة « هانجو » على ساحل « نيلاند » قائلا : أحسب أننا قد وصلنا إليها فى اثنتى عشرة ساعة تبدو كأنها أسبوع !

وصدم أسفل القارب مرة أخرى ، وتوقف لساعته ، وانكبَّ قستيان على وجهه فى القارب ، ثم ساد السكون من جديد .

وتساءل : ترى كم نبعد الآن عن المنارة ؟ ثمانية أميال ؟

ولم يستطع أن يتحرك إلى الأمام أو إلى الوراء ؛ فقد زاد الأمر سوءاً ؛ فإن القارب جعل يتأرجح عند أقل حركة .

وقبع قستيان فى مكانه ساكناً فى انتظار طلوع الشمس ونور النهار ، وقد شفَّه الجهد ، وتوجه بدعائه إلى الله . ونذر الثريا الفضية المدموغة بكل يمين مقدسة بشعبها السبع وزخرفها وسلاسلها التى تعلق منها ، فإذا رآها الناس قالوا : هذه الثريا نذرها إريك قستيان من أهالى « لترجارك » الذى أنقذه الله ساعة محنته عام ١٨٥٩ . وجعل يردد : أنقذه الله بعنايته ورحمته حتى آمن فى النهاية بذلك ، وأخذ يقرأ فى غمرة من الحمد والشكر : الحمد لك يا إله السموات ! .

٭ ٭ ٭

وانطفأت المنارة ، وهدأت الأمواج بأمر الله ، وسكن البحر ، وكان الأمر غريباً حقاً ، فمنذ بضع لحظات كان البحر يضرب القارب بكل قوته ، وكان مخيفاً هائلا ليلة الأمس ، فالوقت الآن قرب الصباح ، لا بد أن يكون قد قرب الصباح ، إذ أن قدميه قد جمدتا من البرد ، وشعر بالجوع يحزُّ فى أحشائه ، وينبغى أن يتناول قدحاً ساخناً من القهوة لو أن قارب المرشد البحرى رآه ، وأتى لإنقاذه ، فإن السفن تغدو عند طلوع الشمس ، ولكن ، ترى لماذا أطفئوا المنارة ؟ لعله كان نور النهار

ولو أنه تعذر على المرء رؤيته بسبب الضباب . لا بد أن يكون الأمر كذلك إلا إذا كان للحكومة الروسية قواعد لمناراتهم تخالف قواعدنا . نعم ؛ إن لهم قواعد مختلفة على الأرجح . وتذكّر حينئذ كما يرى النائم فى الأحلام أن الروس لهم نتيجة على الطريقة القديمة تختلف عن نتيجتنا ؛ فهى تسبق نتيجتنا ، أو تتخلف عنها بثلاثين يوماً ، والمسألة فرق فى الوقت ؛ إذ أن السفن الفنلندية كانت تفد دائماً بعد الميعاد الذى كانت تبرق لنا به بساعة ، وهذا هو السبب الذى أطفئوا من أجله المنارة قبل طلوع الشمس بساعة ، وهى لذلك ستطلع بعد ساعة !

وفهم قستهان : لماذا شعر بذلك البرد القارس ! فإن كل من يصاب بحمى البرد يشعر بها عند الشروق ، ولكن ماخطب هذه الفقمة ؟ ومالها ساكته لا تشد الحبل ؟ لعلها قد أفلتت ، ومضت إلى حال سبيلها ! يجب على أى حال أن يستبين ذلك . لا حاجة لى أن أظل قابعاً فى هذا الوضع ، لا ، ولعنه الله !

وتطلع قستهان أمامه فرأى شيئاً أسود مدبب الأطراف كغابة من ساريات السفن تبدو من خلال الضباب : « يا إلهى ! إذا كان هذا هو الأسطول الروسى فسيطلقون علىّ النار لظنهم أنى مهرِّب أو يرسلوننى إلى سيبيريا » . ياله من حشد كبير ! إنها غابة بأكملها !

وانتصب واقفاً وتمطى ، فتأرجح القارب على جانبيه ، ولم يعد ينغمس فى الماء بمقدمه ، ومشى فى حذر إلى مقدم القارب ، ورأى الحبل مشدوداً كسلك (التلغراف) ونزل من القارب ، فلاحظ آثار أقدام وصدمّ كعب حذائه حجراً . . . لقد بلغ الأرض ، وتبدت لناظريه غابة من غابات الصنوبر .

وطرق أذنيه صوت معروف يقول من وراء الشجيرة :

أأنت هذا يا أبتاه ؟ لودفيج ! ماذا تفعل هنا بحق الشيطان ؟

كنت أتساءل : متى تعود يا أبتاه ؟ .

ففرك قستهان عينيه وقال : خبرنى ما الساعة الآن ؟

إنها قاربت الثامنة ؛ لقد غبت حوالى الساعة . ولكنى أرى أنك أتيت بالفقمة معك .

كان الحيوان ملقىً على الصخور والحربة فى ظهره ، وقد مات لكثرة ما نزف من دمائه ، فقد خرج فى رحلة إلى عرض البحر ، وقفل راجعاً بسبب هياج البحر واضطرابه .

° ° °

ويتحدث الركبان حتى اليوم بتلك المغامرة المروعة على أنها أعجب ما حدث فى تاريخ هذه الجزر الصخرية . ولن يشك فى ذلك أن يذهب إلى كنيسة « ندرجارد » وأن يشهد الثريا المعلقة تحت طنف الأرغن إحياء لذكرى قستهان المرشد البحرى السابق ، وإنقاذ الله له من خطر شديد فى البحر حيث واجه الموت وجهاً لوجه ، فنذر لله هذه الثريا الفضية .



البحر مزرعة المستقبل

للدكتور هرمن فريدريش

منذ أشار العالم الاقتصادى الإنجليزى « مالتس » سنة ١٧٩٨ إلى التفاوت بين نسبة الزيادة فى عدد سكان العالم وإنتاج المواد الغذائية ، لم يفتر الاهتمام بتوفير الغذاء للناس ، بل لعل هذا الأمر قد غدا من أهم المسائل التى تشغل العلماء فى هذا العصر منذ بضع سنين ، وإن كل ما استحدث اليوم من زراعة مساحات زراعة كثيفة واستصلاح أراضى جديدة ، واستعمال مخصبات صناعية وغير ذلك ، قد حال دون وقوع العالم بين براثن الجوع . ولكن الأرض الصالحة للزراعة ستظل حتى مع وجود أحسن الفرص للرى وإصلاح الأرض البور محدودة ، وسوف يأتى اليوم الذى تبلغ فيه المساحة المزروعة غايتها ، وعندئذ فلن يتسنى توفير أية زيادة فى الغذاء تبعاً للزيادة المطردة فى عدد السكان ، وعندئذ أيضاً قد تتحقق نبوءة « مالتس » .

ولهذا فقد سيطر على الناس الاهتمام بالمستقبل ، وهم لا ينقطعون عن وضع الخطط وإبداء الآراء لكى تدرس وتناقش ، بغية الوصول إلى حل أو وسيلة صالحة لمواجهة هذه المشكلة المرتقبة .

وتتجه اليوم أنظار الباحثين من العلماء قوية متزايدة صوب البحر ، إذ يعلقون عليه الآمال الكبار فى حل المشكلة الغذائية ، وقديماً قيل « إن البحر لا تنفد كنوزه » .

وهم يضعون الآن هذه المسألة على بساط البحث وهى : هل البحر الذى يغطى ثلاثة أرباع المعمورة يستطيع أن يسد فى المستقبل جزءاً كبيراً ، أو الجزء الأكبر ، من حاجة الإنسانية إلى الغذاء ؟ يمكن أن نصل إلى هذه الحقيقة : وهى أن حياة الحيوان على الأرض متوقفة على وجود النبات ، إذ هو أساس التغذية للحيوان والإنسان على السواء . وفى البحر توجد الحياة النباتية فى الطحالب والحشائش البحرية التى تختلف ألوانها بين الأخضر والبنى والأحمر ، والتى تكسو أجزاء من الساحل كمروج فسيحة . وتتكون من خلايا مجهرية صغيرة مختلفة الأنواع سابحة فى الماء .

ولأول وهلة تبدو للعين أنواع الطحالب الكبيرة التى يلفظ منها البحر أحياناً كميات غير قليلة ذات قيمة عظيمة . والواقع أن كميات صغيرة جداً من هذه الطحالب هى التى يستهلكها الإنسان مباشرة . ولقد أجريت فى ألمانيا الاتحادية تجارب لصناعة خبز مخلوط بنسبة صغيرة من دقيق الطحالب ، فكانت النتيجة سيئة إلى درجة يقطع معها كل أمل فى استخدام الطحالب فى صناعة الخبز . ولكن رؤى أن هذه النباتات البحرية تخدم الاستهلاك الإنسانى بطريق غير مباشر فى كثير من البلدان الساحلية . ففى فرنسا وانجلترا وأمريكا تستخدم أنواع الطحالب التى يلفظها البحر مخصبات زراعية أو علفاً للماشية ، كما يعتبر دقيق الطحالب مادة مفيدة لعلف الدواجن والخنازير .

ويحتوى بعض أنواع الطحالب والأعشاب البحرية على مواد ذات قيمة صناعية تلعب دوراً فى صناعات متعددة وفى صناعة المواد الغذائية بصفة خاصة ، كأنواع الخمائر ، وتستعمل بقايا هذه الطحالب كعلف طيب للماشية ، فكأنها بهذا من العناصر المكونة للغذاء الإنسانى . وبالرغم من أن تقدير الكميات التى يتسنى توفيرها من هذه الأنواع يصل إلى أرقام ضخمة ، فإننا نرى أن الحقيقة تختلف عن التقدير النظرى كل الاختلاف ، وبصرف النظر عن الحصيلة الكبيرة التى قدرها « تشامان »

فى كتابه « الأعشاب البحرية واستعمالاتها » سنة ١٩٥٠ إذ قدّر حصيلة بريطانيا بما لا يقل عن ٣,٥ مليون من الأطنان ، وحصيلة الساحل الباسفيكى لأمريكا بحوالى ثلاثين مليون طن .

وإذا كان من المتعذر تقدير الحصيلة العالمية من هذه الطحالب والأعشاب ، فليس من المغالاة القول بأنها تبلغ حوالى مائة مليون طن . ولكن هذا الرقم الكبير يفقد كثيراً من قيمته متى عرفنا أن وزن المادة الجففة بها لا يزيد على ٢٥ ٪ من وزنها طازجة ، وأن جزءاً من هذه المواد الجافة هو الذى يمكن الاستفادة منه كعلف للماشية ؛ يضاف إلى هذا أن قيمته الغذائية منخفضة نسبياً[١] .

وعلى ضوء ما ذكر ، فإن استغلال هذه النباتات البحرية الكبيرة يمد الإنسان بأساس غذائى جديد له فيه الغناء ولكنه قليل ، وحينئذ فهو لا يبشر بأن يصبح علاجاً حاسما لمشكلة المستقبل .

إن الطحالب السابحة فى المياه تتكون من خلية واحدة ، ويتجمع كل نوع فى مستعمرات خلوية تستطيع العين المجردة أن تراها . ولكنها قد تكون من الكثرة بحيث تضفى على الماء صبغة من لونها ، والمعروف فى علم الحياة البحرية الحديث أن هذه التجمعات النباتية « Phytoplankton » للطحالب ذات الخلية الواحدة تلعب الدور الأول فى تغذية الحيوانات البحرية . فمن هذه المراعى الطحلبية غذاء لحيوانات صغيرة كثيرة العدد ، هى بدورها فريسة لحيوانات أكبر ، أو غذاء لها ، وهذه تصبح أيضاً قوام الحياة لحيوانات مفترسة ضخمة . وهكذا نجد أنفسنا حيال سلسلة متصلة من التغذية ، تنتقل فيها المواد العضوية التى كوّنها النبات من حلقة إلى أخرى ، كما أن كل حلقة منها تحوّل جزءاً من هذه المادة إلى مواد أخرى خاصة وتمثلها فتصبح كتلة من بدنها وتفرز جزءاً آخر لم يهضم ، كما يتحلل منها جزء كبير عن طريق التأكسد إلى عناصره المعدنية ، بحيث

تتحرر القوة التى تحتويها لعمليات الحياة الضرورية لدنيا الحيوان . ووفق التقدير الذى اتفق عليه ، فإن ٩٠٪ من المادة الغذائية التى تتناولها كل من حلقات هذه السلسلة تتحلل وتخرج كمواد عضوية متخلفة ، بينما يتحول الباقى إلى مواد بنائية فى جسم المفترس أو المغتذى وهكذا .

وعلى هذا فإن السمكة التى زنتها واحد صحيح وتمثل الحلقة الثالثة فى السلسلة الغذائية ، كانت تعيش على عشرة أمثال وزنها من أسماك الحلقة الثانية وعلى مائة مثل من التجمعات النباتية « Phytoplankton » .

ومن هنا نبتت الفكرة القائلة بتجنب ضياع المقدار الذى تفقده المادة بسبب التسلسل الغذائى بأن تعد هذه « التجمعات النباتية » للاستهلاك الإنسانى المباشر .

وإذا كانت مصائد الأسماك فى العالم قد أنتجت فى ١٩٥٥ حوالى ٢٥ مليون طن من الأسماك وغيرها ، فإن هذه الكمية تساوى ٢,٥ مليار طن من « التجمعات النباتية » التى ينتجها البحر ، باعتبار أن الأسماك المصيدة تمثل الحلقة الثالثة فى السلسلة الغذائية . ومن الطبيعى أن يصبح لهذا العدد الضخم من « التجمعات النباتية » أثره وإغراؤه فى أن تعود فكرة الانتفاع المباشر بهذه الطحالب إلى الظهور بين آونة وأخرى .

ولكن دعاة هذه الفكرة يغفلون عن حقائق عملية متفق عليها ، فمصائد الأسماك يتركز نشاطها فى المناطق التى تتجمع فيها كميات كبيرة من الصيد ؛ إذ تصاد القواقع مثلاً من الأحواض كما تصاد الأسماك فى المواضع التى تبيض فيها ؛ على حين أن مناطق الغذاء لهذه الأسماك متسعة جداً لا تقارن بمناطق الصيد فى المساحة ، ذلك لأن التيارات والأمواج تجلب إلى مواطن السمك مياهاً جديدة وأغذية جديدة ، أو لأن الأسماك تنتشر بعد وضع البيض فى أماكن شاسعة فى مناطق غذائها . ويدل هذا على أن تركز « التجمعات النباتية » فى وحدة المساحة يمكن أن يكون ضعيفاً جداً بالنسبة لتركز الأسماك ، ولكنه يكفى فى نفس الوقت لغذاء الأسماك فى بعض المناطق التى تتركز فيها .

وثمة سبب آخر ينتج عنه خطأ فى تقدير أوضاع الأمور ، يتمثل فى عدم فهم العلاقة بين الغلة والإنتاج .

---

(١) بصرف النظر عن الاختلاف النوعى ، فإن هذه المادة الجففة تحتوى على ١٣ ٪ بروتين و ١ ٪ مواد دهنية و ٤٦ ٪ مواد نشوية و ٦ ٪ ألياف و ١٥ ٪ رماد و ١٧ ٪ ماء .

فالغلة هى الكمية التى تغلها المادة فى منطقة معينة ووقت معين فى مساحة واحدة من الأرض أو حجم واحد من الماء ؛ أما الإنتاج فهو مقدار المادة الناتجة من وحدة المساحة أو الحجم خلال دورة إنتاجية . ولأن هذه « التجمعات النباتية السابحة » قصيرة الأجل . فإن طبقة منها تموت بعد بضعة أيام من مولدها أو تفترس لتحل محلها طبقة جديدة ، مما يقطع بأن مقدار الغلة أقل بكثير من حجم الإنتاج حتى فى الفترات التى ينشط فيها التكاثر .

هذا ولحجم الإنتاج الأثر الفعلى فى تغذية الأسماك ، بينما يتوقف مقدار الغلة من « التجمعات النباتية السابحة » على الكمية الموجودة منها فى وقت الصيد .

ولكى نتعرف مدى الجهد الذى يتطلبه الحصول على هذه المادة ، فإننا نأخذ بأحسن الفروض من ناحيتى حجم الخلايا وكثافتها ، وتدل البحوث العلمية على أن ٥٠٠,٠٠٠ من أكبر أنواع هذه الخلايا المسماة Corethron criophilum توجد فى لتر من الماء ؛ فإذا كان حجم الخلية الواحدة $\frac{١}{١٠٠٠}$ من المليمتر ، فإن حجم هذه الخلايا كلها يبلغ ٤ مم٣ من المادة النباتية فى اللتر الواحد ، أو ما يساوى وزن ٤ ملليجرام على اعتبار أن الوزن النوعى لهذه المادة واحد صحيح . وبناء على ذلك فإن إنتاج كيلوجرام واحد يتطلب على هذا القياس ترشيح ٢٥٠,٠٠٠ لتر = ٢٥٠ م٣ من الماء ، ولما كان وزن المادة الجافة يساوى عشر وزن المادة الطازجة ، فإنه من الضرورى عندئذ ترشيح ٢٥٠٠ م٣ من الماء للحصول على كيلوجرام واحد من المادة النباتية الجافة .

ومن الجلى أن عملية ترشيح هذه الكمية الكبيرة من الماء تتطلب استنفاد وقت وجهود لا تربى قيمتها على قيمة الغلة المرجوة فحسب ، بل يمكن أن تحقق نتائج أفضل من هذه بكثير لو بذلت هذه الجهود والنفقات فى نواح أخرى من الإنتاج .

ويتابع الكاتب هذه العمليات الحسابية حتى يصل إلى أن الهكتار ينتج فى أحسن الظروف ما لا يزيد عن ١,٦ من الأطنان من هذه المادة الخلوية ، مع افتراض إمكان ترشيح مياه هذه المساحة ترشيحاً كاملا ، وهو ما يخالف الواقع . ثم يقول بعد ذلك :

ولذا يجب ألا نؤخذ بما تدل عليه هذه الأرقام الضخمة لأول وهلة ، إذ الواقع أننا لو راعينا الأسباب السابقة ، مضافاً إليها علمنا بأن القيم الغذائية « للخلايا النباتية السابحة » فى البحار غير معروفة لنا على وجه الدقة ، فإننا نجهل مدى صلاحيتها كغذاء للإنسان ، وكذلك لم نعرف بعد مدى سميتها ؛ ومتى أدركنا كل هذا فسندرك تبعاً لذلك أن الدعاة إلى مثل هذه المشروعات ، إنما يروجون لأحلام وخيالات لا محل لها فى عالم الحقيقة والواقع .

هذا وقد قدرت نفقة الطن الواحد بما يتراوح بين عشرين ألف وخمسين ألف مارك ألمانى (أو ما يوازى ألفين أو خمسة آلاف جنيه مصرى تقريباً حسب سعر الصرف حالياً) .

ولقد كتبت بعض الصحف مقالات أشادت فيها بأن البحر يستطيع أن يكفل للإنسانية غذاءها بواسطة هذه « التجمعات النباتية السابحة » ، ولكن مثل هذا لا يحمل إلا على محمل الدعاية وإثارة الجدل . ومن الثابت أن الفنون الصناعية كثيراً ما حققت أموراً كان تحقيقها يعتبر متعذراً أو مستحيلا ، إلا أن لهذه المسألة التى نعالجها من الحد والأهمية ما لا يدع مجالا للتعلق بآمال تتصل بحدوث تغير فنى فى الأجل الطويل .

وعلى ذلك فالواجب يقضى بأن نولى وجوهنا صوب مصائد الأسماك ذاتها كما نعرفها ونألفها وهذه أرقام تبين حقيقة الإنتاج العالمى الضخم لصناعة صيد الأسماك :

سنة	إنتاج ألمانيا الاتحادية	الإنتاج العالمى
١٩٥٢	٦٣٨١١٣ طناً	٢٥,٨ مليون
١٩٥٣	٧٠٨١٢٨ «	٢٥,٨ مليون
١٩٥٤	٦٥٦٩٥٩ «	٢٦,٨ مليون
١٩٥٥	٧٧٤٠٠٠ طن	؟

وهذه الأرقام برهان عملى على الاتجاه الحالى ، نحو زيادة الإنتاج العالمى . وهى تنبئ عن وجود تقلبات كبيرة تعزى إما إلى الأحوال الجوية ، وإما إلى أحداث بيولوجية . وإذا أريد العمل على زيادة الإنتاج ، فيجب أن نعرف أولا أن غلة الصيد تتوقف على أمرين ؛ أولهما :

كثافة عمليات الصيد نفسها (عدد السفن وأحجامها وعدد رحلات الصيد وطول مدتها)، وأن هذه الكثافة رهينة بمشيئة الإنسان وما يستطيعه من استثمار . والثانى : هو إمكانيات الكشف عن أماكن جديدة للصيد ؛ فعلى كميات السمك الموجودة فى المصايد تتوقف الغلة وقد تتأثر أرصدة السمك هذه بعمليات الصيد الكثيف، كأن تزداد عمليات الصيد على نسبة التكاثر ، أو كأن تؤدى هذه العمليات المستمرة إلى اضطراب السمك وفزعه فيلجأ إلى تغيير أماكنه . وفضلا عن هذا فإن هذه الأرصدة عرضة للتغير فى الأجلين الاقتصاديين القصير والطويل ، لأسباب لم تزل مجهولة حتى اليوم، ولو أنها قطعاً غير متصلة بعمليات الصيد نفسها .

ويبدو أن الجهود التى تبذلها منظمة الأغذية والزراعة التابعة لهيئة الأمم المتحدة ، سوف تؤتى ثمارها خلال العام المقبل فتزداد غلة الصيد العالمية بنسبة طيبة . ويتوقع الخبراء أن تتضاعف الغلة الحالية قبيل سنة ١٩٧٥ ، كما أن كثافة عمليات الصيد واتساع المصايد فى المناطق التى قل ارتيادها حتى الآن ، سيكون لها أثر قوى فى الزيادة الكبيرة المرجوة ؛ لا يقل عن أثر الوسائل المستحدثة لصيد أسراب السمك السابحة فى الماء ، مثل طريقة الصيد بالكهرباء أو بالشباك المعدة للصيد من المحيطات. وكذلك قد يزيد من الغلة العالمية الإقبال على صيد أنواع لم يلتفت إليها كثيراً من قبل، مثل سمكة « الفرخ الأحمر » Rotbersch فقد أدى إدخاله فى قائمة السمك الصالح لتغذية الإنسان إلى أن انتعشت اقتصادياً بلاد كثيرة على شاطئ ألمانيا الشمالى .

ويتوقف نجاح هذه الجهود على إيجاد نظام دقيق للتوزيع، لأن أماكن الصيد وجسور السمك ومحال الصناعة موزعة توزيعاً سيئاً غير منسق وغير ملائم لتواتر هذه العمليات . وتتصل مسألة النوع بمسألة التوزيع اتصالا وثيقاً . فكل زيادة فى الأنواع الصالحة لتغذية الإنسان مباشرة يؤتى بها إلى الشواطئ تلقى بلا شك ترحيباً وتشجيعاً ولكن الأنواع التى لا تصلح للتغذية المباشرة ليست عديمة النفع ، إذ تحول صناعياً إلى سلع أخرى كدقيق السمك الذى يعتبر ذا قيمة غذائية كبيرة فى علف الحيوان . ومن هذه الأنواع ما يستخرج منه الشحم والزيت .

وحرصاً على الاقتصاد فى نفقات الإنتاج وعدم ضياع شىء من الغلة، يتجه اليوم باطراد تفكير جدى إلى إقامة مصانع عائمة ، كما تبذل الجهود لتنفيذ فكرة « عمليات التبريد » التى تبدأ من حين عملية الصيد إلى أن يصل إلى أيدى المستهلكين ، فهل هذه الوسائل تحقق الغاية المرجوة ، وما مدى آثارها فى الاحتفاظ بجودة النوع ؟ .

ولكى تزيد نسبة الغلة زيادة طيبة يجب أن تتخذ إجراءات فنية وتنظيمية على نطاق واسع .

ومن ناحية أخرى لا يمكن التكهن بنتائج الصيد الكثيف المستمر على كميات السمك فى البحار . ولكن صالح الأجيال القادمة يقتضينا وضع الخطط وإتمام التنفيذ بنسبة ملائمة لكميات الصيد الموجودة ، وألا تتجاوز حصيلة الصيد هذه النسبة بأية حال .

أما القول بأن الزيادة فى الغلة تطرد اطراداً لا يعرف حدوداً ، أو أن البحر يستطيع أن يسد الجزء الأكبر من حاجة الإنسانية إلى الغذاء ، فتنقضهما التجربة الآتية :

تتوقف غلة الصيد من وجهة النظر البيولوجية على إمكانيات إنتاج البحر للمواد العضوية بواسطة النباتات وبخاصة من « التجمعات النباتية السابحة » . وقد أجريت عدة بحوث جديدة عن إمكانيات الإنتاج هذه ، منها البحث الذى قام به العالم الدانماركى « ستيان نيلسن » الذى استخدم فى إجرائه مواد ذات إشعاع وخرج منه بنتيجة مؤداها أن إنتاج البحار المائية سنوياً يقل بنسبة صغيرة عن مثيله فى اليابسة ، فى حين أن مساحة البحر التى تنتج هذه المواد الغذائية أكبر بكثير من مساحة اليابسة .

ونظراً إلى الصعوبات العملية الكبيرة التى تعترض إجراء مثل هذه البحوث فى البحار ، فإن هذه المشكلة لم تقترب حتى اليوم من حل صحيح شاف ؛ إلا أن إنتاج اليابسة سيظل أكبر من إنتاج البحار حتى على فرض أن حجم هذا الإنتاج من المواد النباتية يبلغ ضعف إنتاج اليابسة .

فمحاولة زيادة الغلة من صيد السمك إنما تهدف

إلى زيادة استهلاك المواد الزلالية ؛ فإذا استطاع البحر أن يمد الإنسانية بنسبة كبيرة من حاجتها المتزايدة إلى المواد الزلالية ، فمن المحتمل عندئذ أن يتحول جزء كبير من مساحة الأرض المنتجة للمواد الزلالية الحيوانية إلى إنتاج أنواع أخرى من المواد الغذائية . وفى هذه الحالة يمكن أن يتم تكامل مثالى بين الإنتاجين البحرى والأرضى ، وهو ما يصبو إليه الجميع ، رغم أن بعض الكتاب والعلماء يغفلون عنه أحياناً .

ولو اعتبرنا نتائج البحوث البحرية العلمية أمكن القول فى غير حرج ، بأن البحار تستطيع أن تسد جزءاً كبيراً من حاجة الناس إلى الغذاء، وأن من المستطاع زيادة الغلات من صيد البحار . ولكن الإمكانيات الفنية الراهنة واتساع البحار وما يجرى فيها من أحداث بيولوجية غريبة ، تجعل من غير المحتمل ، حسب معارفنا الآن ، أن يصبح البحر يوماً من الأيام مزرعة للإنسانية .

ولا شك فى أن البحر يحتوى كنوزاً لا تنفد ، ولكن ليس معنى ذلك أنه يمدنا بإنتاج من الغذاء لا حدود له ، ولكنه إنتاج ضيق فى الحدود التى تسمح بها طاقتنا العلمية وإمكانياتنا المادية . والذى يجدر بنا أن نأخذ به فى هذا الموضوع هو أن الأرض ما زالت غنية بمواردها الإنتاجية التى تمد الناس بالغذاء ، غير أن استغلال هذه المواد رهين باتباع سياسة مائية رشيدة . وهذا من أهم الواجبات التى يجب أن تضطلع بها الدول وتعنى بها .

« عن مجلة يونيفير زيتاس الألمانية »



وزارات الثقافة في العالم الاشتراكي

بقلم الدكتور محمد مندور

زرت فى شهرى سبتمبر وأكتوبر سنة ١٩٥٦ مع زملائى أعضاء وفد الأدباء المصريين جمهورية رومانيا واتحاد الجمهوريات السوفيتية . وقد كان من الطبيعى أن ينصب اهتمامنا بنوع خاص على دراسة نظم الثقافة عامة والأدب خاصة فى تلك البلاد .

وقد علمنا وشاهدنا أن هذه البلاد تتخذ من الثقافة والعلم الأساس الأول لحياتها . وكل شىء فيها يجرى على أساس العلم والثقافة ؛ بما فى ذلك إنتاجها المادى صناعياً كان أم زراعياً أم تجارياً .

وبناء على هذه الحقيقة تعير الدولة مسائل الثقافة والتعليم اهتماماً بالغاً . ولذلك لا تنهض بشئون التعليم والثقافة فيها وزارة واحدة ، بل عدة وزارات هى :

١ — وزارة التعليم العام

التعليم العام يمتد فى تلك البلاد من سن السابعة إلى سن السابعة عشرة ، أى يوازى مراحل التعليم الابتدائى والإعدادى والثانوى إجبارياً وبالمجان . ونسبة هذا التعليم الابتدائى فيها ١٠٠ ٪ ، لأنهم قضوا على الأمية قضاء تاماً . ومنذ قيام الثورة الاشتراكية فيها تضافر جميع المواطنين المتعلمين على تعليم الأميين ، وساهمت فى ذلك نقابات المعلمين مساهمة فعالة ، بل جعلته من أهم مشاغلها . وفى الاتحاد السوفيتى خمس عشرة جمهورية لكل منها استقلال ذاتى ، ولكل جمهورية وزارة للتعليم العام .

٢ — وزارة الجامعات والمعاهد العليا

لقد أنشأوا هذه الوزارة للأهمية الخاصة التى يعلقونها على التعليم العالى الذى يخرّج المتخصصين فى كل ناحية من نواحى الحياة . وهم يهتمون اهتماماً خاصاً بالدراسات العلمية والفنية حتى لنراهم يفردون لكل علم هام كالكيمياء والجيولوجيا والطبيعة كليّة خاصة ، لا قسماً فى كلية كما هى الحال عندنا . ولعل جامعة أسيوط الناشئة تصيب النجاح فى تطبيق هذا النظام الذى تريد الأخذ به ، وبذلك نتجنب الازدواج الذى لا ضرورة إليه ، ونضمن الجدية والتركيز فى البحث والدراسة ، فلا يعود لدينا أقسام صغيرة للكيمياء أو غيرها فى كليات الطب والعلوم والهندسة والزراعة والطب البيطرى ، بل كلية واحدة يختلف إليها الطلاب من جميع الكليات لدراسة هذا العلم أو ذاك ؛ وإجراء البحوث فى معامل ، وعلى أيدى أساتذة كفاة .

والتعليم العالى فى تلك البلاد ليس مجانياً فحسب ، بل يتقاضى جميع طلبته مكافآت دراسة شهرية تتراوح فى الاتحاد السوفيتى بين ٣٠٠ و ٤٥٠ روبلا شهرياً ، أى ما يعادل ٢٥ ، ٣٧ جنيهاً مصرياً تقريباً ، وذلك ماداموا ناجحين فى دراستهم مستفيدين منها . وهذا مع العلم بأن الطلبة لا يقبلون فى الكليات إلا بعد امتحان دخول تتبين الدولة منه صلاحيتهم للدراسة ، وترى أن من واجبها أن تعولهم ما داموا سينقطعون إلى التخصص بعد أن وصلوا إلى سن كسب العيش بأنفسهم ، وبخاصة أن التعليم العام يعدّ كلا منهم للعمل مباشرة فى الحياة ، بحكم أن هذا التعليم العام يجمع فى جميع مراحله بين التعليم النظرىّ والإعداد المهنى ، ويقسم ساعات الدراسة بين الفصول النظرية وبين الورش أو المزارع حسب

اختيار الطلبة . وقد زرنا بعض تلك المدارس حيث شاهدنا إلى جوار الفصول مصانع للنجارة والحدادة والميكانيكا وكهرباء الراديو والتليفون والتليفزيون، فضلا عن وجود الحقل والبستان إلى جوار المدرسة لتعلم الزراعة وفلاحة البساتين وتربية الماشية والصناعات الزراعية .

وهذه الدول لا تكتفي بالتعليم العام والتعليم الجامعي ، بل ترى من واجبها الاستمرار في تثقيف المواطنين والترويح الفني والفكري عنهم ؛ حتى لا يعود المتخرجون إلى ما يشبه الأمية ، كما يحدث عندنا من انقطاع الصلة بين الطالب والثقافة ومنابعها بمجرد التخرج من المدرسة أو المعهد . ولذلك أنشأت هذه الدول ماتسميه بوزارات الثقافة . ولما كان التنظيم في اتحاد الجمهوريات السوفييتية معقداً وكثير التفاصيل ، باعتبار أن في ذلك الاتحاد ١٥ جمهورية و ٤٠ لغة تعتبر كل منها لغة تعليم وثقافة بين الناطقين بها ، إلى جوار اللغة الروسية المشتركة التي يتعلمها الجميع في المدارس والمعاهد مما يتطلب حركة ترجمة واسعة مستمرة بين هذه اللغات واللغة الروسية ، حتى لقد شاهدنا في اتحاد الكتاب أديباً شاباً نابهاً اسمه « يوليو» من أهالي الجمهورية جورجيا يفضل أن يكتب قصصه باللغة الروسية، بينما يصر أبوه الشيخ الأديب على أن يكتب بلغة جورجيا ، على أن يقوم ابنه بعد ذلك بترجمتها إلى اللغة الروسية لتصيب ما تستحقه من انتشار ، وتطبع منها الملايين بدلا من الآلاف .

ولما كان التنظيم في الاتحاد السوفيتي بالغ التعقيد إلى حد أن رأى الاتحاد أن يسمح لبعض الجمهوريات كجمهورية أوكرانيا المترامية الأطراف مثلا بأن تكون لها وزارة ثقافة مستقلة بينما تكتفي الجمهوريات الصغيرة بمدير للثقافة تابع لوزارة الثقافة المركزية في موسكو — لذلك آثرت أن أقصر الحديث في هذا المقال الموجز على وزارة الثقافة في رومانيا ، ذلك لأن رومانيا دولة متوسطة كمصر يبلغ سكانها ١٧ مليوناً ، وإنه وإن تكن رومانيا قد رأت من واجبها أن تترك للأقليات القومية في بلادها كالأقلية المجرية الكبيرة الموجودة في مقاطعة ترانسلفانيا — حق التعليم بلغتها القومية أي المجرية ، وإنشاء جامعة مجرية خاصة بها في مدينة كليج عاصمة ترانسلفانيا — وكتابة الأدب ونشر الثقافة بتلك اللغة إلى حد إقامة مسارح مجرية خاصة بها . على أنه بالرغم من كل هذا فإننا نستطيع أن نعتبر رومانيا كمصر بلداً موحد الثقافة بحيث يمكن أن نفيد من تجربتهم ، في خلق وزارة خاصة للثقافة ، وفي معرفة اختصاصات تلك الوزارة وطرق العمل فيها .

٣ — وزارة الثقافة في رومانيا

وحرصت لهذه الأسباب أثناء زيارتي لرومانيا أن أطلب من السيدة الجليلة وزيرة الثقافة في رومانيا والسيدة كونستانزان ، أن تسمح لمرافقنا الرجل المهذب يوسف كاتسى مدير إدارة النشر بالوزارة بأن يدوّن لنا باللغة الفرنسية تخطيطاً لطريقة تنظيم هذه الوزارة ومصالحها المختلفة .

وبالفعل قدّم إليّ الأستاذ كاتسى قبل مغادرة بوخارست بيوم واحد ملفاً صغيراً به عدة أوراق باللغة الفرنسية عن اختصاصات هذه الوزارة وتنظيمها . وهأنذا أثبت هنا ما جاء في هذه الأوراق بعد تعريبه .

« يشمل نشاط وزارة الثقافة المسائل الإدارية والتوجيهية الخاصة بالنواحي الآتية :

المسارح الدرامية ، ومسارح القراقوز ، والسيرك ، والأوبرا والأوبريت ، والمسارح الشعبية ، والفرق الموسيقية السيمفونية ، وفرق الموسيقى الاستعراضية ، والنصب التذكارية ، والآثار والمعارض والإنتاج السينمائي وتوزيع الأفلام وإنتاج الكتب (دور النشر) وتوزيع الكتب (المكتبات) ودور الكتب ، ودور الثقافة ، والطباعة ، والتعليم الفني (الكونسيرفتوار ومعاهد الموسيقى والفن التشكيلي ومعاهد التمثيل المسرحي والسينمائي . . . إلخ)

ويلاحظ أن الراديو والتليفيزيون وإدارة الاستعلامات المشرفة على الصحف لاتدخل ضمن اختصاص وزارة الثقافة ، بل تتبع مجلس الوزراء .

هيئة الوزارة

يتولى الوزير والوزراء المساعدون إدراة شئون وزارة الثقافة ، وتتألف الهيئة التى تتولى إدارة شئون الوزارة من تسعة أشخاص : الوزير رئيساً والوزراء المساعدون والمديرون العامون ومساعدوهم أعضاء . وهذه الهيئة أداة استشارية للوزير ، تبحث جميع المشكلات الهامة المتصلة بنشاط الوزارة . وعند بحث المسائل المتصلة بدائرة نشاط معين تدعو الهيئة أشخاصاً آخرين إلى حضور جلساتها ، بالإضافة إلى أعضاء الهيئة التى تعمل فى دائرة النشاط المذكورة .

ولدى الوزارة فضلا عن ذلك مجالس استشارية أعضاؤها من إخصائيين (فنانين وكتاب وملحنين ومهندسين . . . إلخ . .) وهى المجالس الآتية :

١ — المجلس الفنى للمسارح .
٢ — المجلس الفنى للموسيقى
٣ — المجلس الفنى للسينما
٤ — المجلس التطبيقى أو الهندسى للسينما
٥ — المجلس الفنى للمتاحف .

وتؤخذ آراء هذه المجالس فيما يتصل بالمشكلات الهامة ، مما يساعد أحياناً فى توضيح التدابير التى تتخذها الوزارة وإكمالها .

ولحل المشكلات واتخاذ القرارت فى المسائل التى تمس طائفة عامة من المواطنين يستشير الوزير اتحادات الإنتاج ، كاتحاد الكتاب ، واتحاد المؤلفين الموسيقيين ، واتحاد الفنانين التشكيليين الذين لهم مؤسسات مستقلة .

وتعقد الوزارة من حين إلى حين جلسات تجرى فيها مناقشات شاملة ، لبحث المشكلات المتصلة بنشاطها ، ويشترك فيها رجال المسرح والسينما ودور النشر .

تخطيط الوزارة

وتشمل وزارة الثقافة فى تخطيطها الإدارات الآتية :

ا — الادارة العامة للفنون : وفيها الأقسام الآتية :

١ : إدارة مسارح الدراما والقراقوز ، وفيها قلمان رئيسان :

ا — قلم البرامج (Repertoire) والتأليف المسرحى .
ب — قلم العرض المسرحى .

٢ : إدارة الموسيقى وأقلامهاهى :

ا — قلم الإنتاج الفنى الموسيقى وينقسم إلى دائرتين :
— دائرة مؤسسات موسيقى الكونسرتو (الجمعيات الفيلهارمونية ، والفرق السيمفونية ، والفرق الشعبية . . إلخ)
— دائرة المؤسسات الموسيقية لحفلات العرض (المسرح والأوبرا والأوبريت والصالات الاستعراضية)

٣ : إدارة الفنون التشكيلية والنصب والآثار والمتاحف ، وفيها هذه الأقلام :

ا — قلم الإنتاج الفنى التشكيلى (Plastic)
ب — قلم المعارض والمتاحف الفنية .
حـ — قلم المتاحف العلمية .
د — قلم الآثار .
هـ — قلم التصوير الفوتوغرافى الفنى .

(٢) الإدارة العامة للمؤسسات الثقافية ، وتشمل الأقسام الآتية :

١ : إدارة الدور الثقافية وبها :

ا — قلم المحاضرات .
ب — غرفة التخطيط .

٢ : إدارة المكتبات وبها :

ا — قلم المكتبات العامة (للجمهور) .
ب — قلم المراجع .

(٣) الإدارة العامة للسينما ، وتشمل الأقسام الآتية :

١ : إدراة إنتاج الأفلام — وتشمل :

ا — قلم إنتاج الأفلام .

ب ــ القلم الفنى التطبيقى (Tecnique) .
جـ ــ قلم الآلات والإنتاج الفنى .
٢ : إدراة الشبكة السينمائية ، وتشمل :
ا ــ القلم الفنى التطبيقى .
ب ــ قلم المبانى .
جـ ــ قلم التوجيه والإشراف .

(٤) الإدارة العامة لدور نشر الكتب وتوزيعها، وتشمل الأقسام الآتية :
١ : إدارة النشر ، وفيها :
ا ــ قلم تنظيم النشر .
ب ــ قلم تنسيق طريقة طبع وعرض الكتب .
جـ ــ قلم العلاقات الثقافية .
٢ : إدارة توزيع الكتب وفيها :
ا ــ قلم القواعد الخاصة بتوزيع الكتب .
ب ــ قلم مراكز التوزيع الإقليمية .
جـ ــ قسم تصميم الكتب وجعلها شعبية .
٣ : قلم التنسيق والحسابات .

(٥) ــ الإدارة العامة الصناعية :
(٦) ــ إدارة المبانى واستثمار رؤوس الأموال .
(٧) ــ إدارة التنسيق .
(٨) ــ إدارة الخطة المالية والحسابات والإشراف المالى الداخلى .
(٩) ــ إدارة العمل والأجور .
(١٠) ــ إدارة الكادر .
(١١) ــ الهيئة الإدارية .
(١٢) ــ إدارة التعليم وهى تتولى إعداد الشباب للمسرح والأوبرا والأوبريت والفرق الموسيقية والتأليف الأدبى والمكتبات إلخ . . وتشمل الأقلام التالية :
ا ــ قلم التعليم الفنى .
ب ــ قلم المدارس التطبيقية والمهنية ودراسات التأهيل .
جـ ــ القلم الاجتماعى الإدارى (الدور والمطاعم المخصصة للطلبة وتزويد المدارس بالأدوات والمهمات الخاصة بهذا التعليم) .

(١٣) ــ إدارة السكرتارية ، وتشمل :
ا ــ قسم الصحافة والمراجع .
ب ــ قلم البروتوكول .
جـ ــ مكتب النظر فى الشكاوى والالتماسات .
د ــ قلم السجلات .

(١٤) إدارة العلاقات الثقافية مع الخارج .
(١٥) القسم القضائى .

ملاحظات وفوارق

هذا هو التخطيط الرسمى لوزارة الثقافة فى رومانيا البلد المتوسط الحجم كمصر ، والآخذ فى نهضة ثقافية واجتماعية شاملة كالتى نريد أن نأخذ بها . ومن هذا التخطيط نحس ما استقرت عليه رومانيا من إشراف الدولة على جميع مظاهر النشاط ، بما فيه من نشاط ثقافى . فهى التى تشرف وتنظم شئون السينما والمسرح والتأليف والنشر فى الأدب والفن . ونحن وإن كنا لا نزال نخرج نواحى كثيرة من هذا النشاط عن دائرة الدولة وإشرافها ، إلا أننا أخذنا فى أن نحس بضرورة رعاية الدولة لهذه النواحى ، ولذلك أنشأنا المجلس الأعلى لرعاية الفنون والآداب ، وصنوه الخاص برعاية العلوم مما يتطلب خلق أداة تنفيذية قوية لهذه المجالس ، وهى وزارة الثقافة التى يجب إنشاؤها لتنهض بهذا العبء ، ولتخفف عن وزارة التربية والتعليم جزءاً من مسئولياتها الضخمة ، حتى تستطيع أن تتفرغ للتعليم العام فضلا عن التعليم العالى فى الجامعات والمعاهد ، ولنحقق التركيز الذى لابد منه ، ولنتجنب تعدد جهات الاختصاص الحالى . حيث نرى شئون المسرح والسينما والثقافة والنشر والمكتبات والمعارض والآثار موزعة متناثرة بين وزارتى التربية والإرشاد ومصالحها المختلفة توزيعاً يبدد الأموال والجهود، دون الوصول بهذه الفنون والثقافات إلى المستوى المطلوب من ناحيتى الإنتاج والانتشار على السواء .

إحصائيات وأرقام

هذا ، ولكى أتبين مقدار نشاط الإدارات المختلفة التابعة لوزارة الثقافة الرومانية . طلبتُ إحصاءات وأرقاماً تبين مدى هذا النشاط ، وكان لى ما أردت ، فقد أمدّتنى الإدارة العامة للمؤسسات الثقافية بإحصاءات سنوية عن مراكز الثقافة التى افتتحت فى القرى المختلفة كمكتبات يستعير ٩ منها المواطنون الكتب أو يقرأونها فى أوقات فراغهم . وها هو ذا الإحصاء الذى قدم إلىّ يوضح اطراد النشاط فى تعميم هذه المراكز والبيوت الثقافية ، مع ملاحظة أن البيوت الثقافية تعتبر مراكز توزيع بالنسبة للمراكز الثقافية :

	١٩٣٨	١٩٤٤	١٩٤٧	١٩٥	١٩٥٣	١٩٥٤	١٩٥٦
مراكز الثقافة	٣٥٠٠	٤٠٥٢	٤٢٣٧	١١٥٠٠	١٢٠٩٧	١٢٠٥٤	١٢٠٧٣
بيوت الثقافة	١		—	—	٦٢	٦٥	٨٦

ومن هذا الإحصاء يتبين التقدم المستمر فى إنشاء المكتبات العامة فى الريف وفى المدن الصغيرة والكبيرة ، وهى مراكز يسمونها فى لغتهم ، وباللغة الفرنسية التى قدمت بها الإحصاءات باسم قوىُ الدلالة هو اسم دور الثقافة . Foyers Culturels . وهى فى الواقع بؤر الإشعاع الذى لا بد منه للمواطنين ، كى يتبينوا سبيلهم فى الحياة ويستفيدوا من جميع المكاسب البشرية الناتجة عن التقدم العلمى والثقافى والأدبى والفنى .

وطلبت إلى الإدارة العامة للفنون إحصاءات عن عدد المسارح التى تديرها ، وعن توزيعها بين العاصمة والأقاليم ، وعن الفرق والجمعيات الموسيقية ، فأمدتنى بالإحصاء الآتى :

	عدد الوحدات	فى العاصمة	فى الأقاليم
المسارح الدرامية	٣٤	٧	٢٧
مسارح القراقوز	١٩	١	١٨
الأوپريت وفرق الاستعراض	٥	٣	٢
الفرق الشعبية	٥	٢	٣
مسارح الأوبرا	٥	١	٤
الجمعيات الفيلهارمونية والفرق السيمفونية	١٦	١	١٥

وأما الإدارة العامة لنشر الكتب وتوزيعها ، فقد أمدّتنى بإحصاء عن عدد الكتب وعدد النسخ التى نشرتها فى الفترة ما بين ١٩٥١ — ١٩٥٥ وهى :

عدد الكتب	عدد النسخ
١٤,٤٦٠	٢٢٣,١٠٩,٣٣٩

باللغة الرومانية		بلغة الأقليات الوطنية	
عدد الكتب	عدد النسخ	عدد الكتب	عدد النسخ
٤٠,٠٣٨	٢١,١٥٠,٥٣٢	٢١٠,٤٢	٢٠١,٩٥٨,٨٠٧

وأما عن مراكز تصدير هذه الكتب وعن المكتبات التى تبيعها إلى المواطنين بالثمن الزهيد الذى تحدده الدولة فإحصاؤها هو :

المراكز الإقليمية — ١٦

مكتبات البيع — ٧٢٧

° ° °

هذه صورة مصغرة لوزارات الثقافة واختصاصاتها وإداراتها المختلفة فى العالم الاشتراكى ، وهذه إحصاءات تدل على مدى اهتمام تلك الدول بالنواحى الثقافية وأدواتها المختلفة . وفى رأيى أنه من الجدير بنا أن ننظر فيها وفى مدى إمكان إفادتنا منها لإنشاء وزارة للثقافة فى بلادنا .

° ° °

وفضلا عن كل ذلك فإنه لم يعد هناك مفر من أن تشرف الدولة على المسارح ودور السينما ، بل دور النشر لكى توجه إنتاجنا الأدبى والفنى الوجهة السلمية التى نبتغيها ، وتحمى الجادّين الشرفاء من رجال الأدب والفن من سطوة الجشع التجارى ، وتحكُّم بعض الناشرين والمنتجين للأفلام والمسرحيات .

الأغنية الشعبية أصل التوشيح

بقلم الدكتور عبد العزيز الأهوانى

إن أبناء هذا العصر لا يعلمون عن التوشيح إلا أنه ضرب من الغناء . وقلما خطر لهم أنه فن من فنون الشعر . وفى هذا المقال يشرح الأستاذ عبد العزيز الأهوانى هذه الحقيقة ، ويعرض علينا أن هذا الفن وليد الأغانى الشعبية فى الأندلس .

لا يزال هذا الفن القديم يشغل مكاناً فى حياتنا الحديثة ، ولكنه مكان ضئيل متواضع . وهو فى مصر أكثر تواضعاً منه فى سائر البلاد العربية ، وخاصة المغرب . إنه فيما يظهر يسير إلى نهايته ، ولا يستبعد أن يجىء اليوم القريب الذى يزول فيه من حياتنا الفنية ، ويصبح من الصعب علينا أن نستمع إلى التوشيح فى مجالس الغناء أو فى محطات الإذاعة . وأبناء الجيل الماضى من هواة الاستماع ومحبى الموسيقى يعلمون أن التوشيح كان له شأن أكبر منذ سنوات مضت ، وأن المغنى القديم كان يحفظ من الموشحات عدداً غير قليل ، يسير فيه على طرائق من التلحين القديم الذى ورثه عن شيوخه .

والشبان اليوم حين يستمعون مصادفة إلى هذا اللون من الغناء يعجبون منه ، ويحسون فيه بنوع من الغرابة توحى إليهم الشعور بالقدم ؛ فأصوات الجماعة التى تساند المغنى ، وأكثرهم من الرجال ، أو كلهم من الرجال — تنطلق فى نغمات رتيبة هادئة تتلو كلاماً منظوماً موقعاً ، أكثره فى لغة فصيحة ، وأقله فى لغة عامية ، يكرر معانى أكثر من ذكرها الشعراء القدماء فى وصف نفور الحبيب ودلاله ، وفى لوم العذول ، وغيرة الرقيب . نعم ؛ إنها معان تصور البيئة القديمة ، بيئة الحجاب وخطر العشق ، والحب الممتزج بالخوف والإشفاق ، أما الأصوات فهى أيضاً تنطق بالقدم ، أصوات غليظة متداخلة مبهمة تختفى فى طياتها الكلمات ، ولا تتبين الأذن ألفاظها فى وضوح . ومن وراء ذلك كله هذا الهدوء وهذه السكينة لدى المجموعة ، ثم المقاطع التى تتكرر مرات ومرات بين المغنى وأصحابه ، والكلمات الزائدة التى يقيم المغنى بها الوزن ويكمل النفَس . أقول إن هذا النمط من الغناء يكاد يصبح غريباً فى عصرنا الحاضر ، ويكاد يثير عند السامع الحديث العجب أكثر مما يثير الطرب ، ولعله حين يستمع إليه يميل إلى سكون ربما جعله يتثاءب . ثم ينتهى من هذا كله بأن فنّ التوشيح فن القدماء ، وأنه يمضى فى طريقه إلى حيث مضوا هم ، إلى السلام الأبدى الذى لا ينغصه شىء .

وأبناء عصرنا لا يعلمون عن التوشيح إلا أنه نوع من الغناء ، أما أنه فن من الشعر ، يعبر به الشعراء عن أنفسهم . وينظمونه فيما تنظم فيه أغراض الشعر — فذلك مالا يجدون له أثراً فيما بينهم . إنهم يعرفون فى الحياة شعراء ويقرءون لزجالين ، ولكنهم لا يبصرون أو يسمعون عن وشّاح اختص بهذه المنظومات . ولئن كان شعرنا الحديث قد اختلفت أوزانه وقوافيه ، أو خلا من القافية أحياناً ، أو نوّع فيها ، إن ذلك أمر جديد استحدثه هؤلاء الشعراء أو استمدوه من الشعر العربى ، دون أن تكون لذلك صلة بفن التوشيح القديم . ومن الحق أن نقول إن بعض شعراء الجيل الماضى ، والقليل من الجيل الحاضر قد عالجوا نظم الموشحات ، ولكنهم كانوا يتظرفون بذلك ، ويعارضون بعض القدماء ، دون أن يصل عندهم نظمها

إلى حد الجد والانقطاع . لذلك ظل هذا الفن فى جانبيه الغنائى والموسيقى فناً قديماً بالمعنى الدقيق للكلمة .

* * *

هذا الموقف الحزين الذى وصل إليه التوشيح يثير فضولنا ويغرينا بأن نستعيد شيئاً من ماضيه الطويل . بل إن من حقه علينا أن نتذكر معه أيام طفولته وصباه . كما نفعل مع أجدادنا الذين تقدمت بهم السن واقتربت الخاتمة ، حين نشاركهم فى ذكرياتهم القديمة ونرقب آثارها على وجوههم وفى عيونهم حين يتحدثون عنها . نعم لقد بلغ التوشيح من العمر نحو ألف عام ، قام فيها بأسفار ورحلات ما بين قرطبة وبغداد فى العالم العربى ، ثم تجاوز هذا العالم إلى عوالم أخرى لا تتكلم العربية فى الغرب والشرق ، فاضطلع بدور غير قليل . ثم إنه اجتاز عصوراً ذهبية كان فيها شغل الناس الشاغل فى ميدان النظم وفى ميدان الموسيقى على السواء ، وأنجب رجالا انقطعوا له . وأنتجوا فيه إنتاجاً خصباً عنيفاً وافراً فكان منهم من نظم وحده أربعمائة موشحة . وهو فوق ذلك كله قد قام بثورة خطيرة فى عالم يحب المحافظة ، ويقاوم التجديد ، ويسىء الظن بكل بدعة ؛ فاستُقبل التوشيح من المثقفين القدماء أول الأمر استقبالا سيئا ، وأبوا أن يدوّنوه أو يشيروا إليه فى كتبهم لأنه خالف فى أوزانه وقوافيه عمود الشعر العربى وسنن السلف الصالح . أما ثورته فى عالم الموسيقى فلم تكن دون ثورته فى عالم الشعر : كانت سمته الأولى فى الغناء الحركة السريعة والتنوع والحيوية ، على الضد تماماً مما نحسه نحن الآن معه ، فشغف به الشبان وأحبه المجددون ، وأصبح رمزاً للفن العصرى الجديد وقتذاك . وذلك كله ماض حافل مشرق يستحق من أجله أن يُمجد ويحتفل به .

على أننا لم نكتب هذا لنستعرض حياة التوشيح ، ونتحدث عن عصوره ، ونقف عند رجاله والأطوار التى اتخذها جيلا فجيلا ؛ فذلك أمر يطول ولا تتسع له هذه الصفحات . ولكن الذى يعنينا هنا أمر واحد نعتبره على جانب عظيم جداً من الأهمية والخطر لأنه يتصل بمشكلة حية نحن أحوج ما نكون فى عصرنا الحاضر إلى تدبرها والوقوف الطويل عندها ، ولست أبالغ إذا قلت إن موقفنا من هذه المشكلة ذو أثر حاسم فى حاضرنا ومستقبلنا من الناحية الأدبية والفنية . تلك هى الصلة بين أدب الخاصة وأدب العامة ، أو هى بعبارة أخرى موقف المثقفين والفنانين من الإنتاج الشعبى والفن الشعبى . وليس بمجهول ، حتى يحتاج إلى كشف وشرح ، أن العلاقة بيننا وبين أدبنا الشعبى تقوم على كثير من الاضطراب والغموض ، وأننا فى شك مبين من هذه القضية أو القضايا المتشعبة التى تتفرع عن هذا الأصل . ما الأدب الشعبى بالمعنى الدقيق ؟ وماذا لدينا منه فى عصرنا الحاضر وفى العصور القديمة ؟ وما الواجب علينا لهذا التراث؟ وكيف نفيد منه؟ وماذا نصل فيه أو نقتبس منه ؟ وما قيمته الحقيقية ؟ وما مستقبله ؟ هذه كلها مسائل لقيت بعض الدرس من فريق من أدبائنا وعلمائنا ، وخاصة الشبان منهم ، ولكنها لا تزال يحيط بها كثير من الغموض والإبهام ، بل كثير من سوء الظن المتبادل بين الأنصار والخصوم ، وبين أصحاب الفصحى والعامية ، وبين القدماء والمحدثين . وأمام الباحث فى هذه الأمور مناهج عدة يستطيع أن يسلكها للكشف عن هذه الحقائق ، وتوضيح هذا الغموض ، ووضع الأمور فى مواضعها الصحيحة . المجال متسع للدراسة النظرية والتماس التعريفات والحدود ، وهو متسع أيضاً فى الناحية العملية للجمع والتقصى والاستشهاد . وبين الاتجاهين مذاهب كثيرة ووسائل شتى .

ولقد رأيت فى دراستى لهذا الفن الذى أتحدث عنه ، وهو التوشيح ، ما يمكن أن يلقى ضوءاً على شىء من هذا الذى نحن فى سبيله وفى حاجة إليه ، من توضيح الصلة بين أدب المثقفين وأدب العامة ، ووجدت أن

عمل الوشّاحين الأوائل استند إلى شيء كان فى البيئة الشعبية التى عاشوا فيها، فانتفعوا بذلك وخرجوا على الناس بفن جديد ، كان له كما ذكرنا شأن كبير فى الحياة الفنية والأدبية ، وكان له دور خطير امتد قروناً كثيرة، وشمل ممالك كبيرة ، وخلف تراثاً ضخماً، وآثاراً لا تزال قائمة إلى اليوم بالرغم من بعد العهد وتطاول الزمن .
أقول : إن الوشاحين قاموا بتجربة نسعى نحن اليوم للقيام بها ، ونجحوا فيها نجاحاً باهراً ، يستحق منا أن نتبينه ، وربما نهتدى به ، ونكتشف فيه مثلا عملياً فى الانتفاع بالأدب الشعبي واستغلاله والانتقال به من البيئة العامة إلى البيئة الخاصة، تلك البيئة التى كانت قد اقتصرت قديماً على شيء واحد ، هو القصيدة العربية بنظامها القديم الموروث ، وبطابعها الذى سجلته الكتب ، واشتملت عليه دواوين الشعراء منذ وجدت للشعر العربى دواوين .

° ° °

ونحن جميعاً نعرف الطابع الذى اتخذته القصيدة العربية ، ثم جمدت عليه خلال العصور التالية كلها : هى قصيدة تنتظمها قافية واحدة ، خلافاً للشعر القديم عند اليونان والرومان وغيرهم، فإنه لم يصطنع نظام القوافى . وكانت هذه القافية الموحدة تكلف الشاعر العربى كثيراً من المشقة وتجعل القصيدة ، وإن اكتسبت بذلك تنغيماً لا شك فيه ، تحمل غير قليل من السآمة والملل . فكان التوشيح ثورة فى هذا الجانب فلم يلتزم هذه القافية الموحدة ، وإنما نوع فى القوافى ، فاشتملت الموشحة الواحدة على قواف عدة تثير الشعور بالطرافة والتجدد . وكانت القصيدة العربية زيادة على ذلك تتخذ البيت على قصره وحدة مستقلة قائمة بنفسها يكمل فيها المعنى ، ولم تتجاوز ذلك إلا فى حالات يسيرة اعتبرت ضعفاً من الشاعر . وكان ، نتيجة لهذا ، أن أصبحت القصيدة أبياتاً ينقصها التماسك ، وينقطع معها نفس الشاعر ونفس المستمع أحياناً كثيرة . أما الموشحة فقد ثارت على هذا الوضع أيضاً ، فلم تكن وحدتها البيت ، وإنما كانت المقطوعة التى تشتمل على جزأين : الغصن والقفل، وربما بلغ مجموع الغصن والقفل، أى المقطوعة ، ثمانية أضعاف البيت الواحد ، ومعنى هذا أن نفس الوشّاح يجد له مجالا أوسع ، ومعناه أن تكون الوحدة فى الموشحة أطول امتداداً منها فى القصيدة . ونظرة « بسيطة » إلى ما نظمه شاعر واحد مثل لسان الدين بن الخطيب من قصائد وموشحات يثبت قيمة هذا الفرق بين الفنين .
وفضلا عن هذا فنحن نعلم أن أصحاب القصائد قد التزموا أشياء تبعد عن الحياة بعداً كاملا ، فظلوا يقفون على الديار فى غزلهم ويبكون الآثار،ويتحدثون عن الظعائن ، ويصفون الناقة والبعير اتباعاً منهم لأساليب القدماء ، وإن عاشوا هم فى المدن والحواضر التى خلت من هذا كله . أما الوشاحون فلم يفعلوا هذا إلا شذوذاً ، وتجنبوا مالا صلة لهم به من تلك المظاهر البالية البعيدة عن حياتهم . ولقد امتدح الوشاحون الأمراء والسادة فى موشحاتهم ، ولكنهم حتى فى هذا كانوا شبه ثائرين ، فلم يسلكوا سبيل المبالغة المضحكة ولم يقيموا فيما بينهم وبين ممدوحيهم هذا الحجاب الغليظ الذى أقامه الشعراء ، حتى لكأنهم يخاطبون مخلوقات عجيبة غير بشرية . بل إنهم مزجوا مدائحهم بالغزل فى الممدوحين ، مما جعل لها طابعاً جديداً ، وكساها ثوباً لطيفاً شفافاً يحببها إلينا . وكنت أستطيع أن أضرب أمثلة كثيرة لهذا . ولكن القارئ سيجد فى مجموعات التوشيح ما يغنينا عن ضرب الأمثلة . على أن أروع ما اشتملت عليه الموشحة ، والذى هو مصدر جمالهـا الحق هو ما يسمى فى اصطلاحهم بالخرجة ، وهو الجزء الختامى للموشحة . وسنتحدث عنه قريباً بعد تفصيلاً ، ونمثل له بما يشبع القــارئ ؛ فإن هـــذا الجـــزء هو حجر الزاوية فيما نراه من صلة بين الموشحة والأغنية الشـعبية . فإذا أضفنا إلى هذا كله ما أحدثته الموشحة فى عالم الموسيق

من تطوير وتحويل للنغمة الواحدة والصوت الواحد إلى النغمات المتعددة والأصوات الكثيرة ، زيادة على خروج الموشحة عن الأوزان العربية القديمة ، واستحداثها لأوزان جديدة لا صلة بينها وبين البحور التى سجلها العروض العربى ، أقول : إذا قدرنا هذا كله أدركنا حقاً أن فن التوشيح فى جانبيه الشعرى والغنائى كان ثورة ذات خطر فى تلك البيئة القديمة المحافظة التى لا تلتمس مثلها إلا من ماضيها . وحقّ لنا بعد ذلك أن نتساءل : كيف ظهرت هـذه الثورة ؟ وما الأصول التى اعتمدت عليها ؟ وهنا ندخل دخولاً مباشراً إلى موضوعنا الذى نوّهنا به من قبل .

* * *

وينبغى قبل أن ندخل فى هذا الموضوع أن نبرر اختيارنا له من ناحية الصلة بينه وبين فن آخر أعرضنا عنه ، وانصرفنا عن الخوض فيه ، مع أنه ، فيما يبدو ، أقرب إلى ما نريده من توضيح الأثر الشعبى . واستفادة الفنان القديم منه . ذلك هو فن الزجل . فنحن نعلم أن هذه البيئة التى أخرجت التوشيح أخرجت الزجل أيضاً . وأن الفرق الأول الواضح بين الفنين هو أن الزجل اصطنع لغة ملحونة غير معربة ، وأن التوشيح استعمل اللغة العربية التى تخضع للإعراب ، اللهم إلا فى الخرجة وحدها كما سنذكر . ومعنى هذا أن ثورة الزجل كانت أكثر عنفاً من ثورة التوشيح ، وأنها اتجهت اتجاهاً مباشراً إلى اللغة الشعبية العامية بما لم تفعله الموشحات . هذا الفرق نفسه بين الفنين هو الذى فرض علينا أن نختار التوشيح ، لأننا لم نرد أن نتحدث عن ثورة مطلقة ، وإنما أردنا ثورة هدفت إلى التوفيق بين ما هو شعبى وما هو مثقف ، أردنا أن نعرف السر فيما هو أقرب لأن يعتبر تطويراً أو توفيقاً ، أو وصلا لحياتين متعزلتين فى بيئة واحدة وعصر واحد . فهذه هى مشكلتنا اليوم ، أما الطريق الآخر ، طريق رفض القديم والانصراف عنه ، وعدم المبالاة به ، أو التبرؤ منه بالجملة فطريق واضح لا يحتاج إلى من يرشد إليه ، ولا يعرض مشكلة فنية هى التى أمامنا الآن . ومع كل هذا فللزجل مشكلاته التى تخرج بنا عن الموضوع ، ولنا فيه رأى لا نجد داعياً إلى تسجيله هنا ، فهو مستقل يحتاج إلى دراسة مستقلة .

* * *

قلنا إن التوشيح قام بحركة من حركات التجديد الكبرى فى الشعر العربى ، ونقول : إن هذا التجديد استند إلى أصل شعبى ، هو الأغنية الشعبية التى جعلناها عنواناً لهذه المقالة . وبقى علينا أن نثبت ذلك ، وأن نتبين الأمر فى وضوح ونعرف حدوده وطريقة حدوثه ، فإنه من السهل أن تفترض الفروض وأن تقام الدعاوى . ونحن فى العصر الحاضر نتعرض لخطر الفروض والدعاوى أكثر مما تعرض له القدماء . ونحن فى دراساتنا الحديثة نعتنق مبادئ نريد أن نحكّمها فى كل شيء ، ونجبر الظواهر المختلفة المتباينة على أن تخضع لها ، ولو أخرجناها عن طبيعتها ، ولو تجاوزنا فى ذلك حدود ما هو بديهى واضح : نفعل ذلك فى تفسير الحياة العامة والخاصة ، ونفعله فيما يتصل بالعصور القديمة والعصر الحديث ، ونفعله فى السياسة والاقتصاد وفى الأدب والفن على السواء ، وفى ذلك كله كسب كبير ، ولكنّ فيه أيضاً خطر كبير . ونحن مع الموشحات متعرضون لهذا الخطر ؛ فإن القارئ الذى يرجع إلى المجموعات المتأخرة من موشحات المشارقة والمغاربة لا يكاد يلمس شيئاً من الشعبية التى ندعيها ؛ فهذه الموشحات المتأخرة كلها فى لغة معربة بما فى ذلك الخرجة أيضاً ، وعليها كلها تقريباً مسحة من التكلف فى المعانى والألفاظ ، وتسيطر عليها صنعة بلاغية ولفظية تجعلها جامدة ثقيلة . ونظام القوافى فيها يبلغ من التعقيد والازدحام حدّاً يبتر المعنى ويأخذ الناظم بمالا يطيق ، والقديم أيضاً يجأر فى كثير من أجزائها بما يجعلها تخلو من الصدق ، وتبتعد عن « البساطة » التى

يتّسم بها الفن الشعبى عامة . والأمر فى ذلك لا يقتصر على موشحات القرن الماضى والذى قبله ، بل يمتد أيضاً إلى عصور أقدم من هذا بكثير ، إلى العصور الأندلسية نفسها ، وأستميح القارئ فى أن أضرب له نموذجاً لهذا التكلف يحق له معه أن يتساءل عن هذه الصلة التى نبشر بها ونظهر الفرح لوجودها . فهذا موشح لوشّاح من رجال القرن الخامس أو السادس الهجرى فى الأندلس، أوردته كتب الموشحات نموذجاً للإتقان والجمال ، نعم فيه إتقان ، ولكن الشك فى الجمال . يقول :

على عيون العين ، رَعْى الدرارى ،
مَنْ شُغِفْ ، بالحب .
واستعذب العذاب ، والتذ حاليه ،
من أسف ، وكرب ،

هذا هو المطلع ، وهو القفل الأول ، ثم تجىء بعده المقطوعة الأولى التى تشتمل على الغصن الأول ، ثم القفل الثانى الذى سوف يتخذ قوافى هذا المطلع . وها هى ذى المقطوعة ، نفصل بين جزأيها بفاصل :

نُجلُ العيون سقتْ
نفوسَنا كأسَ الرحيق ،
أحداقهـــا أحدقت ،
بكل بستان أنيق ،
من وجنة شُقِّقَتْ ،
عن سوسن وعن شقيق ،

• • •

وتحت نور الجبين ، آس عذار
ينعطف ، كى ينبى
بأن ماء الرضاب ، حام حواليه
منصرف ، عن قربى .

• • •

لا أدرى : هل من القراء اليوم من يطرب لهذا النظم المعقد المزدحم كما طرب له من قبل أديبنا وعالمنا المصرى القديم هبة الله بن سناء الملك الذى اختاره فيما اختار من موشحات جمعها فى كتابه « دار الطراز » . على أننى لا أطرب له وأعتبره حجة فى يد الخصم المعارض ينكر بها أى رائحة شعبية يحتمل أن تكون ، أو يفترض أن تكون فى الموشحات . ولكننى مع ذلك على يقين مما ذكرته من صلة التوشيح بالأغانى الشعبية . ولنقف وقفة قصيرة هنا لنزيل فيها عن أنفسنا بعض ما يعرض لها من شك حول تطور يصيب الفنون أحياناً حتى تصير إلى ضد ما بدأت به فنقول :

كل فن ينشأ أول ما ينشأ استجابة طبيعية لحاجة تحس بها الجماعة ، فتحاول التعبير عنها ، ويضطلع بهذا الأمر عدد من الأفراد مشتركين أو منفردين ، وربما اشتركت الجماعة كلها فى أداء هذا التعبير . والتعبير فى هذه المرحلة الأولى يتسم « بالبساطة » والسذاجة والوفاء بالغرض المقصود دون تزيد أو إسراف . فينتج عن ذلك لون من الفن شعبىٌ مفهوم لدى الجماهير لا يجدون صعوبة فى إدراكه وتذوقه ولا يحسون فيه بغرابة تبعده عنهم . والفن هنا أقرب إلى الطقوس والعادات ، وأشبه أن يكون جزءاً من تقاليد الجماعة يتصل بالحياة اتصالاً يومياً . ثم يتطور المجتمع ، وتظهر طبقة تحترف هذا التعبير ، فيسلمها هذا الاحتراف إلى أن تفرض عليه ذوقاً خاصاً ومزاجاً فردياً يبعده شيئاً فشيئاً عن روح الجماعة ، ويجعله يحتل مكاناً من الحياة يضيق شيئاً فشيئاً حتى يصبح فن الخاصة . فتنصرف الجماهير عنه ، لأنها لا تفهمه ، ولأنه لا يحقق لديها الحاجة التى كانت ولا زالت سبب خلقه ووجوده ، وتحتجز هذه الجماعات لنفسها من هذا الفن جانباً يظل شعبياً وإن تأثر بعض الشىء وأثر فى فن الخاصة . ثم يتقدم الزمن مرحلة أخرى يصبح فيها هذا الفن الخاص لغزاً لا يكاد يفهمه ويحله إلا عدد قليل جداً من خاصة الخاصة ، وتسيطر عليه صنعة معقدة تنتهى به إلى أن يكون ثمرة من ثمار الذكاء والتفنن العقلى لا صلة بينها

وبين الفيض العاطفى والانطلاق الغريزى . وأغلب الظن أن الفن حين يصل إلى هذا الحد يجمد ثم يموت ، فينصرف عنه الناس حتى خاصة الخاصة أنفسهم ، ثم يبدءون بما يشبه الردة إلى التيار العام والذوق الجماعى فينتزعون منه فرعاً يسيرون فيه سيرتهم فى الفرع الأول . ولست فى حاجة لأن أذكر أن هذا الإنتاج الخاص قد يوفق إلى اكتشافات عظيمة ، وقد يصل إلى درجات من العبقرية والنجاح لا يصل إليها أدب الجماعة أحياناً ، ولست أنكر أن آثاراً خالدة فى الفنون جاءت إلينا من عصور بعيدة وهى تحمل اسم فرد واحد لا اسم جماعة كاملة . ولكننى فى الوقت نفسه أعرف أن آلافاً من هذه الأعمال الخاصة قد ماتت فى أيدى خالقيها . وخلت من كل سمة تجعلها جديرة بأن يعكف عليها إنسان أو يستوحيها أو يجد فيها لذه ومتعة . وكذلك لا أنكر أن الفن الشعبى نفسه ربما مشى فيه الفتور واعتراه الضعف والفقر . فأصبح تافهاً مملا ، يكرر نماذجه تكراراً لا يثير خيالا ولا يبعث نشاطاً ؛ فإن وراء هذا كله نفحة الإلهام وطفرة الخيال ولمسة الوحى التى لا قيمة لأثر فنى لا يأخذ منها بنصيب ، أيًّا كان مصدر الفن . وإذن فنحن نرى أن الصلة بين الفرد والجماعة فى الإنتاج الفنى صلة معقدة مستعدة لأن تتداخل وتختلط ، ولكنها مع ذلك واضحة المعالم فى خطوطها الكبرى ، نستطيع أن نتتبعها فى كل الفنون التى ظهرت قديماً وحديثاً .

* * *

ونرجع الآن إلى فن التوشيح ، فنجده يخضع لهذا القانون ويسير فى هذا الطريق الذى وصفناه : فإذا استعرضنا تاريخ التوشيح والأطوار التى تقلب فيها وجدنا أنفسنا أمام « بساطة » نشأ بها فى قرطبة أول الأمر ، ثم تعقيد أصابه فى الطور الثانى فى إشبيلية ، ثم ارتداد إلى ما يشبه « البساطة » فى طور ثالث له فى غرناطة ، ووجدنا أن طور التعقيد قد صحبه ازدهار فنّ آخر هو الزجل، فإذا عرفنا أن الموشحة السابقة التى نقلنا بعض مقطوعاتها كانت من إنتاج الطور الإشبيلى الذى أصبح فيه التوشيح فن الخاصة ، أدركنا أن ما فيها من تكلف لا يجوز أن ينسحب على بقية الأطوار ؛ وبذلك نستطيع أن نمضى إلى الحديث عند النشأة الأولى لنثبت ما ندعيه من أن التوشيح ظهر محاكياً لفن شعبى سابق هو الأغانى التى لم تخل منها بيئة فى أى عصر من العصور .

والمشكلة التى تصادفنا هى أن مؤرخى الأدب . وهم من الخاصة ، لم يعنوا بهذا الفن حين كان قريب العهد بالأغنية الشعبية فلم ينقلوا لنا منه شيئاً ، وإنما ذكروا أسماء لوشَّاحين قدماء لا تتجاوز معرفتنا لأدوارهم أكثر من مجرد معرفة أسمائهم . وإذن فطريقنا إلى إثبات ما ندعيه لن يكون طريقاً مباشراً ، لأن القدماء لم يتيحوا لنا فرصة لذلك ، أو أتاحوا فرصة ضئيلة جدًّا لا تتجاوز الإشارة العابرة وردت فى نص واحد لمؤرخ الأدب الأندلسى فى القرن الخامس الهجرى أبى الحسن ابن بسام حين قال فى كتابه (الذخيرة) متحدثاً عن المخترع الأول فى رأيه لم يكن يأخذ اللفظ العامى أو العجمى ، ويسميه المركز ويضع عليه الموشحة دون تضمين فيها ولا أغصان » .

وما كان هذا النص وحده ، بالرغم من ذكر لفظ العامى والعجمى ، ليثبت لنا النشأة الشعبية للتوشيح ، لولا ما احتفظت به الموشحات فى العصور التالية ، عصور التعقيد والصنعة ، من جزء صغير فى كل موشحة هو غاية فى الأهمية والخطر ، وهو حجة ناصعة على ما نريد أن نثبته .

* * *

ذلك الجزء الصغير هو الذى يسمى فى اصطلاح الوشاحين (بالخرجة) وهى القفل الأخير الذى تختم به الموشحة . هذه الخرجات من شرطها عندهم أن تكون فى لغة عامية ملحونة ، لا يلتزم فيها ما يلتزم فى سائر أقفال الموشحة وأغصانها من إعراب وسلامة لغوية . وهذه ظاهرة عجيبة تتصل بغير شك بالإشارة الموجزة

الغامضة التى ذكرها ابن بسام ، وتدل على أن اشتراط العامية أو العجمية لم يكن أمراً استحدث فيا بعد، وإنما هو أصل قديم نشأ مع الموشحة يوم نشأت . وقد وصل إلينا عدد ضخم من هذه الخرجات العامية مع ما وصل إلينا من موشحات الطور الإشبيلى ، وهو الطور المعقد فيا ذكرنا ، فوجدنا فى أكثرها نفحة أخرى تختلف تماماً مع جسد الموشحة الذى يتقدم عليها . وسنعرض على القارىء نماذج من هذه الخرجات ليحكم هو بنفسه على أنها قطع من أغان شعبية تتسم بما تتسم به الأغنيه الشعبية من « بساطة » وسذاجة ، ومن خصائص محلية تعبر عن البيئة وروح الجماعة . أما الخرجات الأعجمية فكانت شبه مجهولة لدينا إلى أن أتيحت فرص سعيدة فى السنوات الأخيرة ، اكتشفت فيها مجموعة قيمة جداً من هذه الخرجات الأعجمية فى مجموعة من الموشحات جمعها مؤلف غرناطى . وعثر عليها المستشرق الفرنسى جورج كولان . وكان لظهور هذه الأعجميات صدى ضخم وضجة كبيرة فى أوساط الباحثين من أهل الغرب، سواء منهم من يعنون بالاستشراق والعربية ، أو من يعنون بالآداب الأوروبية فى القرون الوسطى . وسنبدأ باستعراض شىء من هذه الخرجات الأعجمية التى يبلغ ما نعرفه منها عشرين خرجة ، أو يزيد قليلا ، ثم نتحدث عن السر فى ورودها بتلك اللغة ، ونعقب بالخرجات العامية الأندلسية .

* * *

فى موشحة لمحمد بن عبادة القزاز من رجال القرن الخامس الهجرى مطلعها :

من مَوْرِدِ التسنيمْ ، من سِلكِ فَلَجِ . .

يمضى الوشّاح فى إيراد الأغصان والأقفال حتى ينتهى إلى الغصن الأخير فتجده يقول :

وغــادة لم تَزَلْ ، تشكو لمن لا ينصفُ

يا ويحَ من يتّصلْ ، بحبل من لا يُسعفُ

لـمـا رأته بَطَلْ ، وهى غراماً تكلفُ

غنّتْ وما للأمل ، إلا إليه المصرفُ

ثم تجىء الخرجة وهى الغاية التى يختم بها ذلك الموشح ، ونصها كما هو مكتوب فى ذلك المخطوط العربى القديم :

ميو سيدى إبراهيم ، يا نُوامن دَلْـيج

فانت ميب ، ذى نُخْـتِ

إن نون شنون كارش ، يريم تيب

غرى أوْب ، لغرتِ (١)

هكذا جاء النص ! ولا تسل عن الجهد الذى يتكلفه الباحثون فى حل هذا اللغز الذى خلا من الشكل إلا فى مواضع قليلة ، والذى كتب فى حروف عربية لا تحسن تصوير النطق؛ حتى لكأننا أمام نوتة موسيقية ناقصة نريد أن نعرف منها النغم . نعم إن كلمات إسبانية تظهر واضحة فى النص ، ولكنها فى صلتها بما قبلها وبعدها تحتمل تأويلات ، وخاصة أن اللغة الإسبانية فى ذلك العصر لم تكن قد وصلت إلى منزلة التدوين والثبات ، إلى عشرات المشكلات .

ولعل هذه الخرجة أن تكون أيسر من سابقتها ، إنها لو شاح مجهول قدم لها بهذا الغصن :

كم شكت هواه ، من شبهةِ الظّلْمِ

إذْ رأت لماه ، فاشتهتــه للثم

أبصرتْ طــلاه ، فحكته لـلأمّ

ثم أتى بالخرجة الأعجمية العربية فى وقت واحد :

مم أى حبيب ، شلجملّه شقرلّه

القــل ألب ، إبكله حمر له (٢)

* * *

---

(١) الرسم بالحروف اللاتينية مع الاقتراب من الرسم الإسبانى الحديث قدر الاستطاعة .

Mio Sidi... Ya nomen dulce-vente mi, de noche-non si non Quieres, iréme ti-garme ou, llegarte.

(٢) Mamma, , su ... lla ... lla el cuello albo. v bocalla . lla

و « أبسط » من هاتين السابقتين هذه الثالثة التي جاءت أيضاً لوشاح نجهل اسمه ، وإن يكن من العصر نفسه . وغصنه الأخير الذى يمهد به للخرجة هو :

وخودٍ جنت سُقْمى ،
بصوتٍ برى جسمى ،
تغنّيه للأمّ

ثم ها هي ذى الخرجة القصيرة

كتال مى ما ألُه
ككرى ما ألُه (١)

ويحسن ألا نضايق القارئ بإيراد هذه الألغاز ، ولكن يحسن أيضاً أن نختم هذه النماذج بخرجة رابعة . إنهاموشحة لمن ينسب إلى مدينة لاردة ، مطلعها :

من يسعد المعنّى ، بسكبِ الدموع
يمضى فيها الوشّاح حتى يصل إلى هذا الغصن :

كم أسهرت نواه ، من خرد رَداحِ
غنت على هواه ، غنـ[illegible] اقتراحِ
لعلمها تـراه ، إقبـال الصباحِ

ومنه ينتهى إلى الخرجة :

نن درمرى مما ،
أراى ذمنيانا ،
بون أبو القاسم ،
لفاج ذى مطرانا ، (٢)

* * *

أما ترجمة هذه الخرجة الأخيرة فهى أن تلك الفتاة المسهدة تقول لأمها : « لن أنام يا أماه ، حتى يجىء الصباح ، ومعه أبو القاسم الجميل ، الذى وجهه كالفجر » . أما الخرجة التى قبلها فتغنى فيها تلك الحسناء قائلة لأمها أيضاً : « من الذى عذبنى يا روحى ؟ من الذى يحبنى يا روحى؟ » أما التى قبلها فتقول « أماه ، أى حبيب ! صاحب الشعر الأشقر ، والعنق الأبيض ، والفميمة الحمراء ! » أما الخرجة الأولى فإن الحبيبة تتلهف فيها على لقاء حبيبها قائلة :

« سيدى إبراهيم يا صاحبى ، يا صاحب الاسم العذب ، أقبل إلىّ ، فى الليل ، فإن لم تستطع ذهبت أنا إليك ! ولكن قل لى أين ألقاك ؟ » .

ونستطيع أن ننقل هنا الخرجات العشرين الباقية التى وصلت إلينا ، وأن نذكر لها ترجمة إن لم تكن أمينة دقيقة لصعوبة القطع واحتمال التأويل فهى بالرغم عن هذا كله تكشف عن حقائق لا خلاف فيها : أولها أنها فى لغة إسبانية قديمة كانت تعيش بين الأندلسيين فى عصر ملوك الطوائف ، تختلط بها ألفاظ عربية وصيغ أندلسية . وخاصة صيغ التصغير الذى يراد به التظرف والتمليح ، وثانيهما أن كل هذه الخرجات تقريباً يمهد لها بلفظ (غنى) أو (غنت) مما يدل على صلة بينهما وبين الموسيقى والغناء . وثالثها أنها فى معظمها على لسان امرأة تتغزل فى رجل ، مخالفة بذلك سنة الشعر العربى الذى يجعل التماوت والشكوى بحسب نصوص النقاد والقدماء من عمل المحب الرجل ، لا من عمل الفتاة التى تظهر دائماً فى الشعر العربى قاسية متكبرة معرضة . وكل هذه الحقائق تجعلنا نرى وراء هذه الخرجات تراثاً من البيئة الأندلسية لا صلة له بالتراث العربى الذى دخل الأندلس .

ولست بعد فى حاجة إلى القول بأن هذه اللغة الإسبانية القديمة كانت تعيش فى بيوت الأندلسيين المسلمين على ألسنة النساء مع الجوارى القشتاليات ومع الأسيرات من النساء اللائى لم ينقطع سيلهن عن جنوبى إسبانيا نتيجة للحروب المتصلة بين المسلمين والمسيحيين . وأنا فى غنى عن الاستشهاد بما ورد مفرقاً فى الكتب من أن الخلفاء والقضاة وعلية القوم كانوا يعرفون هذه اللغة الإسبانية ، وأنها كانت بغير شك يغنّى بها فى الأعراس

(١) Que tuelle me mi alma — Que Quiere mi alma

(٢) Non dormire mamma-iré de manana — bon ... — la faz de matrana.

وفى المناسبات العائلية الخاصة . وأن النساء كنّ المغنيات ومن هنا جاء أكثرها على ألسنتهن .

* * *

فإذا تركنا هذه الخرجات الأعجمية ومضينا إلى ما كتب من خرجات فى لغة عربية عامية لم نجد خلافاً كبيراً ، واستطعنا أن نكتشف هذه الخصائص التى تشير إلى حياة فنية أخرى غير الحياة التى عرفها الشعر العربى القديم ، فانظر إلى هذه « البساطة » التى لا يمكن أن تصدر إلا عن أغنية شعبية . إن مطلع الموشحة وهى لمجهول :

نفى النوم نافـــرْ ، عن جفــونى

تقابله فى الوزن والقافية الخرجة التى تقول :

محبــوبى مسافر ، صبرونى

والتى مهد لها الوشّاح بقوله فى الغصن الأخير :

نأى بفــؤادى ، وصيرنى حائر

فظلت أنادى .

ثم انظر إلى هذه الموشحة التى بدأت بدءاً تقليدياً :

حلّت يدُ الأمطار ، أزرّة النوار ، فباخدنّى .

كيف انتهت فى الخرجة إلى هذه السذاجة :

حبيبى أنت جارى ، دارك بجنْب دارى ، وتهجرنى

وقد مهد لها الوشاح بما يدل على الغناء فقال :

لما أطال حــزنى ، ولم يرحمْ
ولج فى التجنى ، وما ســلّم
ناديتــه أغنى ، نداء مغرم :
حبيبى أنت جارى . . . الخ

ثم انظر إلى هذه الخرجة العامية التى اشتملت على لفظ (مُرْ) وهى تقابل عندنا اليوم (رُحْ) . والتى نصها .

لسْ تقدر نراك اليوم ،
مُرْ ارجع لغير اليوم ،

ومدخلها أيضاً فيه ذكر الإنشاد :

ومتّى بميعــاده ، على غير معتاده
فأغرى بإنشاده .

وانظر أخيراً إلى صدى البيئة المنزلية فى تلك الأغنية التى جاءت خرجة لموشحة مجهولة المؤلف أيضاً ، والتى تعبث بأوامر المربين والمعلمين وهى :

نبيت ذا الليلة برّا ، على غيظ المُعلّم

والتى مهد لها الوشاح تمهيداً لا يخلو من تكلف ، ولكن فيه ذكر الغناء :

وخَود كالصباح ، تثنت فى الوشاح
كغصن بالرياح ، وغنت باقتراح

* * *

وأستطيع أيضاً أن أستشهد بعشرات من هذه الخرجات ، ولكن ما أوردته يكفى فيما أعتقد للدلالة على أن الروح التى تصدر عنها هذه الخرجات شىء آخر غير ما عرفناه من فن عربى قديم .

ولست أزعم أن كل الخرجات العامية كانت بنصها وكلماتها قطعاً هى مطالع أو خواتم لأغان شعبية ، ولست أنكر أن الوشاحين كانوا يصنعون من عند أنفسهم خرجات فى لغة ملحونة ، ولكنهم حتى فى هذا كانوا يقتربون ما استطاعوا من الروح الشعبية بحيث يحس القارئ فى سهولة ويسر بالفرق بين مطلع الموشحة ومقطوعاتها ، من ناحية المعنى والجهد العقلى والتعقيد المعنوى واللفظى ، وبين خرجتها من دلالات شتى تنبع من البيئة نفسها : فهذه خرجة تبدو أنها من صنع الوشاح ، ولكنها تضمنت قضية يرتبط فيها الحب بما شهدته الأندلس من جهاد دينى ؛ إنه يقول فى خرجته على لسان الفتاة أيضاً :

إلفى مضى للجهاد ، وغاب فى الثغر
تراه ينسى الوداد ، أو شاقه ذكرى !

فنحن هنا أمام لغة معربة ولكننا فى الوقت نفسه أمام ظاهرة اجتماعية لا يذكرها شعراء الأندلس مقترنة بالحب فيا وصل إلينا من شعرهم . ومثل هذا قريب منه الخرجة التى تقول :

أين أين الحبيب أمشى له ؟
قد شق البحار الله له !

وهذه صورة أخرى تتصل بحياة السفر والبحر والسفن مهد لها الوشاح بهذا الغصن ثم ختم بالخرجة :

مرت السفن بمن أهوى سحر ،
ويح ما أصنعْ ،
ونوى الرحلة عنى للسفر ،
ليته ودعْ ،
فأنا أنشده لما هجر ،
عله يرجع :
ليتنى رمله على شاطئ البحرْ
أو ما أو حلوم
وتراك عينى حين تقلع سحَرْ ،
لبلاد الرومْ .

* * *

ونضيف إلى هذا كله ظاهرة أخرى لها خطرها فيا يتصل بهذه الخرجات ، ولها دلالتها البليغة على ما نراه من أنها كانت أغانى شعبية ، تلك هى أننا وجدنا أعداداً من الموشحات تنتهى بالرغم عن اختلاف ناظميها بخرجة مشتركة ، يتداولها الوشاحون ويتعاقبون على اقتباسها بلفظها فى موشحاتهم ، وإن اختلف تمهيدهم لها : من ذلك الخرجة المشهورة التى نجدها عند ابن بقى وعند آخرين ، والتى نصها :

يا عـود الـزان ، قم سـاعـدنى
طـاب الـرمّان ، لمـن يجـنـى

بل إن هذه الخرجة نفسها نجدها عند ابن قزمان ، وهو زجال لا وشاح ، وقد مهد لها بما يفيد أنها أغنية متداولة . قال فى ختام زجل له :

يذّكر الإنسان الشىء إذا ما أعجبو ،
وأكثر ما غنيت من سَبَبُو
يا عود الزان . . . . .

ومن هذه الخرجات المتداولة تلك التى تقول :

يا حمّاماً خلاق ، يامّدينى
أين غبت البارحْ ، لم تجينى

وثانية نصها :

أين ، من غاب عنّو حبيب
لمن يسل عنّو ؟

هذه الخرجات أصبحت ملكاً مشاعاً ، يقتبسها الوشاحون ، ويتداولونها ، وهذه الملكية الشائعة أقرب ما تكون إلى الفنون الشعبية التى لايدعيها أحد ، ولا يتحرج من استخدامها أحد . وهى عندنا دلالة لها تقديرها فى الحكم على مصدر هذه الخرجات . وورود بعضها فى الأزنجالى يفتح مجالا آخر لا نريد أن نخوض فيه الآن من صلة التوشيح بالزجل .

* * *

وبعد ، فهل كنت مبالغاً حين جعلت للخرجة — وهى جزء صغير — هذه الأهمية العظمى فى الموشح ، فجعلتها أصلا لنشأته ، وجعلتها خطيرة فيا تحمل من دلالات فنية ؟ يكفينى أن أنقل هنا جزءاً من كلام ابن سناء الملك عن الخرجة ليعرف القارئ أننى كنت بعيداً عن التهويل والتضخيم . يقول ابن سناء الملك فى أسلوب اشتهر به ما يلى :

« والخرجة عبارة عن القفل الأخير من الموشح ، والشرط فيها أن تكون حجّاجيّة من قبل السخف ، قزمانية من قبل اللحن ، حارة محرقة ، حادة منضجة ، من ألفاظ العامة ولغات الداصة . . .

« وقد تكون الخرجة معربة ، وإن لم يكن فيها اسم الممدوح ، ولكن بشرط أن تكون ألفاظها غزلة جداً ، هزّازة سحّارة خلابة ، بينها وبين الصبابة قرابة . . .

« والخرجة هي أبزار الموشح وملحة وسكره ، ومسكه وعنبره ، وهي العاقبة وينبغي أن تكون حميدة ، والخاتمة بل السابقة وإن كانت الأخيرة . وقولي السابقة لأنها التي ينبغي أن يسبق الخاطر إليها ، ويعملها من ينظم الموشح في الأول ، وقبل أن يتقيد بوزن أو قافية ، وحين يكون مسيّبا مُسرّحا ، ومتبحبحاً منفسحا ، . . . لأنه قد وجد الأساس ، وأمسك الذنب ونصب عليه الراس . »

فتأمل قول ابن سناء الملك تجده أوشك أن يحس منذ أكثر من سبعة قرون بما نحاول اليوم أن نثبته ، ثم انظر إلى فقرة عنده هي قوله : « والمشروع بل المفروض في الخرجة أن يجعل الخروج إليها وثباً واستطرادا » لتعرف أنه أدرك أن الخرجة جزء مستقل . وإنما جاء الوثب والاستطراد لأنها كانت موجودة من قبل أن يوجد الوشّاح .

* * *

ونعود أخيراً إلى حيث بدأنا . إننا نستمع اليوم إلى التواشيح بين حين وآخر ، فتترامى إلى أسماعنا أصداء لتاريخ فنيّ طويل يزيد على ألف عام ، ونستشفّ وراء هذه الأصوات الغليظة الحادثة أصواتاً شعبية بعيدة ترددت في ليالي الفرح والأنس على ضفاف الوادي الكبير بالأندلس، ثم عبرت البرانس إلى أوروبا شمالا ، وعبرت البحر المتوسط إلى العالم العربي جنوباً، تاريخ حافل ظل يغالب الزمن خلال تلك القرون المتطاولة . وكان البدء رائعاً حقّاً : الشاعر العربي المثقف يهديه حسه المرهف إلى أن أدب الشعب مصدر الحياة خصبة متجددة ، فيتجه إليه ويقتبس منه ، فيكتب لنفسه الخلود ، ويترك آثاراً تبقى شاهدة على أن المجال فسيح أمام كل فنان موهوب . إن العالم العربي لا يزال يزخر بفنون وفنون من الأدب والشعر والموسيقى والرسم والتمثيل الشعبي ، ولكنه لا يزال في حاجة إلى من يلتفت إليها ، وينتزع منها ألواناً من الفن حسبها أن تعيش ألف عام كما عاش التوشيح حتى اليوم . ومن يدري ! لعله يعيش ألفاً أخرى إذا رزق بمجدد آخر مثل القبري والرمادي وابن ماء السماء .



مُنتخباتٌ من الموشحاتِ الشهيرة

تعقيباً على مقال الدكتور عبد العزيز الأهوانى نورد فيما يلى نماذج من الموشحات التى تستقيم تلاوتها للقارئ حين يطالعها ، دون حاجة إلى الغناء أو التلحين ليقيم وزنها ولكنها مع ذلك تمتاز تارة بتنسيق القوافى على نمط خاص ، وتارة باختلاف فى طول المراعين لكل بيت.

أبو بكر بن زهر

أيهـــا الساقى إليك المشتكَى !
قد دعوناكَ وإن لم تسمعِ !

• • •

ونديمٍ همتُ فى غُرَّته ،
وشربتُ الراحَ من راحتـــهِ ،
كلما استيقظ من سكْرته :
جذَبَ الزِّقَ إليهِ واتكَى
وسقانى أربعـــًا فى أربعِ !

• • •

غصنُ بانٍ مالَ من حيث استوَى ؛
باتَ من يهواه من فرط الجوَى ،
خافقَ الأحشاء موهونَ القُوَى !
كلمـــا فكَّر فى البين بَكى !
يا لهُ يبكى لمـــا لم يقعِ !

• • •

ما لعينى شَقيتْ بالنَّظرِ ؟
أنكرت بعدكَ ضوءَ القمَرِ !
فإذا ما شئتَ فاسمعْ خبَرى !
عَشِيتْ عيناىَ من طول البُكا
وبكَى بعضى على بعضِى معى !

• • •

ليس لى صبرٌ ولا لى جلَدُ !
يالقَومى عذلُوا واجتهدوا !
أنكروا شكوَاى ممّا أجدُ !
مثلُ حالى حقُّها أن تشتكَى
كمَدُ اليأس وذُلُّ الطمـــعِ !

• • •

كَبِدٌ حرَّى ودمعٌ يكِفُ
يعرفُ الذنبَ ولا يعترفُ
أيها المعرض عمـــا أصف ؟
قد نمـــا حبكْ بقلبى وزكـــا
وتقُلْ إنى فى حبكْ مُدَّعى [1]

نزهون

من موشحة مطلعها :

بأبى من هدَّ من جسمى القُوَى ،
طرفه الأحور

• • •

مرَّ بى فى رَبْربٍ من سِرْبِه
يقطف الزهرا
وهو يتلو آيةً من حزْبِه
يبتغى الأجْرا

(١) أصلحت هذه الخرجة فى كتب المشارقة لتصير معربة . وقد أثبتنا نصها عن ابن الخطيب فى جيش التوشيح (مخطوطة تونس)

بعد ما ذكرنى من حبه
آيةً أخرى
والذى لو شاء ما ذكَّرنى
بعدَ نسيانى
قلَّب القلب على جمرِ الغضَا
فهو فى شان

• • •

حفظَ اللهُ حبيباً نزَحا
خشيةَ الهجْر
جاءت البُشْرى به فانشرحا
عندها صدرى
واستطار القلب منى فرَحا
ثم لا أدرى
أمِنَ الإنسِ الذى بشرنى ؟
أم من الجان
غير أنى شِمْتُ برقاً أومضا
حين حيَّانى

• • •

لم تزَلْ تُظهِرُ فيه الكلَفا
عندَما غنَّتْ
غـادةٌ لو رام منها النَّصَفا
غيرُه ضنَّتْ
فهو يهواها ويُبدى الصَّلَفا
فلذا غنَّتْ
يتمنَّـانى إذا لم يـرنى
يتمنَّانى
فإذا رانى تولَّى معرضـا
كـأنُّو ما رانى

• • •

ابن هرَوْدَس

ياليـلة الوصلِ والسُّعودِ
باللهِ عُودِى
كم بتُّ فى ليلة التمنِّى
لا أعرفُ الهجرَ والتَّجنِّى
ألثمُ ثغرَ المُنى وأجنِّى
من فوق رمانتَىْ نُهودِ
زهرَ الخدودِ

• • •

يا لائمى اطَّرِحْ مَلامى
فـلا براحٌ من الغـرامِ
إلاَّ انعكافى على مُدامِ
بسَمْعِ صوتٍ ونقْرِ عودِ
من كفِّ خودِ
مدحُ الأمير الأجلِّ أوْلى
السيِّد المـاجد المُعلَّى
المَلِك السنىُّ الاعلى
أفضل من سار بالجنودِ
تحت البنودِ

• • •

أكرمْ بعلْيـاهُ من هُمامِ
إمَامِ هَدْىٍ وابن الإمامِ
مـدَّد الرُّوم بالحسـامِ
يعقدُ فى هـامة الأسودِ
بيضَ الهُنودِ

• • •

لله يـوم أغـرُّ زاهـر
قد حلَّ بالأندلـوس آمرْ
قالـوا وقـد وافت البشائرْ
بالمليكِ السيِّد السَّعيـدِ
أبى سَعيدِ

لسان الدين بن الخطيب

جادك الغيثُ إذا الغيثُ همَا
يا زمانَ الوَصْلِ بالأندلسِ
لم يكن وصلكَ إلا حُلُمَا
في الكَرَى أو خِلْسَةَ المختلِسِ

• • •

إذ يقودُ الدهرُ أشتاتَ المُنَى
تنقلُ الخطوَ على ما يرسمُ
زُمَـــراً بين فُرادى وثُنَى
مثلما يدعـــو الوفودَ الموسمُ
والحيَا قد جَلَّلَ الرَّوضَ سَنَا
فثُغُـــورُ الزَّهرِ فيه تبسمُ
وروى النُّعمانُ عن مـــاءِ السَّما
كيف يَروي مالكٌ عن أنسِ
فكساهُ الحُسْنُ ثوباً مُعلَمَا
يزدهي منه بأبهى ملبسِ

• • •

في ليالٍ كتمَتْ سرَّ الهوى
بالدُّجى لولا شموسُ الغُرَرِ
مالَ نجمُ الكأسِ فيها وهوى
مستقيمَ السَّيرِ سَعْدَ الأثرِ
وطَرٌ ما فيه من عيبٍ سِوَى
أنَّهُ مرَّ كلمحِ البَصَرِ
حينَ لَذَّ النَّوْمُ مع حُلْوِ اللَّمَى
هجم الصُّبْحُ هجومَ الحَرَسِ
غَارَتِ الشُّهْبُ بنا أو ربَّما
أثَّرَتْ فينا عُيونُ النَّرْجِسِ

• • •

أي شيءٍ لامرىءٍ قد خَلَصَا
فيكون الروضُ قد مُكِّنَ فيه
تنهبُ الأزهارُ منه الفُرَصَا
أمِنَتْ من مَكْرِهِ ما تتقيه
فإذا المـــاءُ تناجي والحَصَا
وخلا كلُّ خليلٍ بأخيه
تُبْصِرُ الوردَ غَيُوراً بَرِمَا
يَكْتَسي مِن غيظه ما يكتسي
وتَرَى الآسَ لبيباً فَهِمَا
يَسرقُ السَّمْعَ بأذْنَيْ فَرَسِ

• • •

يا أُهَيْلَ الحَيِّ من وادي الغَضَا
وبقلبي مَسْكَنٌ أنتمْ به
ضاقَ عن وَجْدِي بكم رحبُ الفضَا
لا أُبالي شَرْقُهُ من غَرْبِه
فأعيدُوا عَهْدَ أُنْسٍ قد مَضَى
تُعْتِقُـــوا عانيكُمُ من كَرْبِه
واتَّقوا اللهَ وأحْيُوا مُغْرَماً
يتلاشَى نَفَساً في نَفَسِ
حَبَسَ القَلْبَ عليكم كَرَماً
أفَتَرْضَوْنَ عَفَاءَ الحُبُسِ ؟!

• • •

وبقلبي منكمُ مُقْتَرِبٌ
بأحاديثِ المُنَى وهو بَعِيدٌ
قمرٌ أطْلَعَ منهُ المَغْرِبُ
شِقْوَةَ المُغْرَى به وهو سعيدٌ
قد تساوى مُحْسِنٌ أو مُذْنِبُ
في هواهُ بين وَعْدٍ ووعيدٌ
ساحرُ المُقْلَةِ مَعْسُولُ اللَّمَى
جالَ في النَّفْسِ مجالَ النَّفَسِ
سَـــدَّدَ السهمَ وَسَمَّى ورَمَى
ففُؤادِي نُهْبَةُ المُفْتَرِسِ

• • •

إن يكنْ جارَ وخابَ الأملُ
وفؤادُ الصَّبِّ بالشوق يذوبْ
فهو للنَّفْسِ حبيبٌ أوَّلُ
ليسَ في الحُبِّ لمحبوبٍ ذنوبْ
أمرُهُ مُعْتَمَدٌ مُمتَثَلُ
في ضلوعٍ قد براهَا وقلوبْ
حكَّمَ اللَّحْظَ بها فاحتَكَمَا
لم يُراقِبْ في ضِعافِ الأنفُس
مُنصِفَ المظلومِ ممَّنْ ظَلَمَا
ومُجازِي البرِّ منها والمُسِي

فهوَ للأشجانِ في جهْدٍ جَهِيدْ
لاعِجٌ في أضلُعي قد أُضْرِمَا
فهوَ نارٌ في هشيمِ اليَبَسِ
لم يَدَعْ في مهجتي إلا ذَمَا
كبقاءِ الصُّبحِ بعد الغَلَسِ

* * *

ما لقلْبي كلَّما هبَّتْ صَبَا
عادَهُ عيدٌ مِنَ الشَّوْقِ جديد
كانَ في اللَّوْحِ لهُ مُكتَتَبَا
قوله « إنَّ عذابي لشديدْ »
جلَبَ الهَمَّ لهُ والوَصَبَا

سَلِّمي يا نفْسُ في حكمِ القضَا
واعْمُري الوقتَ برُجْعَى ومَتابْ
دَعْكِ من ذِكْرَى زمانٍ قد مضَى
بين عُتْبَى قد تقضَّتْ وعتابْ
واصرفِ القولَ إلى المَوْلَى الرِّضَا
مُلْهِمِ التوفيقَ في أمِّ الكتابْ
الكريمِ المُنتهَى والمُنتمَى
أسَدِ السَّرْحِ وبدْرِ المجلسِ
ينْزِلُ النَّصرُ عليه مِثْلَمَا
يَنْزِلُ الوَحْيُ بِرُوحِ القُدُسِ



الروابط بين الحبشة ومصر

بقلم الدكتور زاهر رياض

قام الإمام أحمد بن إبراهيم أمير «هرر» فى وجه الإمبراطور لبنا دنجل Lebna Dengel عام ١٥٢٩ ؛ بعد أن جمع حوله الأمراء المسلمين هناك ؛ واستطاع بعد وقت قصير أن يسيطر على بلاد الحبشة سيطرة تامة بمعونة الأتراك الذين كانت لهم مراكز تطل على البحر الأحمر عام ١٥١٧ ، بعد فتحهم مصر ، وبفضل ما أمده به هؤلاء الأتراك من مدافع لم تكن معروفة لدى الأحباش .

وقد حاول الإمبراطور أكثر من مرة أن يجمع جيوشه المحطمة ، ويهاجم بها الثوار الذين تجمعوا غرب بحيرة «تانا» ولكنه هزم هزيمة منكرة ، وتقدم الإمام أحمد إلى مدينة أكسوم وحرقها ، ونهب ما كانت تحويه كنائسها من كنوز ونفائس ، وأسر عدداً هائلا من جنود الإمبراطور ، أرسل بهم فبيعوا فى أسواق الرقيق .

ولم تكد سنة ١٥٤٠ تهل حتى كانت جيوش الإمام قد اجتاحت الحبشة كلها ، وأصبح الإمبراطور طريداً يفر من بلد إلى بلد ، هو وأنصاره المخلصون القلائل يعانون الجوع والعطش ، فى حين يلح على الإمبراطور الإجهاد والمرض ، حتى مات وهو فى أسوأ حالات البؤس .

وأمام قوة الثائرين رأى الإمبراطور الجديد جلاوديوس Glaudius ضرورة الاستعانة بقوة خارجية . ورأى البرتغاليين وقد حطموا الأسطول المصرى فى موقعة « ديوا » واحتلوا «عدن» و « قمران » ، وأصبحوا سادة البحار الجنوبية . فأرسل إليهم وفداً يسألهم المعونة ، وسرعان ما وصل أربعمائة وخمسون جندياً برتغالياً ، يقودهم « كرستوفر دا جاما Cristofer da Gama »

انضموا إلى جنود الإمبراطور سنة ١٥٤٢ . وإذا كانوا قد هزموا فى المعركة الأولى وأسر قائدهم فإنهم ما لبثوا أن جمعوا جموعهم وشنوا هجوماً ناجحاً تمكنوا به من إيقاع الهزيمة بجيوش الثوار .

وبعد بضعة شهور شجع هذا الانتصار الإمبراطور جلاوديوس على أن يهاجم جيوش الإمام أحمد الرئيسة ويخترق بفصيلة منهم بقيادة بدرو ليونى Pedro Leone الصفوف إلى حيث الإمام ، وأطلقوا عليه الرصاص ، فأصيب بجرح مميت .

° ° °

إزاء هذه المعاونة الصادقة التى بذلها البرتغاليون للحبشة رأى الإمبراطور جلاوديوس أن يقابل حسن صنيعهم بمثله على الصورة التى يرونها ؛ وهى تحويل الحبشة بقضها وقضيضها إلى المذهب الكاثوليكى ، فعندما عاد إلى قصره عام ١٥٤٥ ، بعد انتصاره الأخير على الثائرين ، وجد أن بعثة برتغالية قد وصلت أثناء غيبته برياسة « رودريجز Rodregez » ومعها مبشران من الآباء اليسوعيين يحملان رسالة من حاكم الهند ، ويطلبان أن ينضم جلاوديوس إلى الكنيسة الغربية بعد أن قطع علاقته بالكنيسة المصرية .

ولكن تحويل شعب بأسره فى لحظة واحدة من مذهب إلى آخر أمر لا يسلم به عقل ، فأراد الكاثوليك أن يكونوا منطقيين ، فبدأوا بنشر عدة كتب باللغة الأمهرية شرحوا فيها مذهبهم وقارنوه بالمذهب الأرثوذكسى ؛ فشعر الأحباش وعلى رأسهم كهنتهم أنهم أمام هجوم منظم يرمى إلى النيل من كنيستهم وتحقيرها .

ثم وجد البرتغاليون فى الملك سوسينيوس Sossenius

(١٦٠٧ - ١٦٣٢) أكبر عون، إذ خيِّل إليه أن الاتصال بالبرتغاليين هو الوسيلة الوحيدة لخروج بلاده من عزلتها، واتصالها بالعالم الخارجي اتصالا يعود عليها بالمنفعة؛ وقد يكون هذا الاتصال دينياً فى أول الأمر، ولكنه لن يقف فى المستقبل عند حد الدين، بل قد يكون اتصالا ثقافياً تجنى منه الحبشة ما لم تستطع أن تجنيه فى كل عصورها الماضية، أو يكون اتصالا اقتصادياً تستطيع الحبشة به أن تصدر محصولاتها إلى الخارج، فاعتنق المذهب الروى سراً، وما كاد ينتصر سنة ١٦٢٢ على ثورة ملكيا كرستوس Melkia Cristos فى بيجا مدر Bega Meder حتى عد ذلك إيذاناً من الله بالجهر بمذهبه، فذهب إلى أكسوم Axum مع ابنيه ورجال دولته، وهناك أعلن انفصاله عن المذهب السكندرى، وأصدر مرسوماً إلى رعيته بذلك.

ولم يكد يتم هذا حتى قام الثوار فى كل مكان يتزعمهم أخوه «يمانا كرستوس Yamana Cristos» وزوج ابنته، وثار أيضاً «غبريال ملك سجد Gabriel Malak Sagad» وهو ملك «شوا Shoa» ومن ثم دارت حروب قاسية مريرة قاست البلاد منها خراباً شاملا، دون أن يستطيع الإمبراطور التغلب على أعدائه، مما جعل ولده فاسيلاداس Fassiladas يطلعه على سر هذه المحنة: وهو أن الجيش الإمبراطورى على استعداد لأن يسير وراء مولاه إلى أقصى الأرض إذا رد إلى جنوده مذهبهم القديم، فلم يستطع «سوسينيوس» إلا أن يعدهم بذلك.

وكان لهذا الوعد أثره، فهجم الجيش وتفانى فى الهجوم حتى شتت الأعداء، وقتل منهم ثمانية آلاف مقاتل، كما تقول المصادر.

وفى اليوم التالى ذهب الملك ليشهد آثار المعركة، وهناك لقيه ولده «فاسيلاداس» وقال له: «هؤلاء القتلى ليسوا بوثنيين ولا أجانب فنفرح بهزيمتهم! ولكنهم إخوة لنا، وبعضهم أقاربنا، فنحن لم نكسب عليهم نصراً. كم قتلت، وكم ستقتل فى سبيل التخلى عن مذهب اعتنقه أجدادنا؟».

فلم يلبث الإمبراطور أن تبين صدق كلامه، فقد أمعن فى قتل أبنائه الأحباش، على حين انتهزت الفرصة قبائل «الجالا Galla» لتقوى وتتسع، وهم أعداء كل من السكندريين والروم، ولذلك لم يكد الإمبراطور يعود إلى قصره حتى أعلن مرسوماً ردّ به إلى شعبه مذهبه وطقوسه، كما أعلن ابنه «فاسيلاداس» خلفاً له، واعتكف هو فى دير ليعيش عيشة هادئة حتى مات، بعد مرض قصير.

* * *

إن حرص الأحباش هذا، وتمسكهم بمذهبهم وعلاقتهم بالكنيسة المصرية تمسكاً شديداً يدفعهم إلى إيثار الموت دونه، ليس بغريب عليهم، فقد بدأت هذه العلاقة منذ القرن الرابع، واستمرت متصلة طيلة هذا الوقت، وسرت فى عروقهم مسرى الدم حتى أصبحوا يجدون فى قطعها أمراً جللا.

* * *

وفى خلال هذه القرون الطويلة لم يحاول المصريون الخروج بهذه العلاقة الدينية عن دائرة الدين، أو اتخاذها يوماً ما وسيلة للسيطرة السياسية على الحبشة؛ لم ير الأحباش جيشاً مصرياً يتقدم إلى بلادهم غازياً، يسنده رجال الدين من المصريين؛ ولا وسيلة للسيطرة الاقتصادية، ولم يروا منتجات بلادهم تحمل رخيصة إلى مصر، لتكون هدية أو هبة إلى البطريرك؛ أو وسيلة للاستغلال الاجتماعى، فإن أحداً من المصريين لم يقدم الحبشة ليقطن بلادهم ويسلبهم أراضيهم ومواشيهم، مستنداً على أذرع رجال الدين من المصريين، كما لم يحاول المطران يوماً مّا التدخل فى الأمور السياسية الداخلية بتغليب حزب على حزب، أو استغلال سلطة التتويج أو الحرمان التى هى من حقه، لمصلحته الشخصية أو وسيلة إلى الإثراء، فقد عُرف رجال الدين المصريون

دائماً بالتقشف والبعد عن ملاذ الدنيا ، وشهد الأحباش لهم بذلك طوال تاريخهم ، فاتخذوهم مثالا صادقاً لحياة النسك المسيحية .

وقد حدث أيام البطريرك يؤنس Youannes السادس وهو الرابع والسبعين من البطاركة (١١٨٩ — ١٢١٦ م) أن قدم مصر وفد حبشى يلتمس إقامة مطران ، وكان معهم تاج من ذهب استحسنه السلطان الصالح نجم الدين أيوب ، فقال للبطريرك : « ما كنت أظن أن من بين الأحباش من يستطيع أن يعمل هذا » فأجابه الرسول : إننا نعرف ما لأبينا البطريرك من التواضع والزهد، ولولا ذلك لكللنا رأسه بجواهر كريمة تساوى قيمتها خراج مصر » .

وقد كان البطريرك يحرص دائماً على إرضاء الأحباش بألا يفرض عليهم شخصاً معيناً ، فلم يعين لهذا المنصب إلا من يحوز رضاء الوفد القادم ، حتى كان هذا التعيين أشبه بالانتخابات ، وكان يحرص دائماً على ألا يختار للمناصب الدينية هناك إلا كل من يثق أنه يحافظ على الأمانة ، ويملأ المنصب عن جدارة واستحقاق . فقد ذهب البطريرك يؤنس الثامن بنفسه إلى أديرة الرهبان فى الصحارى ، للبحث فى صوامعها عمن يراه ذا كفاية لمنصب المطران ، واستغرق هذا البحث ثلاثة أشهر بالرغم من أن الأديرة فى ذلك الوقت كانت مليئة بالرهبان المتعلمين المتضلعين من العلوم الكنسية .

* * *

ولقد عرف عن الأحباش طوال تاريخهم محافظتهم على القديم وتمسكهم بالتقاليد ، كما عرف عن المصريين ذلك أيضاً ، فكنيستهم كنيسة تقليدية تقوم على المعتقدات القديمة وتفسير الآباء الأولين لها . ولقد كان هذا موضع انتقاد الكنائس الأخرى لها ، ولكنه كان داعياً لأن يزيدوا فى تمسكهم بقديمهم ويفخروا به ، فالتقت فى هذا التقديس للقديم والتمسك به عقليتان متقاربتان تريان فى هذا التمسك بالقديم فخرهما .

ومنذ دخلت المسيحية الحبشة فى القرن الرابع الميلادى لم يحاول المطارنة المصريون التدخل حتى فى تغيير الطقوس الوثنية إلا ما وجدوه يتنافى تنافياً تاماً والعقيدة المسيحية . فما زال الأحباش الآن يبنون كنائسهم على الطريقة الدائرية القديمة ، ويخصصون مركزها لقدس الأقداس الذى لا يدخله إلا الكهنة ، وما زال الكهنة الأحباش يرقصون فى أعيادهم الدينية على نغمات الدفوف ، استناداً إلى أن داود النبى كان يرقص أمام هيكل الرب ، وما زال الكهنة أيضاً يستعملون فى طقوسهم بعض الآلات ، وذلك ما تحرمه الكنيسة المصرية فى مصر . ولكنها تتساهل فى هذا مع الأحباش ما دام الأمر لا يمس العقيدة المسيحية فى شىء .

* * *

ولقد طلب الأباطرة الأحباش فى كثير من الأحيان وساطة البطاركة المصريين لدى سلاطين مصر لقضاء مصالح سياسية أو اقتصادية ، فلم يتردد البطاركة فى هذه الوساطة ، سعياً لخلق جو من الصداقة بين البلدين . ولعل أقرب مثل لذلك وساطة البطريرك كيرلس الرابع بين كل من الحكومتين المصرية والحبشية لاستقرار السلام على الحدود بين الحبشة والسودان أيام سعيد .

فلا غرابة إذا اعتز الأحباش دائماً بهذه الرابطة الوثيقة وتمسكوا بها ، بل قاتلوا فى سبيل الإبقاء عليها ، إذ لم يكن الأباطرة يترددون فى إذلال أنفسهم لدى السلطان فى مصر ليسمح للبطريرك بإقامة مطران مصرى : فقد كتب الإمبراطور « يكونو أملاك Youkono Amlak » إلى السلطان الظاهر بيبرس بالعربية يقول : « أصغر المماليك يقبّل الأرض بين يديك » وهو يعنى نفسه . كما لم يتردد ابنه يجبيا صيون Pegbia Sion أن يكتب إلى البطريرك قائلا : « أرجو ألا تسمحوا بخراب مملكتنا » .

كل ذلك من أجل هذه العلاقة الوطيدة التى يتمسك بها الأحباش تمسكاً يصل بهم إلى إيثار الموت فى سبيلها .

وفى سنة ١٢٦٨ م ارتقى الإمبراطور « يكونو أملاك »

عرش الإمبراطورية بفضل مؤازرة رجال الدين وتعضيدهم له ، فاعترف للكنيسة بجميلها ، ومنحها ثلث أرض الدولة ، فلم ير المطران فى ذلك أنه قد أصبح ذا سلطان زمنى ، ولم يحاول أن يناقش سلطة الإمبراطور على هذه الأرض كما فعل أنداده فى أوروبا ، بل ترك لممثلى الإمبراطور مباشرة سلطتهم ، ولم يحاول أن يستغل هذه الهبة أكثر مما يفهم منها ، من أنها الاستيلاء على إيراد هذه الأرض ، ليصرفه على ما فيه خير الكنيسة ورجال الدين . وبذلك أثبتت الكنيسة المصرية أنها لا تجرى وراء متاع الدنيا ، ولا تبغى سلطة فى الأرض ، بل أثبتت أن هدفها إسعاد الشعب الحبشى ورفاهيته .

كذلك لم يحاول المطران المصرى مطلقاً أن يتصرف فى أمر من الأمور كمصرى ، فما إن يصدر قرار التعيين حتى يسافر إلى مقر منصبه ، وحينئذ ينسى تماماً أنه مصرى ، ويتصرف كحبشى صادق لا يسعى إلا إلى مصلحة الحبشة ، وإمبراطور الحبشة ، وشعب الحبشة ، وكنيسة الحبشة .



مصر فى الشعر الانجليزى
إبان الحركة الرومانتيكية

بقلم الدكتور محمد رشاد رشدى

يذكر المؤرخون لنابليون أنه كشف عن مصر الفرعونية، وكان الأجدر بهم أن يضيفوا أنه كشف أيضاً عن مصر الحديثة ؛ فقد كانت الحملة الفرنسية هى التى وجهت أنظار أوروبا إلى مصر فى عام ١٧٩٨ ؛ فلم يعد الاهتمام بمصر مقصوراً على فئة من أساتذة الجامعات الأوروبية المهتمين بالدراسات العبرية أو الإنجيلية أو على فئة من الرحالة البحاثة من أبناء الطبقات الأرستقراطية ممن كان فى مقدورهم زيارة مصر لرؤية آثارها والتحقق من صحة ما كتب المؤرخون الرومان واليونان عن هذه الآثار، ولم يعد الاهتمام بمصر مقصوراً أيضاً على بعض الكاتبين والجغرافيين من الإنجليز الذين كانوا يرون فيها محطة على الطريق ما بين إنجلترا والهند أو ما بين إنجلترا وأواسط إفريقية كما كانت الحال فى القرن الثامن عشر وأكثر سنى القرن السابع عشر .

لقد أفاضت الحملة الفرنسية على مصر أهمية وشهرة لم تتمتع بهما قبل ذلك التاريخ، فبدأت الصحف والمجلات الإنجليزية تكتب الصفحات المطولة عنها، وراحت دور النشر تنشر مذكرات الضباط الإنجليز فى مصر، وتشيد بمعركة النيل والانتصارات التى أحرزتها بريطانيا على فرنسا فى هذه المعركة، بل إنها كانت تتنافس فى نشر الخرائط والرسوم وكتب الرحلات الخاصة بمصر حتى ما كان منها مكتوباً بالفرنسية أو الألمانية . والواقع أن الحاجة كانت شديدة إلى كل ما له علاقة بمصر، وكل ما من شأنه أن يزيد معرفة القارئ الإنجليزى بها بعد أن كشفت الحملة الفرنسية عن موقع مصر الإستراتيجى الهام بالنسبة للإمبراطورية البريطانية .

على أن الحملة الفرنسية لم يقتصر أثرها على إثارة اهتمام الشعب الإنجليزى بمصر من الناحية السياسية، بل من ناحية أخرى لا تقل أهمية عن هذه ؛ فقد جلب نابليون معه إلى مصر عدداً كبيراً من العلماء الفرنسيين قاموا باستكشافات ودراسات عدة للآثار الفرعونية بها، ونشروا هذه الدراسات فى أوروبا، فأثاروا الاهتمام بمصر الفرعونية وبآثارها بحال لم يسبق لها مثيل فى التاريخ .

وبانتصار الإنجليز على الفرنسيين فى مصر وقعت فى أيديهم آثار مصرية كثيرة دعت إلى أن يقام لها متحف خاص فى العاصمة البريطانية، ففى سنة ١٨١٢ أقيمت « القاعة المصرية » فى ميدان بيكاديلى فى قلب لندن، واستمرت هذه القاعة التى شيدت على نظام المعابد المصرية القديمة قائمة إلى سنة ١٨٢٤ تعرض الآثار الفرعونية، ويفد إليها الناس من جميع أنحاء بريطانيا، وفى الوقت نفسه بدأ المتحف البريطانى فى جمع الآثار الفرعونية التى كان يرسلها إليه عملاؤه من الإنجليز وغير الإنجليز فى مصر، وكانت كل شحنة جديدة من الآثار تفد إلى لندن تثير اهتمام العامة والخاصة حتى باتت جميع المجلات الأدبية والفنية بلا استثناء تقريباً تتنافس فى أن تنشر آخر أنباء الاستكشافات المصرية، وفى عقد الفصول الطوال عن الفن الفرعونى والدين والحياة العامة فى مصر القديمة وغير ذلك من نواحى المدنية المصرية . وباختصار لقد سحر

الناس فى إنجلترا بحضارة الفراعنة حتى أصبح الطابع الفرعونى فى قطع الأثاث وأدوات الزينة شائعاً تفننت فى تقليده المحال التجارية الكبرى لما بدا لها من إقبال الناس على كل ما هو فرعونى أو يشبه الفرعونى .

على أن سحر مصر لم يقتصر على هذا فقد سحر بها أيضاً أقطاب شعراء الحركة الرومانتيكية أمثال : شلى وكيتس وبيرون ؛ فنجد كيتس يستعير الكثير من أوصافه فى قصيدته الكبرى « هيبرين » من المعابد والآثار الفرعونية التى رآها فى لندن ، أو قرأ عنها فى كتب الرحالة . ونجد بيرون يكتب إلى أحد أصدقائه فيقول : « لأجل أن نثير خيال الشعراء ونستولى على اهتمامهم يجب أن نتجه فى الشعر إلى الجنوب ، إلى بلد مثل مصر ، يجب أن نختار موضوعاتنا من هناك » . أما « شيلى » فيبدو أنه كان أكثر شعراء عصره تأثراً بمصر وكل ما له علاقة بها حتى إنه حاول أن يتعلم اللغة العربية ، وقد ترجم منها قصيدة قصيرة إلى اللغة الإنجليزية . ويتردد ذكر مصر فى شعر « شلى » فى أكثر من مناسبة وفى أكثر من قصيدة ، بل تحتل أيضاً فى بعض هذه القصائد مكاناً بارزا .

فى سنة ١٨١٨ وصل إلى المتحف البريطانى بلندن رأس رمسيس الثانى الذى كان يعرف فى ذلك الوقت برأس « ممنون » أو « أوزيمندس » ، وفى تلك السنة نفسها نشر « شلى » قصيدته القصيرة المشهورة المعروفة بعنوان : « أوزيمندس » ، وفيها يقول :

قابلت سائحاً من أرض قديمة
قال لى : قدمان هائلتان من غير جسم
تقفان بين رمال الصحراء
وإلى جانبيهما يكاد يكون مدفوناً
بين الرمال يرقد رأس هائل
فى محياه ما زلت تستطيع أن تقرأ ،
بين عبوس الجبين وصرامة الشفاه ،
علائم الأمر والنهى والجبروت

وعلى قاعدة التمثال تبدو هذه الكلمات واضحة :
« اسمى أوزيمندس ملك الملوك
فلينظر إلى أعمالى كل رجل ويبئس »
*
ولا شىء يبقى سوى هذا ،
فحول خرائب هذا التمثال المتداعى
إلى ما لا حدود له ، وحيث لا ترى العين
شيئاً آخر — تمتد الرمال مستوية
موحشة ، تمتد إلى ما لا نهاية

* * *

وفى السنة نفسها (١٨١٨) تحدّى الشاعر الإنجليزى « لى هنت » كلاًّ من الشاعرين « شلى » و « كيتس » فى كتابة مقطوعة مما يعرف باسم Ballad عن النيل ، وكتب كل من الشعراء الثلاثة مقطوعته ، وفاز « لى هنت » : فاز لا لأن قصيدته كانت تصف النيل أحسن مما وصفه زميلاه ، بل لأنها كانت تتميز عليهما بوصف للجو المصرى كما كان فى أذهان الناس فى ذلك الوقت .

وهذه قصيدة « لى هنت » عن النيل :

ينساب خلال مصر القديمة الصامتة وخلال رمالها
كما ينساب الفكر القوى الجبار ينسج حلما
وتظهر الأزمان والأشياء فى هذا الحلم
ثابتة متلاحقة فوق الرمال الأبدية
الكهوف والأعمدة والأهرام وقطعان الرعاة
كما عرفها العالم فى شبابه : مجداً ليس بعده مجد . .
مجد سيزوستريس العظيم ، ومجد هذه الملكة
الضاحكة التى وضعت يدها فى يد العالم بأكمله .
وبعد ذلك صمت ، صمت قوى جبار
كأنه صمت دنيا خلت من أهلها .
وهذا الصمت له على النفس وقع ثقيل ، ثم نصحو
ونستمع إلى النهر الدافق يشق طريقه بين القرى . .
ونفكر كيف أن حياتنا هى الأخرى تنساب

فى رحلة هادئة قصيرة إلى المصير نفسه

* * *

ولكن بالرغم من انتصار لى هنت على شلى وكيتس فإن فى شعر كل من هذين الشاعرين دلائل كثيرة على اهتمامهما بمصر ومعرفتهما بآثارها الفرعونية معرفة دقيقة جداً فى بعض الأحيان. وهذا على سبيل المثال مقتطف من قصيدة شلى المعروفة باسم «ألاستر» يقول فيها:

خطواته التى لا تهدأ
إطاعة لأفكاره العالية
زارت خرائب الزمان وآثاره :
ممفيس وطيبة والمسلات
وأبا الهول والمعابد والقبور
وكل ما خبأت إثيوبيا السوداء
بين الرمال والتلال .
وبين خرائب المعابد هناك
وقف يتأمل آثار العالم فى شبابه
خلال اليوم الطويل المحرق
تحدق عيناه فى هذه الدمى التى لا تنطق .
وعندما يملأ القمر هذه القاعات
بظلال رهيبة ، لا يكف عن النظر والتأمل .
بل ظل ينظر وينظر حتى دهمت المعانى
عقله الخالى كما يدهمه الوحى القوى الدافق
ورأى بنفسه . . . مولد الزمان .

* * *

وأكتفى بهذا القدر من شعراء الحركة الرومانتيكية ؛ ولكن مما لا شك فيه أن مصر قد لعبت دورها فى الحركة الرومانتيكية الإنجليزية التى كانت تعتمد فى موضوعاتها على كل ما له علاقة بالبعيد أو القديم، إما فى الزمان أو فى المكان ، إذ لم يقف سحر مصر الفرعونية عند هذا الحد ، فى الوقت الذى كان يكتب فيه شلى وكيتس ولى هنت عن مصر ويتساجلون بأشعارهم عنها كان فى مصر نفسها عدد من الرحالة والكتاب الإنجليز يبحثون وينقبون ويكتبون أيضاً ، وعلى رأس هؤلاء « هنرى صولت » الذى زار مصر فى سنة ١٨٠٦ مع الفيكونت « فالنتيا » ، ورسم القاهرة والمعابد المصرية عدة رسوم، اعتمد عليها فيما بعد من أقاموا القاعة المصرية فى بيكاديلى بلندن، كما اعتمد عليها أيضاً من أقاموا نموذجاً للقاهرة عرض فى «ليستر سكوير» بلندن فيما بين عامى ١٨٢٠ — ١٨٣٠ .

* * *

وفى ١٨١٥ عين هنرى صولت قنصلا لبريطانيا فى مصر ، وبعد وصوله إلى القاهرة فى مارس ١٨١٦ إلى حين وفاته فى سنة ١٨٢٧ كان شغله الشاغل هو جمع الآثار المصرية والتجارة بها ، على أنه لم يكن مجرد تاجر ، فقد كان يكن لمصر ولآثارها حباً صادقاً قوياً . ويستطيع كل من يقرأ حياته أن يدرك فى يسر أن الدافع إلى إقامته بمصر لم يكن حب المال أو الرغبة فى الشهرة ، بل حاجة ملحة ونزعة رومانتيكية بحتة لم يكن هناك سبيل إلى إشباعها ؛ فقد كان كما يبدو، مسحوراً بكل ما حوله، ولم يكن هناك سبيل إلى الانفكاك من هذا السحر . ويعبر « هنرى صولت » عن هذا السحر الذى استحوذ على حياته فى قصيدة طويلة طبعت فى الإسكندرية ، وكانت أول كتاب يطبع فى مصر باللغة الإنجليزية ، وهى بعنوان « مصر — قصيدة وصفية كتبها أحد الرحالة » ، وقد كتبها ليسرّى عن نفسه بعد وفاة زوجته وطفله وصديقه « لى » قنصل بريطانيا فى الإسكندرية ؛ وكان غرض هنرى صولت من كتابة قصيدته هذه أن تعيد قراءتها إلى الأذهان ذكريات جميلة عن مصر ؛ ولذلك فأنت تحس فيها حب الشاعر لمصر ، وإحساسه بالزهو والفخار ؛ لأنه قدر له أن يعيش بين هذه الآثار الخالدة فترة من الزمن وأن يصورها ويرسمها ويكتب عنها ؛ وأنت تحس أيضا أنه يتخذ من هذه الآثار مأوى يخلد إليه ويحميه من تفاهات الحياة الحاضرة ومتاعبها . وقد كان هذا الإحساس

الأخير إحساس كثيرين من الشعراء والكتاب الإنجليز الذين كتبوا عن مصر فى هذه الفترة ، ويعبر هنرى صولت عن هذا الإحساس ، فيقول :

فى كل نجع وهضبة فى واديك، أى طيبة !
تستمتع نفسى بإحساسات أعلى وأنبل
مما تستمتع أى نفس أخرى . . .
فتعيش فى الماضى ، وتتفتح لها كنوز الطبيعة المغلقة
فلا تعود تحس بتفاهة الحياة التى حولها .
إن فى كل بقعة وفى كل أثر من آثارك الخالدة
نبعاً من السرور لا ينضب لأنى عند ذلك
أحيا فيما كان . . .

* * *

ومات هنرى صولت فى ١٨٢٧ ، وقصيدته عن مصر اليوم من الكتب التى يطمع فى اقتنائها كثيرون من المهتمين بالأدب والتاريخ .

واستمر أثر مصر الفرعونية فى الأدب الإنجليزى ، وما زال مستمرا دون شك ، ولكن فى السنوات القليلة التى أعقبت وفاة هنرى صولت : أى فيما بين ١٨٢٧ و١٨٣٢ . بدأ الاهتمام بمصر يتحول إلى ناحية أخرى ، فإن الآثار الفرعونية كانت فى معظمها قد اكتشفت إلى ذلك الوقت ، وكتبت فيها المجلدات الضخمة ، وذاعت وانتشرت ، وأصبح لها العلماء المختصون الذين يكرّسون حياتهم كلها لدراستها، وهم العلماء الذين نعرفهم اليوم باسم Egyptologists

كان من الطبيعى إذن أن ينصرف اهتمام الناس فى إنجلترا عن هذه الناحية من النواحى المصرية ، وخاصة بعد أن قدم مصر فى عام ١٨٢٢ « إدوارد وليم لين » ، وأقام بها حوالى سبعة الأعوام نشر بعدها كتابه المشهور المعروف باسم « عادات وتقاليد المصريين المحدثين » ، وهو الكتاب الذى نشر فى عام ١٨٣٦ والذى يعد للآن أوفى بحث كتب عن شعب من شعوب الأرض .

نعم ، كان طبيعياً أن ينصرف اهتمام الناس إلى مصر الحديثة وأهلها ، ولكن الذى أريد أن أخلص إليه هو أنه بعد عام ١٨٣٠ بدأت أذهان الناس فى أوروبا وفى إنجلترا تنصرف إلى أشياء أخرى غير الآثار الفرعونية فى مصر ؛ إلى حياة المصريين المحدثين ورثة الحضارة العريقة ، وإلى الحضارات العتيدة الأخرى التى ورثوها مثل الحضارة العربية ، وإلى معالم مصر الحديثة مثل القلعة والريف المصرى والأغانى والمواويل المصرية وأسواق القاهرة وغروب الشمس على ضفاف النيل وغير ذلك من النواحى المصرية الصميمة التى كانت معروفة لدى الكثيرين من العامة والخاصة فى إنجلترا والتى كتب عنها الرحالة الإنجليز فى مصر ، أو بدءوا يكتبون عنها فى كثرة وبدون انقطاع من عام ١٨٣٠ إلى ١٨٦٠ حتى إنه كان يكفى أى كاتب مهما كان مغموراً أن ينشر كتاباً عن مصر ليغطى نفقات رحلته إليها كما أن القساوسة كانوا يلجئون فى كثير من الأحيان إلى توزيع كتيبات صغيرة بها معلومات أو أوصاف عن مصر لجمع التبرعات الخيرية لإنشاء المستشفيات أو مساعدة الفقراء وما إلى ذلك .

إن هذه الفترة ما بين عامى ١٨٣٠ و ١٨٦٠ كانت فترة استأثرت فيها مصر بشكل منقطع النظير بخيال الشعب الإنجليزى ، وبخيال الشعب الفرنسى أيضاً . فقد زارها فى هذه الفترة بالذات عدد كبير من الكتاب الفرنسيين والإنجليز أمثال فلوبير وثاكرى ومس هاريت مارتينو وكنجلاك ولورد لندزى وغيرهم ، وكان الحافز على الزيارة باعثاً رومانتيكياً فى أغلب الأحيان : باعث نزعة وحنين إلى هذه الحضارة التى تختلف كل الاختلاف عن الحضارة الأوربية ، وإلى هذه البلاد التى احتفظت بآثار الماضى فبقيت فيها البقاع التى جاء ذكرها فى الإنجيل ، وما زال الناس يعيشون فيها على الحالة التى وصفتهم بها التوراة ، وأكثر من ذلك فإنها البلاد التى شهدت مولد الزمان ، وهى التى تعطى الصور الحية لما يقرأ فى كتاب ألف ليلة وليلة الذى نشر أول ما نشر فى أوروبا بالفرنسية فى أوائل القرن الثامن عشر ، ثم انتشر بعد ذلك ، وازداد تأثيره على مر الأيام حتى أصبح شديد التجاوب مع قراء النصف الأول من القرن التاسع عشر ؛ ولذلك

كله نجد مصر فى الشعر الإنجليزى ما بين عامى ١٨٣٠ و ١٨٥٠ تحيط بها هالة من كل هذه الأشياء، من الفرعونية والعربية وألف ليلة وليلة والإنجيل والتوراة والجو والمناظر الطبيعية الساحرة . وإليك على سبيل المثال شعر أحد الساسة الإنجليز الذين زاروا مصر فى سنة ١٨٤٠ ، وهو « ريتشارد مونتن ميلنز » الذى كتب عدة قصائد عن مصر أشهرها قصيدة طويلة بعنوان (عبء مصر) يقول فيها :

ما أجمل أن تنساب فى هذا الليل الساكن !
تنساب عبر إسنا وأدفو وكوم أمبو
كل منها للسرور وإلى السرور يؤدى .
حين ذاك أعرف حقاً ما لليل من جمال
وأرى بعينىّ السماء براقة تتلألأ فيها النجوم
فإذا نظرت إلى الأرض وجدت أشكال
الليل ترتفع عند أبواب الهياكل والمعابد

رهيبة مفزعة ، ورهيبة مفزعة أيضاً
هذه الوجوه الجادّة الحزينة تحتشد
فى ظلمة الليل بين أعمدة الهياكل وعند
الأبواب وكأنها تنعى الحضارة التى
نسيت ، أو خانها أصحابها . .

° ° °

ومن الشعراء الذين زاروا مصر فى الوقت نفسه تقريباً شاعر آخر اسمه « لورد لندزى » ، أختتم هذه الدراسة القصيرة بمقتطف من قصيدة له عن مصر ضمنها خطاباً له إلى أحد أصدقائه ، يصور فيها ولعه وولع معاصريه باللون الشرقى الذى لم يجدوه فى أى بلد آخر مثل ما فى مصر . يقول لورد لندزى فى خطابه :

أى شىء فى هذه الدنيا
أجمل من أن ترقد تحت خيمة
على ديوان تركى فى قارب عربى
تصعد النيل فيه .
القرى والمعابد والأهرام
والجوامع وصوامع القديسين وأوكار الحمام . . ؟
وأجمل من كل هذه مجتمعة
أشجار النخيل وقد أحنت كل منها رأسها
كالعذارى عندما يقترب النوم من جفونهن
فى هدوء ودون جهد وإلى ما لا نهاية . . .



الدرس الأول في علم التشريح

للكاتب الأمريكي لويد دوجلاس

في الجامعة التي نحن بصددها هنا ، يتولى تدريس التشريح للطلاب في كلية الطب — أستاذ من نابغي الجراحين ، له شهرة عالمية في جراحة الأعصاب ، تلك الجراحة التي تتبوأ اليوم أسمى مكانة في عالم الجراحة كله .

غير أن هذا الأستاذ العجيب الذي حلق نجمه في سماء الجراحة — قد حلق نجمه أيضاً في سماء أخرى ، ألا وهي سماء البذاءة وطول اللسان يسلق به طلابه ، لا تأخذه رحمة أو شفقة ، ، ولا يرضيه من الطالب إلا أن يكون ذا فهم سريع نادر وأدب جم ، وطاعة عمياء ؛ وإلا تعرض لضروب التجريح والتأنيب .

* * *

كانت أخلاق الأستاذ « توبي » — وهذا هو اسمه المختصر — من الشدة والقسوة بحيث يحق لنا أن نعجب كيف لقي معهده كل هذا الإقبال الهائل ؟ في الولايات المتحدة طولا وعرضاً ، وشرقاً وغربا — مئات المعاهد الطبية ، لا يلقى فيها الطلاب عنتاً ولا سبًّا ولا شتما ، ومع ذلك فإن أقصى ما يتمناه طالب أن ينال شهادة تحمل توقيع توبي ، فهو يؤمن بأن مثل هذه الشهادة ستفتح له أبواب النجاح والفلاح في جميع السهول والبطاح . . . ومن أجل تحقيق هذا الهدف الخطير يتقدم إلى هذا المعهد كل عام مئات الطلاب من جميع الولايات والجامعات[1] ، يرتد أكثرهم عنه صفر اليدين ، ويقبل منهم أقل من العشر . . وفي العام الذي نتحدث عنه كان فصل السنة الأولى يتألف من مائة وثلاثين طالباً ، ليس فيهم سوى عشر فتيات .

وأكبر الظن أن الطلاب كانوا يبغضون توبي ويرهبونه ، ولا يرون معنى لإمعانه في السخرية منهم ، والإسراف في تأنيبهم وتقريعهم لسبب أو لغير ما سبب. أما الأستاذ فلعله إن سئل عن سرّ قسوته — وهيهات أن يكون هنالك من يسأله — سيجيب بأنه لا يستطيع العلم أن يدخل رأس الطالب حتى يخرج منه الغرور ، وأن أول واجب المعلم أن يبذل كل جهده حتى يطمئن إلى أن رءوس طلابه قد خلت تماماً من الزهو والغرور . ومن الجائز أن هذه الحجة قد دارت بخلد الأستاذ فيما مضى من الأزمان . فكان يمارس رذالته هذه عن عمد واقتناع ، ولكن الأرجح أنه من طول الممارسة قد نسي تلك الحجة ، وبات يمارس خطته بحكم طول العهد والعادة ، دون تفكير في سبب أو مبرر .

ومن نكد الدنيا على الطلاب أن توبي الذي تجاوز الأربعين لم يتزوج ، فضاعت بذلك الفرصة الوحيدة التي كان ينتظر معها أن يتهذب طبعه ، فيصطنع مع طلابه المحبة والود ؛ فمن المعروف المشاهد الذي سجلته الدوائر الجامعية في مختلف الديار والأقطار أن الأستاذ الشرس لا يكاد يتزوج حتى تتغير أحواله ، فيقلم الزواج أظافر بطشه ، ويرقق من غلظ قلبه ، ويهذب من خشونة طبعه ، فيعود بعد أن مسته يد الزواج السحرية ناعم الملمس ، باسم الثغر ، رقيق الحاشية .

---

(١) في الولايات المتحدة يدخل الطالب كلية الطب ويقضي فيها أربع سنوات فقط بعد تخرجه من إحدى الكليات الأخرى ، وعلى الأخص كلية العلوم .

هذه الفرصة الجليلة لم تتح للجراح العظيم بعد ، ولذلك ظل على حاله فظّاً عُتُلاً غليظ القلب ، لايكاد يمارس التقريع والتأنيب لغرض ينشده ، بل لما يجده فى ذلك من متعة ولذة . . .

* * *

ننتقل الآن بالقارئ إلى مدرّج قد جلس فيه مائة وثلاثون من طلاب الطب فى سنتهم الأولى ، وقد امتدت الصفوف من اليمين إلى اليسار فى شكل نصف دائرة ، وكل صف يعلو الذى أمامه بشبرين أو ثلاثة لكى يستطيع الأستاذ أن يرى الوجوه جميعاً ، ويصب عليها جميعاً جام غضبه أو سخريته متى شاء وكيفما شاء .

اجتمع الفصل فى تمام الساعة الثانية فى آخر خميس من شهر أيلول ، ليستمع لأول درس فى التشريح فى العام الدراسى الأول . ومن عادة توبى أن يطلق على هذا الدرس الأول « ساعة التعارف » ، والحقيقة أن « التعارف » لا يشغل من الدرس سوى النصف الأخير ، أما الجزء الأول فيخصص للتأنيب والسخرية « بالجملة » على حين يخصص زمن « التعارف » للسخرية والتأنيب « بالقطاعى » .

ولم تكد الساعة تبدأ حتى كان « توبى » واقفاً يحدق فى الطلاب ، وعيناه شعلتان من اللهب الأزرق ، يسلطهما على جوانب الفصل من فوق إلى تحت ومن اليمين إلى الشمال ، ثم بدأ حديثه متلطفاً متظرفاً على النحو الذى يعرفه هو من التظرف والتلطف ، فقال :

« لئن كنتم أتيتم هنا لكى تدللوا وتنعموا لكان الأولى بكم أن تلتحقوا بأندية الظرفاء واللطفاء والسخفاء أمثالكم ، وإذا كنتم تنشدون إقامة حلوة عذبة وأياماً كلها رخاء وطراوة فأمامكم معاهد كثيرة تنيلكم بغيتكم . . هناك يعلمونكم كيف تكونون كالكلب المبلول لطفاً ووداعة ، وهناك يقدم إليكم الشاى ، وتنشد الأغانى ، وتقام الأفراح والليالى الملاح ! . وأولى بكم ألا تنتظروا شيئاً من هذا السخف ها هنا ، إن هذا مكان مكرس للعلم .

هنا نقوم ببحوثنا بدقة وأمانة ، فإذا كان أحدكم حماراً وأراد أن يحسبه الناس جواداً كريما — فليذهب إلى غير هذا المكان » .

ثم بدل من نغمته قليلا ، فقال : « إنى أرحب بكم يا أصدقائى المسيحيين الأعزاء » — ومن عاداته السمجة السخرية من المسيحية والمسيحيين — « أرحب بكم فى هذه الساعة : ساعة التعارف التى تمهد فيها لأربع سنوات من الصحبة الهنيئة الطيبة فى هذا المدرّج الصغير ، وفى البهو الفسيح المجاور الذى تجدون فيه من الجثث والأشلاء ما يشبع نهمكم لهذا العلم العظيم الذى يعدُّكم لاحتراف أشرف المهن ، وأقدمها فى تاريخ الإنسان .

« فإذا كان منكم من يريد أن يتخصص — وهذه نكتة لا بد لى أن أرددها فى مفتتح كل عام دراسى — فإنى أنصح له بالتخصص فى الأمراض الجلدية . . فإن المصابين بهذه الأمراض لا يبرءون أبداً ، ولا يموتون من مرضهم ، ولا يقلقلون منامكم باستدعائكم فى أثناء الليالى ! » .

وبعد أن سرد توبى هذه النكته خيل إليه أنه قد تبسط بما فيه الكفاية ، فعاد إلى نغمته المفضلة :

« إنكم سرعان ما تصنفون أنفسكم أصنافاً وطبقات تبعاً لما رزقتم من الفطنة والاجتهاد ، وهذا التصنيف يتم فى غضون السنة الأولى ، وإذا قسنا على الإحصائيات التى لدينا عن السنوات الماضية — فإن خمسة عشر فى المائة منكم سيثبتون أنهم من الغباء والبلادة بحيث لن يكون نصيبهم سوى الطرد من هذا المعهد قبل نهاية هذا العام . والتخلص من هذا الفريق بسرعة أمر تفرضه سمعة الكلية ، وفائدة الجمهور ، ومصلحة الطلاب جميعاً . هذا ما كان من أمر خمسة عشر فى المائة منكم . وهناك بعد ذلك خمسون فى المائة منكم سيبذلون جهوداً لها حظها من النجاح ، وسينالون شهادات ودبلومات ، هؤلاء لن يكونوا أطباء بارعين ، ولكنهم يستعيضون عن البراعة فى الطب بمقدرتهم على ملاطفة المريض ،

ويسترون بهذا اللطف ما يعوزهم من مهارة وفطنة . . . وكثيراً ما أمكن هؤلاء الذين يعالجون مرضاهم بالمودة والأسبيرين أن يكونوا أوفر رزقاً ، وأعظم جاهاً من زملائهم الذين يفوقونهم علماً وبراعة .

« هذان الفريقان يمثلان خمسة وستين فى المائة منكم . يليهما الفريق الثالث ، وهو يعادل خمسة وعشرين فى المائة من مجموعكم ، وسيثبت هذا الفريق أنه فوق متوسط الطلاب وفوق متوسط الأطباء . إنه فريق يبذل كل ما فى وسعه فى بحثه وفى مهنته وسينال كل التقدير الذى يؤهله له جده ومواهبه .

« يبقى بعد ذلك منكم عشرة فى المائة ، هم الصفوة الممتازة التى يحق لنا أن ننتظر منها أن تأتى بشىء عظيم ، وأن تبدى نبوغاً جدياً . . . ليس هذا مؤكداً ، ولكنه أمر يجوز أن يحدث . . .

« ولست أعرفكم اليوم أنتم أيها العشرة الممتازون ، بل لعلكم أنتم تجهلون أنفسكم . ومع ذلك فإنى أريد أن أقول لكم كلمة منذ الآن ، وهذه النصيحة ليست موجهة للطلاب جميعاً ، بل هى لهؤلاء العشرة فى المائة الممتازين :

« إنكم أيها الفريق المختار لن تلبثوا طويلا حتى تعرفوا قدركم ، وما بكم حاجة لأن تنتظروا إلى نهاية السنة لتعلموا مراتبكم . . . ومن الأخطاء الشائعة فى النصائح التى يدلى بها الأساتذة لطلابهم — حثهم على الجد والاجتهاد ، والزعم بأن العمل الدائب فيه ضمان أكيد لنجاح الطلاب . . . ومع التسليم بأن نصيب المجد أكبر من نصيب الكسول البليد — فإن العشرة فى المائة منكم الذين يمثلون الصفوة المختارة — لابد أن تكون لهم عدة خصال أخرى أكثر من مجرد الجد والاجتهاد ، والدأب والمثابرة .

« هنالك مثل مشهور يقول : إنك لن تصنع من أذن الخنزير كيساً من الحرير . وهذا القول ليس مجرد نكتة أو دعابة ، بل ينطوى على مأساة ، فإنى طالما شهدت أعمالا يؤديها بكل أمانة وإخلاص طلاب وطالبات ، ليس لديهم استعداد طبيعى لمثل تلك الأعمال ، ومن الجائز أن يكتب لهم الفوز فى ميدان آخر ، ولكنهم على كل حال لم يكن لهم هنا أقل أمل فى النجاح ، وليس هذا ذنبهم ، بل هذا سوء حظهم .

« أظنكم تتوقعون منى بعد ذلك أن أبادر بإطراء تلك الفئة التى تجمع بين الفطنة النادرة ، والجد والمثابرة ، فئة وُهب لها ذكاء فذّ ومقدرة على العمل المتصل .. لا شك أن هذه الفئة قد جمعت خصلتين لا بد منهما للنجاح ، ولكن الفريق الممتاز — العشرة فى المائة التى حدثتكم عنها — لا بد أن يتوافر له شىء آخر إلى جانب الذكاء والعمل ، هذا الشىء هو تكريس القوى كلها ، هو تركيز الجهود دون التفات إلى أى شىء آخر ، هو الانصراف التام إلى ممارسة العلم ولا شىء غير العلم ، بحيث لا يلهيهم عنه أى شاغل من شواغل الحياة كائناً ما كان .

« وفوق ذلك لا بد لهذا التفرغ ، وهذا الانصراف التام ، من أن يأتى بغير مجهود يبذله الطالب أو مشقة يكابدها فى مكافحة المغريات التى تصرفه عن الهدف ، بل يجب أن يكون هذا الانصراف التام أمراً محبباً إلى نفسه ، يستوعب منه كل تفكير وجهد وعاطفة .

هذا هو الشرط الأساسى لكل من يحق له أن يتبوأ مكانه فى هذه العشرة فى المائة . تلك هى الطائفة التى يحق لنا أن نتوقع منها أى شىء ، وإن كنا لا نعرف متى يتاح لنا أن نشهد بيننا بزوغ نجم جديد ، فلقد تمضى السنون الطوال فى هذا المعهد الطبى دون أن نقع على طالب واحد يحلّق فى سماء النبوغ . . . ثم يظهر لنا فجأة من بين تلك العشرة فى المائة بطل من أبطال العبقرية ، والنبوغ والابتكار . . . »

ثم سكت الأستاذ لحظة وهو يحدّق فى الوجوه المصفوفة بين يديه ، وألقى عليها فى العبارة التالية ما هزّ مشاعرهم :

« فياعجبا ! هل يشتمل هذا الفصل الآن على

شخص يستطيع أن يقول لنا يوماً ما كل ما تريد أن نعرفه عن السرطان ؟ وهل ينهض من بينكم يوماً ما من يبتكر للعالم وسيلة للوقاية من شلل الأطفال ؟ ولئن جاز لى أن أتكهن قليلا إن أكبر الظن أن هذين الرجلين اللذين سيحققان هذين الأمرين الجليلين قد ولدا ، وهما الآن يعيشان بين أظهرنا ، وقد يكون أحدهما أو كلاهما عالماً ضرب فى العلم بسهم وافر ، وهو اليوم مشرف على ابتكاره العظيم ، أو قد يكون طالباً فى بعض كليات الطب . . . . » . ثم تريث قليلا وأضاف بصوت خافت : « إن هذين الرجلين قد يكونان فى هذه الحجرة . . . الآن » .

وبعد أن ألقى هذه العبارة فى لهجة جدٍّ وصرامة — عاد إلى تهكمه وتندُّره وسخريته فقال :

« وجدير بكم جميعاً — سواء أفى أعلى المراتب كان مكانكم أم فى أسفلها — أن تدركوا أن دراسة الطب والجراحة يجب أن تمارس بالصورة التى تمارس بها دراسة الجيولوجيا نفسها بحيث لا يكون هنالك أى مجال للعاطفة . حكِّموا أذهانكم . ودعوا العواطف جانباً . إنى كثيراً ما هممت بأن أقترح على زملائى فى هذا المعهد أن يلزموا كل طالب أن يقضى سنة للتمرين فى مستشفيات الحيوان ، حتى يستطيع الطبيب أو الجراح الشاب أن يمارس مهنته فترة من الزمن بعيداً عن تلك المؤثرات العاطفية التى تعترضه من أفراد أسرة المريض .

«إن موقفكم هنا هو موقف المنقب الباحث عن الحقائق الدقيقة للجسم البشرى . . . ليس الذى يعنينا هنا أن نعجب بذلك الجسم وأن ننادى مع شكسبير : « ما أبدع صنع الإنسان ! ما أعجب عقله وفكره ! وما أحسن شكله وتكوينه ! » . إن هذه العبارات وأمثالها لها مكانها فى المسارح والكنائس ؛ فلندعها للشعراء والكهنة ؛ فهذا شأنهم ، لا شأنكم ؛ أما أنتم يا أصدقائى المسيحين فإنكم يجب أن تنصرفوا إلى دراسة الإنسان بوصفه آلة سيئة التركيب ، تفتقر دائماً إلى الترميم والإصلاح . . . وإنى لأعجب أحياناً : هل أصاب الإنسان أو أخطأ حينما تراءى له فى أثناء تطوره الجسدى أن يمشى على رجليه ، ويواجه العالم واقفاً معتدلا ، بدل أن يظل يسعى على أربع أرجل ؟ . هذه مسألة لا أظن أن المقام يتسع لدراستها من جميع وجوهها ؛ وأنا نفسى لست ساخطاً على حالى ، لأننى لست أمشى على أربع ، ولكن هذا الحيوان العجيب قد تعرض لطائفة من المنغصات حينما حول أحشاءه عن الوضع الأفقى إلى الوضع الرأسى . وهذه الارتباكات لا تلبث أن تظهر حين يبدأ يتعلم كيف يمشى على رجليه !

« وخليق بكم أن تذكروا أن ما يقوله رجال الدين المسيحى من أن متاعب آدم بدأت بهبوطه من السماء لا يطابق الواقع ، بل ترجع متاعبه إلى ارتقائه من مرتبة الدواب إلى مرتبة البشر ؛ إن الكلب لشدة حبه للملاطفة قد يقف على رجليه من آن لآخر ، يتملق بذلك صاحبه بتقليده ومحاكاته ، ولكن الكلب أعقل من أن يسرف فى هذا العمل أو يطيل الوقوف على رجليه ! . . .

« وهكذا ترون أن موقفكم فى الحياة لا يخلو من التناقض : فإن إعدادكم لحرفتكم ذلك الإعداد الطويل يراد به أن تصبحوا أهلا لأن تعينوا على ترقية الحضارة والمدنية ، ومع ذلك فإننا كلما ضربنا فى الحضارة بسهم ازدادت الأجسام عللا وأسقاماً . لست أريد أن أنكر ما حبتنا إياه الحضارة من المنافع الكثيرة ، ولكنها فى الوقت نفسه قد أكسبتنا عادات لها الفضل فيما نعانيه من تلف الأسنان وضعف الأبصار ، ونقص فى حاستى السمع والشم ، والتهاب فى الشعب والرئتين !

« ولا بد أن أعيد لكم ما قلته من قبل من أنه يجب عليكم أن تدرسوا الإنسان بوصفه آلة بلغت من ضعف التكوين أنها لا تستطيع أن تحمل نفسها مدة طويلة ؛ والدليل على ذلك أنكم جميعاً جالسون على هذه المقاعد ؛ لكى تتخلصوا من عبء أجسامكم وأنتم بعد فى الثالثة والعشرين من العمر ، ومتى بلغتم الثالثة والستين فهيهات

أن يتركَكم أقاربكم تقفون لحظة على أرجلكم ! . . .

« إنى أرجو لكم عمراً مديداً تبلغون فيه منزلة طيبة من الحكمة والمكانة والشهرة ، ولكنكم ستكونون فى الوقت نفسه قد نزعتم اللوزتين والمصران الأعور ، واستؤصلت منكم إحدى الكليتين ، وتكونون أيضاً قد اتخذتم أسناناً صناعية ومنظاراً وأداة تساعدكم فى الاستماع . . . إنى أريد منكم أن تذهبوا إلى معمل التشريح ، وأنتم مدركون تمام الإدراك أن كثيراً من الأشياء التى تجدونها هناك ليست كما كان ينبغى لها أن تكون . . فإن جميع الأعضاء الرئيسة كان يراد بها أن تؤدى وظيفتها وهى فى وضع آخر . . .

« وفى النهاية لا بد لى أن أطلب منكم أن تنسوا تلك الثرثرة التى تزعم أن الإنسان خلق على صورة الإله . وجدير بمن يؤمن بمثل هذه الأمور أن يبتعد عن معمل التشريح .

« هذا المعمل المجاور لهذا المدرج ، والذى سأدعوكم لزيارته بعد قليل — هو مكان للبحث عن الحقائق ، سواء أأعجبتكم هذه الحقائق أم لم تعجبكم ، وسواء رضيتم بها أم كرهتم .

« والآن دعونى أناد أسماءكم ، ومن سمع اسمه فليقف ؛ حتى أعرفه . . . وتتعارفوا . . . »

* * *

وليست مناداة الأسماء ووقوف الطالب أو الطالبة هو كل ما يجرى فى هذا الجزء الخطير من ساعة التعارف ، بل يختار الأستاذ عدداً من الطلاب يمطر عليهم عبارات السخرية والتحقير إذا آنس فى إجابتهم ما يشير ولو عن غير قصد إلى نوع من التحدى أو الغرور ، فلا يزال بهم تقريعاً وتهزيئاً حتى يتضاءل حجم كل منهم إلى نصف ما كان عليه ! . . .

وبذلك تنتهى ساعة التعارف ، ويتنفس الجميع الصعداء ، ويستقبلون العمل الدائب المتصل فى عامهم الدراسى الأول ، وكل منهم يتساءل : هل يكون نصيبه الطرد بوصفه واحداً من الخمسة عشر فى المائة ، أو نصيبه أن يعمل مع « توبى » أربع سنين كاملة بكل ما فيها من عناء وتأنيب ، وجدٍّ وتفوّق لا شك فيه فى علم التشريح ؟ . . .

م ٠ ع ٠ م



نقد الكتب

بين القصرين

للأستاذ نجيب محفوظ — ٤٤٤ صفحة من القطع الوسط
دار مصر للطباعة — ١٩٥٧

بقلم الدكتورة سهير القلماوى

منذ أخذت النهضة الأدبية المصرية تتبلور معالمها، والنثر أطوع للتطور فى أيدى الكتاب والمؤلفين المصريين من الشعر، وعملت عوامل، وجدّت أسباب للسير بالنثر قدماً فى سبيل الحياة والقوة لم يظفر الشعر إلا بأقلها فكان أن طغى التأليف النثرى فى الأيام الأخيرة حتى كاد يصبح المجال الوحيد للتعبير عن حياتنا تعبيراً صادقاً. وأصبح الفن القصصى لأسباب وعوامل لسنا بصدد تفصيلها الفنَّ النثرى المفضل لدى كتابنا، فانتعشت القصة القصيرة والرواية والمسرحية انتعاشاً ملحوظاً، وأخذ الميدان يبشر بأدب جديد قوى معبر فعلا عن الروح المصرى والبيئة المصرية الصميمة بكل مقوماتها.

وكان طبيعياً أن يتجه التأليف القصصى إلى منابعه العادية؛ منابع التاريخ من ناحيتيه الفرعونية والعربية ومنابع الواقع سواء أكان الواقع ريفاً أم مدناً. وكلف أكثر كتابنا القصصيين بتصوير البيئات التى كانت محرومة من التأليف الأدبى عنها طويلا، نتيجة استئثار الشعراء والخطباء، لظروف كثيرة معروفة، بالتعبير عن طبقة معينة ليست أرستقراطية فى الواقع ولكنها مثقفة، لها من ثقافتها ما يمكنها من التجاوب مع الآراء والأفكار التى تليق أن تصور شعراً وخطابة أكثر مما تليق بأن تصور بقصة أو رواية طويلة بالذات.

واتجه الشباب من كتاب القصة منذ ربع قرن أو أزيد نحو الريف أولا يستلهمونه، ثم نحو طبقات بعينها من سكان المدن، حافظت على مصريتها رغم العوامل الكثيرة التى اختلطت بحياة المصريين، فأخذت حياتهم تغلى كالمرجل بمعالم هذا الجديد وهى ما زالت تفور. وليس من السهل على القاص أن يصور بيئة معالمها تفور بالتغيير بقدر ما هو سهل عليه أن يصور البيئة المحافظة التى تتلقى التغيير فى رفق ومن بعيد جداً ولا تكاد تتأثر به إلا فى الملمات الجسام.

من هذه البيئات بيئة المدن فى الأحياء البلدية عند الأسر المحافظة — على اختلاف درجات المحافظة — التى تكاد يعيش أفرادها جيلها حياة لا تهتز بعنف لهذه التيارات المختلفة، تلك التيارات التى تتعرض لها الأحياء الأخرى الناعمة بشئ من ثراء وثقافة يمكنانها من التجربة الجديدة.

• • •

إلى هذه البيئة بالذات اتجه تأليف الأستاذ نجيب محفوظ فى رواياته المعروفة. ولقد كان الأستاذ محفوظ أول عهده بالتأليف لا يكاد يحدد فى وضوح اتجاهه الأدبى المكين، شأنه فى ذلك شأن مؤلفى الروايات فى الآداب كلها. فلما استبان اتجاهه واضحاً تعلق به تعلقاً محموداً، وأخذ يجوّد الفن فيه بدأب محمود حتى وصل فى رواياته الأخيرة إلى درجة واضحة من السمو الفنى؛ ليس من شأننا تحديد مداها بقدر ما هو من شأننا أن نحدد صفاتها ومميزاتها.

لقد ألّف الأستاذ محفوظ قصته «كفاح طيبة» مثلا و «رادوبيس» ثم «همس الجنون» وهى أقاصيص كلها فى الواقع تحمل آثار براعته الفنية، ولكنه عند ما أخذ

يؤلف فى نفس الوقت وبعده رواياته عن أحياء القاهرة: خان الخليلى وزقاق المدق وبين القصرين أصبح اختصاصه الفنى واضحاً، حتى فى قصصه «السراب» و «عبث الأقدار» و «بداية ونهاية» نراه يخضع الفكرة لصورة الحىّ أو البيت أو الأسرة .

* * *

و «بين القصرين» آخر رواياته واضحة الطابع الفنى وضوحاً أبرز منه فى أى من قصصه الأخرى عن الأحياء؛ ذلك أنه استطاع أن يمزج فيها بين صورة الأسرة وبين صورة الحىّ نفسه مزجاً فنيًّا أوضح منه وإن يكن ليس بأجل؛ ولا شك من مزجه الصورتين فى قصة زقاق المدق مثلا .. لقد وضحت هنا الأسرة؛ أسرة أحمد عبد الجواد، واتضحت حياة أفرادها معكوسة على البيئة من حولها وتوارى الجيران والمعارف توارياً أوضح ، وإن يكن ليس بأجل ؛ فى سبيل أن تبرز الأسرة بروزاً واضحاً متركزاً دالاًّ دلالة أعمق على انعكاس الحياة من حولها فى نفوس أصحابها . إن السيد أحمد عبد الجواد نواة واضحة وقطب رحى محدد تدور من حوله وحول أسرته أحداث الشارع ، شارع بين القصرين. ولذلك نراه يعد القارئ لإكمال حياة هذه الأسرة — إذ تأكلت معالم الأسرة فى القصة كلها وطغت على معالم الحىّ — فى رواية قادمة هى « قصر الشوق » .

والأستاذ نجيب محفوظ بارع كل البراعة فى تصوير حياة الجماعة، بارع فى تصوير البيئات — الشارع والبيت — ليصور بها الحياة كما تدور من خلل عدة شخصيات حتى لتتوارى شخصياته كثيراً أمام أهمية الحادث، وإذا الحادث فى حد نفسه هو الذى تدور حوله الصور حتى يظهر ويتضح ويكسب طاقاته ليدفع بها الحياة . فمن الصعب مثلا فى قصة « زقاق المدق » أن تقول إن البطلة هى حميدة لأن البطل هو الزقاق نفسه ، وكذلك فى « بين القصرين » ليس البطل أحمد عبد الجواد وإن دارت الحوادث من حوله، بل ليس البطل الشارع نفسه ، فلقد بهت الشارع هنا كما أسلفت ، وإنما البطل هو الأسرة وحياة الأسرة وإن اتخذت عبد الجواد لها قطباً تدور من حوله .

لذلك نرى فى رسم الشخصيات أن القارئ لا يكاد يتنبه له أو يريد أن يعرفه إلا من خلال الحوادث . والحادث نفسه هو الذى يوجد فى القارئ الميل ليرى صداه فى نفوس أفراد الأسرة . هذا والحادث فى حد ذاته ليس هاماً وإنما سلسلة الأحداث: تافهها خاصة وجليلها أيضاً هو الهام. ذلك أنه يصور الحياة؛ والحياة مجموعة أحداث تافهة وغير تافهة، وهامة وغير هامة .

ولما كانت المرأة عنصراً هاماً فى حياة الأسرة فلقد زخرت الرواية بنماذج منها. ليس فى الرواية عائشة أو خديجة أو أمينة أو مريم أو حتى جليلة أو زبيدة، وإنما فى الرواية زوج تاجر ثرى فى فجر هذا القرن وعالمة وشابة ، وهكذا كل شخصية نسائية تمثل نموذجاً لا يعنينا فى حد نفسه بقدر ما يعنينا فى حدود أنه يمثل طاقة من الطاقات المحركة للحياة كما كانت منذ أربعين عاماً أو نحو ذلك .

أما جو البيت مثلا، وجو دكان التاجر الميسور، وجو مجالس الحظ والأنس عند العالمة ؛ فكل هذه لوحات فنية تدور من خلف الأحداث كالمناظر المسرحية، لتضفى على الحياة ألواناً ومعانى . لذلك نرى براعة القاص تتجلى فى الانتقال من هذه البيئات جميعاً فى ترتيب ليس مقصوداً من المؤلف ، ولكنه من الناحية الفنية يبدو مهندساً أيما هندسة. البيت ثم الدكان ثم مدرسة الصبى « كمال » ثم البيت مرة أخرى، وهكذا نعدو خلف المؤلف وراء مظاهر الحياة المختلفة من بيئة لأخرى فى يسر ولين وخفة لنظفر آخر الأمر بكل الوحدات المكونة للحياة فى هذه البيئة الكبرى ؛ بيئة الحىّ البلدى ؛ حىّ سيدنا الحسين وشارع بين القصرين على الأخص .

وليس من الإنصاف أن نجادل المؤلف فى شخصياته طبيعية أو غير طبيعية، فالخلاف فى أمر الشخصية الفنية يطول، ولكن من العدل أن نؤكد أن هدف تصوير الحياة

لاالأفراد طغى، وكان يجب أن يطغى، على تصوير الشخصية لا ليغمطها حقها ولكن ليخضعها إلى الهدف الأول وهو الحياة نفسها . فمهما وجدنا من تناقض فى نفسية أحمد عبد الجواد من الناحية الفنية فإننا لا شك واجدون لأحمد عبد الجواد نظائر حية ممن نعرف أو نسمع عنهم، نظائر حية على تناقضها . والتناقض بعد صفة واقعية فى أكثرنا ، وإن حلا لنا ألا نعترف بذلك. ولكن التناقض فى شخصية أحمد عبد الجواد لا يعيره المؤلف التفاتاً ولا يكاد يتحدث عنه إلا فى مجال واحد كلما تكرر هذا المجال ليحقق الغرض من تصوير الحياة وهى تسير . وذلك عند ما تصطدم هذه الشخصية كما اصطدمت مراراً بموقف لا بد لها من التصرف فيه أو الجزم برأى معين ثم تسير .

وأول مايصادفنا ذلك عندما يسأله الشيخ عبد الصمد ، وقد أتى لينشر بركاته فى الدكان ، ويأخذ أجره ، عن الإيمان بالعمل أو باللسان وحده ، ملمحاً إلى سيرة عبد الجواد الشخصية المطوية عن أهل منزله أو عند ما تأتى إليه الخاطبة موفدة من ست نفوسة ، أو عند ما تأتى إليه حرم السيد محمد رضوان المشلول ، أو عند ما يتعلق بحب زبيدة بعد جليلة. كل هذه المواقف على تباعدها وتفرقها واحدة وهى التى تضطر المؤلف إلى وقفة يحاول فيها أن يبرر رأى السيد أو تصرفه أو يرسمه له ولكنه لا يطيل ، وقد يتناقض ؛ ولكن ما حيلته والحياة نفسها لا تتمهل ، السيد ليطيل الوقوف أو يستقيم له التفكير . لأن سير الحياة أقوى من الشخصية الفنية ، ولقوة السيد إذن التحكم فى شخصية عبد الجواد الفنية . كذلك لما جاءت المواقف السياسية فى الثلث الأخير من الرواية نراه مثلا يقول ، وهو غير مقتنع ، وإن نفّذ ما يقول بدافع من قوة الحياة : « إن سعداً ثار لإسعاد المصريين لا لتعذيبهم » (ص ٣١٢) ، ثم يقبل على الشراب كعادته مع صحبه فى نفس المجلس الذى كان منصوباً للتألم من نبأ نفى سعد . إن الحياة مرة أخرى فى شخص عبد الجواد أقوى من المنطق وأقوى من الانسجام والتوافق الفنى فى رسم الشخصيات .

كذلك كان فى بيته يتجلى الترمُّت الصارم المبالغ فيه أقوى من قلبه الحنون، ولما كانت تتغلب عليه عوامل الشفقة أو الأبوة مثلما فعل يوم مرضت زوجه أمينة من حادث زيارة الحسين أو يوم اقترف ابنه «يسن» جريرته مستهيناً بسلطانه نراه يضعف ، ثم يتصرف حسب ضعفه حيناً قصيراً ليعود إلى الصرامة من جديد، لأن جو الأسرة كان صارماً فى الحياة فى هذه الفترة ، وعبد الجواد يجب أن يمثل الصرامة التى طبعت حياة الأسر المحافظة ، ولا شىء بعد ذلك يعنينا منه إلا إذا طلبنا منه دوراً آخر .

* * *

وأكثر ما كان يقف عنده غير الروائى الماهر فى حياة الأسرة مشكلات معقدة استطاع المؤلف لاتضاح فنه أن يجنبنا الخطابة المنطقية والدراسة الاجتماعية ؛ تلك الخطابة والدراسة التى تفسد كثيراً من الفن الروائى. فهو مثلا يتعرض لمسألة الطلاق « يسن» ربى وأمه مطلقة فى بيت زوج أبيه ؛ وإبراز المشكلة لو أنه انحرف إلى تصويرها يتطلب وصف ألم ثم وصف شراسة زوج أب ، وهذا ما كانت الحياة تتطلب نقيضه فى هذه البيئة فزوج الأب أمام الصرامة يجب أن تكون سلبية هادئة شبه بلهاء فلا ضير إذن من أن تحنو على ابن المطلقة ولا تسأل أبداً عن المطلقة بل تفضلها حناناً بمراحل . ويطلق يسن زوجه فى ظروف أخرى فلا يثير ذلك فى ناحية التأمل من المؤلف أكثر من وقفة عند يسن يقارن فيها بين ابنه جنيناً وما ينتظره ، وبينه هو وقد ربى بعيداً عن أمه ، ثم تطفى صورة أمه على فكره بما تثير فى نفسه من عواطف متباينة : سخط وتقزز وثورة ثم إشفاق، ثم للطبيعة الحيوية أيضاً انتظار ميراث .

كذلك مشكلة اختيار الزوج بأمر الأب لا تثير فى نفس عائشة شيئاً. إنها كنساء هذا العصر سلبية قد

طبعت مثل أمها على سلبية شاملة كما يقول المؤلف ، ونجدها تشعر قليلا بعواطف متباينة عند ما وافق الأب على زواجها بزوج آخر غير الذى تحته من خصاص النافذة يتألق بالنجوم وبيذلة « البوليس » . إن « لا » من والدها كما يقول المؤلف « حركة كونية كاختلاف الليل والنهار غير مجد أى اعتراض عليها » ص (٢١١) أو عند ما يصف شعورها إزاء الرجل بأنه مجرد قابلية للزواج .

* * *

ولكن عند ما يأتى المؤلف ليصور خديجة وهى الأخت الكبرى القبيحة للأخت الصغرى المليحة فتواجه أزمة نفسية عندما تتزوج أختها قبلها ، قد عانتها مراراً كلما جاء أختها خاطب ولم يجئها هى ، نرى المؤلف لا يقف ليحلل لنا هذه الشخصية ، بل إنه لا يستطيع شيئاً حيالها ، ويخطئ أحياناً فى محاولة رسمها بسرعة فى لمحات خاطفة ؛ ذلك أن الغيرة هنا حركة وحياة ، ولكنها ليست حياة الأسرة كلها ، فوق أن شعور المرأة فى مثل هذه الظروف ليس يسيراً على مؤلف مصري أن يتصدى لتصويره ، والمرأة المصرية ما زالت بعد شيئاً سلبياً فى أكثر الأسر لا تكاد تبوح بعواطفها كثيراً حتى لأخيها .

أما شخصية كمال الصبى الذى تتدفق فيه الحياة وهو ينمو متطلعاً إلى مظاهرها الجديدة يريد لها فى نفسه الصغيرة دائماً تفسيراً. فإننا نراه يتقن تصويره بلا وتوش ولا سرعة ، وإنما فى وقفات وأحداث وحركات وتصرفات ؛ حتى ليبدو أن الصبى هو المؤلف نفسه ، وقد بدت له الحياة مغرية من حوله ، فكان خير مرآة لانعكاسها . حتى موقف الصبى مع « جوليون » الجندى الإنجليزى وكلامه معه وشعوره نحوه وحركاته وقصصه وغناؤه — كل هذا كان يتدفق فى طبيعية عجيبة ، وليس عبثاً أن تقف القصة فجأة بعد موت « فهمى » ، الذى كان نذيراً بتغير شامل فى الحياة المصرية إزاء الأحداث بل الحدث الأكبر وهو ثورة مصر سنة ١٩١٩ ، ليس عبثاً أن تقف على صوت « كمال » يردد غناءا والأب المفجوع يدخل البيت حائراً ساهماً لا يدرى كيف يبلغ النبأ الحزين لأم مكلومة لم يكن يرى أنها شيئاً إلا اليوم .

لقد استشهد « فهمى » فى مظاهرات الابتهاج بنبأ الإفراج عن سعد ، وحديث السياسة الذى يبدأ أوائل الثلث الأخير من القصة يستأثر بتحريك حياة الأسرة بالأحداث ، لم يعد الأمر مجرد ذكرى لثورة عرابى أو مجرد دعاء بعودة عباس أو تذمر من احتكار الاستراليين للأزبكية ومباهجها ، أو غلاء معيشة ، وإنما الأمر جنود يعسكرون قرب الدار وعلاقات مختلفة بينهم وبين « يس وكمال » بل مريم أيضاً ، ثم قبضة الصحوة السياسة بتلابيب حياة الأسرة لتتصدى هى لتدير دفة الحركة الجديدة معلنة ذلك بموت « فهمى » . كل هذا يجعلنا نتطلع إلى صنف من الحياة آخر وعدنا به المؤلف ونحن منتظرون .

والرواية بعد مفعمة من ناحية الأسلوب بلفتات شعرية ؛ كوقفة أمينة الحبيسة تطل على العالم من سطح بيتها ، وتشبيهات عجيبة . منها ما يتسم أحياناً بما يدل على أن المؤلف كان ينتزعها من صميم إحساسه : فمثلا فى صفحات ٢٠٩ و ٢١٢ و ٢٣٠ نراه ينتزع تشبيهات مبتكرة من عالم المرض فيشبه بالمغص الشديد والأنفلونزا والضرس المسوسة . وكأنما عالم المرض كان ماثلا أمامه وهو يكتب هذه الصفحات المتتالية . ولكن يجب أن نسجل إلى جانب هذا كله اللمحات القوية المختصرة اللفظ الدالة أقوى دلالة ، والاقتصار عليها هى دون إطالة . ثم أخيراً وليس آخراً لغة المؤلف وما قد برأت منه من إسفاف أو عامية مبتذلة . إنها لغة سهلة لغة أحاديثنا وقد تخففت من تقعر اللغويين وغثاثة العوام فكانت تلك اللغة التى هى أقوى مميزاته برهاناً قوياً على أن رسم اللون المحلى فى القصص فن عسير جداً . وليس مجرد ألفاظ عامية وأسماء بلدية .

سهير القلماوى

مصادر الدراسة الأدبية

تأليف الأستاذ يوسف أسعد داغر – الجزء الثانى : الفكر العربى الحديث فى سير أعلامه . القسم الأول : الراحلون (١٨٠٠ – ١٩٥٥) – ٨٦٢ صفحة – قطع كبير – بيروت سنة ١٩٥٦ .

بقلم الأستاذ محمد عبد الغنى حسن

هذا كتاب احتشد له من الجهد الموصول ، والتنقير على المراجع والمصادر ، والكتب والمجلات والأبحاث ما لم يحتشد لكتاب عربى من كتب التوثيق والمراجعة . فهو ليس عمل ليال عوابر ، ولكنه عمل ليلات وأيام موصولاتالسهر بالقيامما بين تدوين وتسجيل ، وإحصاء وتسطير ، وتيقظ لما يظهر من النتاج الفكرى فى العالم العربى ، حتى يضاف كل عمل إلى صاحبه ، ويضم كل نتاج إلى غارسه ، وحتى يكون البحث أوفى على الغاية ، وأدنى إلى الصحة ، وأقرب إلى الكمال . . .

ولكن هيهات أن يكون الكمال إلا لله الواحد المتفرد ! فنحن بعد فترة من القول ، ستتتبع المآخذ لا متصيدين لها ، ولا راصدين ، ولا قاصدين إلى تشهير فى مقام تحمد فيه السترة ، وتُغفر فيه الزلة ، وخاصة إذا كانت نتيجة لمثل هذا الجهد الذى تنوء به العصبة أولو القوة ، فقام به الأستاذ الباحث الدءوب يوسف أسعد داغر وحده ، حريصاً على ألا تفوته فائتة ، أو تندّ عنه حقيقة أدبية ، أو ظاهرة فكرية . . .

والحق أن الأستاذ الجليل يوسف داغر قد أتعب نفسه ليريح آلاف القراء من العرب ، ومئات الباحثين منهم ، ممن يديمون التنقير فى المراجع ، فلا يخرجون من الترجمة لرجل من رجال الفكر العربى فى أوسع معانيه ، إلا بعد أن تدور الرءوس بين صفحات الكتب والمجلات بحثاً عن مظنة البحث ، أو موضع للدرس ، أو تفتيشاً عن خبر ذكره ذاكر ، أو رواه قائل ، أو بحثه باحث للمترجم لهم . وكثيراً ما تضيع الليالى فى البحث عن مبحث كتبه كاتب أو قصيدة نظمها شاعر فى مفكر عربى ، وقد يعود المرء بعد طول التنقير فلا يصادف مطلبه ، ولا يعثر على طلبه .

وكل باحث يعرف ذلك تمام المعرفة ، كما لا يعرف الشوق إلا من يكابده ، ولا الصبابة لا من يعانيها !

وقد أراحنا الله – نحن الباحثين عن مصادر الدراسة الأدبية – من ذلك العناء الموصول حين يسر للأستاذ داغر أن يخرج بهذا الجزء الضخم من ذلك المعجم الأدبى الفكرى الذى يؤرخ الفكر العربى الحديث منذ سنة ١٨٠٠ إلى سنة ١٩٥٥ . ولم يترجم المؤلف للأحياء[1] من أهل جيلنا هذا – بارك الله فى أعمارهم – على رجاء أن يمضى فى قسم ثان من الكتاب فى ترجمتهم ، وهو ماض فى ذلك على مألوف سعيه ، يستكتب الأعلام والمشهورين من رجال الفكر العربى فى كل أرض عربية ما يستكمل به الترجمة لهم ، والتدوين لمؤلفاتهم وآثارهم ، والتعريف بهم من ألسنتهم ، فوق ما تعرفهم به أعمالهم .

والترجمة للأحياء المعاصرين مسألة شائكة دقيقة ، لا تخلو من حرج . وأقل ما فيها من الحرج أنها قد لا يؤمن معها التحيز للمترجم له ، أو التعصب عليه . وكلاهما ممقوت ، لأنه يحجب وجه الحق بستار يجب أن ينزه العلم الحقيق عنه ، ويبرأ منه كما فطن لذلك المؤرخ السخاوى فىكتابه « الإعلان بالتوبيخ » .

وأغلب الظن أن الأستاذ داغر لن يميل به الميزان مع الأحياء ، كما لم يمل به مع الموتى الخالدين ، فقد كان وكْد المؤلف أن يتسم كتابه بالاعتدال فى الرأى ، والنصفة فى الحكم ، والبعد عن الهوى والعصبية فى عرض الوقائع . وإن كان – فى الحق – قد تأثر ببعض عوامل جعلته يسرف فى الصفحات على بعض المترجم لهم ، ويضيّق على أعلام شوامخ لا يلحق السابقون بغبارهم . . . وإلا فقد كان رشيد أيوب الشاعر المهجرى لا يقل مجالا فى اتساع القول عن جبران خليل جبران .

---

(١) عد المؤلف السيد حسن القاياتى (ص ٨٥٢) من الراحلين ؛ بارك الله فى حياته ومد فى عمره . . .

كما كان الشاعر المصرى الشيخ أحمد الزين خليقاً بأن يطال فيه نفَس القول ، وأن يشار إلى كثير من مقالات المجلات العربية فيه ، وأن يذكر ديوانه الذى أخرجته لجنة التأليف والترجمة والنشر بتحقيق الأستاذ عبد المغنى المنشاوى .

ولا أدرى إن كان هذا الإسراف والبخل فى ذكر المصادر عملاً توفَّر فيه القصد ، أم اتسم بحسن النية ، وأدركه السهو . ففى الترجمة للشاعر أحمد شوقى يذكر المؤلف مقالات الكتاب فى بعض المجلات مقالا مقالا منسوباً لصاحبه ، وفى بعض آخر من المجلات يكتفى بذكر المجلة وتاريخها (انظر ص ٥٠٩) .

ألم أقل لك إن المؤلف قد تحرى العدالة والنصفة دائماً ، كما أخذ نفسه فى مقدمة الكتاب ؟ فقد صادفته مشكلة ترتيب هذه المادة الواسعة من التراجم . أيرتبها وفق شهرتها ، وهو مقياس لا يخلو من الجور غالبا ؟ أم يرتبها وفق أقطارها العربية — وهو محتاج هنا إلى مائدة مستديرة حتى يكونوا جميعاً كأبناء الخنساء مثل الحلقة لا يعلم أين طرفاها — ؟ أم يرتبهم وفق التعاقب الزمنى لوفياتهم ؟ وأخيراً حل المشكلة بالترتيب المعجمى الهجائى حسب حروفهم . ولكنه أوقعنا بهذا العمل فى مشكلة أخرى . فقد راعى فى الأسماء الشهرة أو أسماء الآباء والأجداد بدلا من أسماء المترجم لهم أنفسهم . فتأتى ترجمة الدكتور حبيب ثابت فى حرف الثاء بدلا من الحاء ، وترجمة عبد العزيز جاويش فى الجيم بدلا من العين ، وترجمة قاسم أمين فى الهمزة بدلا من القاف وهكذا . . .

وهذه العدالة فى ترتيب الأسماء قد ساقتنا إلى مُضطَرَب لا بأس أن نتحمله بعد أن تكون النفس قد ألفته !

ولكن هذه العدالة أين كانت حين أجاز الأستاذ داغر لنفسه أن يغفل الترجمة لمائة مفكر عربى كان قد أعد جزازاتهم ، ولكن تضخم الكتاب قد حال دون ذلك الغرض ، فاكتفى بالترجمة لمائتين وستة فقط . ؟ ومتى كان الخوف من ضخامة الكتب حائلا دون بلوغ الأهداف العلمية ، وتوفية البحث حقه ؟ وما ذنب هؤلاء الأعلام المائة حين أسقطهم المؤلف من حسابه ، وضنّ عليهم بأن يظهروا بين دفتى كتاب واحد مع من لا يقلون عنهم جهداً ، أو يقصرون عنهم مدى ، بل قد يطاولونهم ؟

وفى أىّ كتاب أم بأية سنة يترك عثمان جلال ، وعلى مبارك ، وعبد الله فكرى ، ومحمود صفوت الساعاتى ، والدكتور محمد شرف ، وأحمد ضيف ، والشيخ حمزة فتح الله ، والأثرى أحمد كمال ، ومحمد فريد وجدى ، وأمثالهم من أهل العلم واللغة والأدب والشعر والتاريخ ويذكر غيرهم ! ؟

وأغلب الظن أن « حنا أبو صعب » والخورى عيسى أسعد ، ويوسف حبيب باخوس ، والدكتور اسكندر البارودى ، وأسطفان البشعلانى ، وصالح التميمى ، وأحمد رضا ، وصلاح لبكى ، وأحمد البربير وغيرهم ممن ترجم لهم المؤلف لم يكونوا ليضيقوا بالترجمة لهؤلاء المغفَلين المهملين إلى جانبهم ؟ !

وما كان الأستاذ ليعدم محلاً لما ظنه إشكالا ، أو توهمه محالا . . . فقد كان من الممكن أن يصدر هذا الجزء فى قسمين وفاء بأمانة البحث ، وقضاء لحق هؤلاء الأعلام . . .

لقد حدثتك عن « العدالة » التى جهد الأستاذ الجليل يوسف أسعد داغر أن يتحراها فى شعاب بحثه ، ولكنها مطلب وَعر ، وليس يُعفيه من المطالبة بها أنه أعلن فى مقدمة كتابه « بُعدَه عن الهوى والعصبية » فقد لاحظنا فى مصادره ومراجعه لداود بركات (ص ١٧٩) أنه ذكر قصيدة فى رثائه نشرت فى مجلة « الكلمة » الحلبية ، ولكن ، هل استوفى مراثى على الجارم وعلى محمود طه وأحمد الزين فى مجلتى الرسالة والثقافة ؟

أخشى أن أبرئ الأستاذ الجليل من تهمة التعصب والهوى ، فيقع من حيث لا أريد — ولا يريد هو طبعاً — فى مظنة السهو والنسيان ، أو ما شئت أن تسميه ، فى كتاب مفروض فيه التيقظ والتنبه لكل أثر ، فهو ليس كتاب عبارة ، وإنما هو سجل أعمال ، وخريطة آثار . وهما تهمتان أحلاهما مر ، كما يقول شاعرنا العربى .

ولكن هل يسلم مثل ذلك العمل الجليل ، والجهد

العظيم ، من أن يقع فيه ما كان المؤلف حريصاً كل كل الحرص على ألاّ يتسرب إليه ، أو يندس فيه ؟ الحق أننا نعذر الرجل حين لا تسعفه الفرص أو لا تواتيه الظروف بما كان يود لو برئ كتابه العظيم من معابته . وقد أدرك المؤلف نفسه هذا النقص واستدرك عليه فى المقدمة بكلمة فيها تواضع العلماء وحياؤهم . ولكن ذلك كله لن يعفيه من اللوم على أن يخرج مثل هذا العمل العلمى على غير الدقة والإتقان الذى كنا نرجوه له ، وننتظره منه .

وأين هذه الأربعة والعشرون تصويباً التى تداركها المؤلف فى صفحة الخطأ والصواب (ص ٨٥٩) من عشرات وعشرات من الأخطاء والهنوات والهفوات لا يتسع المجال هنا لذكرها ، ولكن يكفى ذكر بعضها ؟

ولعل من أطرف أخطاء التطبيع : « الدكتور محمد غندور » بدلاً من مندور (ص ٥٠٨) . و « رشيد نحلة » بدلاً من نخلة (ص ٧٤٢) و « إسماعيل صبرى» بدلاً من إسماعيل (ص ٥٣٥) . و « محمد إبراهيم الجزائرى » بدلاً من الحريرى (ص ٤١٧) و « محمود عبد الجواد » بدلاً من محمد . ص (٢٥١) . و « محمد محمود شاكر » بدلا من محمود محمد شاكر (ص ٣٨٠) . و « أحمد جاد المولى » بدلاً من محمد أحمد جاد المولى (ص ٢٤٥) ، و « إسماعيل البارودى » بدلاً من سامى البارودى (ص ٨٤٨) . و « محمود زكى نجيب» بدلاً من زكى نجيب محمود (ص ١٣٥) . و « محمود محمد شكرى » بدلاً من محمود محمد شاكر (ص ١٣٤) . و « محمد أبو رية » بدلاً من محمود أبو رية (ص ١٢٩) . و « محمد محمد برانق » بدلا من محمد أحمد برانق (ص ١٢٢) و « محمد عبد الغنى خفاجى» بدلاً من محمد عبد المنعم خفاجى (ص ٦٣) و « محمد طلعت عرب » بدلاً من حرب (ص٧٨٢) و « محمد توفيق السلحدار » بدلا من توحيد (ص ٥٦٦)

ويظهر أن تدارك الأخطاء لم تراع فيه الدقة أيضاً على الرغم من قلته وضآلته كما قلنا ، فإن مثل أخطاء الأسماء فى هذا الكتاب المهم كان يجب أن يخصص له صفحات كثيرة ، لا صفحة واحدة ، كما صنع المؤلف اكتفاء (بنباهة القارئ وزكانته) ! ! والقارئ والله معذور حين يخفى عليه وجه الحق فى هذا السيل من الأخطاء التى قد تخفى عليه قطعاً ، والتى قد تضلل القارئ المثقف ، فيتحير فى صواب بعض الأسماء الآتية : أحمد راغب الطباخ —وصوابه محمد راغب الطباخ (ص٦٧٤) ويتحير فى اسم : أحمد أحمد الحوفى ، وصوابه أحمد محمد الحوفى (ص٥١١) ويتحير فى اسم الشاعر محمد غنيم . وصوابه محمود غنيم (ص ٥٩٠) ويتحير فى اسم الأديبة المصرية نعمات فؤاد الذى كتب اسمها أكثر من مرة : نعمت فؤاد . . .

ولا تقتصر حيرة القارئ أو الباحث فى هذا الكتاب على أسماء الأعلام المترجمين أو الواردة أسماؤهم فى السياق فحسب . ولكنه يقف حائراً أمام هذا الاضطراب فى أسماء الكتب التى اتخذت أساساً للمصادر . . .

فكتاب للدكتور شوقى ضيف اسمه تارة « دراسات فى الشعر العربى الحديث » (ص ٧٠) وتارة « دراسات فى الشعر العربى المعاصر » وهو الصواب .

وكتاب جورجى زيدان اسمه تارة « مشاهير الشرق » وتارة « تراجم مشاهير الشرق » وهو الصحيح .

وقصة « ابنة إيرلندا » ترجمة طانيوس عبده تارة تكتب « ابن إيرلندا » ص٥٩٥ وطوراً « ابنة إيرلندا » كما فى المسرد الهجائى للكتب ص ٧٩٠ . وبمناسبة الحديث عن المسرد أو فهرس الكتب المطبوعة الواردة فى هذا الكتاب نذكر أن فيه نقصاً فى بعض المواطن ، فقد ذكر كتاب «الشعر العربى فى المهجر الأمريكى» للأستاذ وديع ديب ص ٨١٧ ، ولم يذكر كتاب « الشعر العربى فى المهجر » لمحمد عبد الغنى حسن الذى جعله المؤلف الكريم مرجعاً من مراجعه العامة التى عرّف بها فى مدخل الكتاب .

* * *

هذه حفنة من أخطاء التطبيع أو السهو فى الأسماء والأعلام ، وليس هنا مقام حصرها حتى تسلم منها طبعة

ثانية وشيكة ، نرجو أن تصدر قريبة من الكمال الذى كان ينشده المؤلف لكتابه ، والذى لم تسعفه عجلة الطبع ، وتنوع المصادر ، وتشتت المراجع وانتثار الجزازات بتحقيقه .

على أن هناك بعض أمور تستحق معاودة النظر والتحقيق من المؤلف الفاضل ، حتى يكون البحث كله علمياً بعيداً عن مجازفات الظن ، ومفارقات الذاكرة أو الاستظهار السريع .

فقد جاء فى ترجمة ولى الدين يكن (ص٧٦٥) أن ديوانه نشره أخوه بعد موته مع مقدمة لخليل مطران . والله والحق يشهدان أن خليل مطران لم يخط حرفاً فى مقدمة ديوان يكن ، التى كتبها كلها صديقه وصفيه المرحوم أنطون الجميل ...

كما جاء فى ص٣٤٣ فى ترجمة الشيخ محمد الخضرى المؤرخ أنه صاحب « حاشية الشيخ محمد الخضرى على شرح ابن عقيل على ألفية ابن مالك ! ! » وهذا خلط بين الرجال . فالخضرى صاحب الحاشية النحوية المشهورة هو الشيخ محمد الدمياطى الخضرى المتوفى سنة ١٨٧٠ م سنة ١٢٨٧ هـ أى قبيل مولد الشيخ محمد الخضرى المؤرخ بعامين ! وشتان بين هذا وذاك ، فالسابق نحوى من علماء الأزهر ومن أهل دمياط ، واللاحق مؤرخ أصولى من خريجى دار العلوم ومن أهل إقليم المنوفية .

لقد يطول أمد التتبع لهذا الكتاب الجليل الذى يعد أوسع وأعمق مرجع لمصادر الدراسة الأدبية ، وخاصة فى العصر الحديث . ولكن ذلك ليس بمانعه من أن يحتل مكانه الفريد فى المكتبة العربية مورداً صافى المنابع للباحثين والأدباء ومؤرخى الأدب الذين يريدون أن يتابعوا تطورات الفكر العربى فى الأدب الحديث .

إننا نرجو مخلصين أن يتاح لقسم الأحياء من هذا الكتاب ما لم يتح من التحقيق والتدقيق لقسم الراحلين ، الذين حملتنا الأمانة والوفاء لهم ، وحرمانهم حق الدفاع عن أنفسهم فى صمتة الموت ، وضجعة القبر ، أن نعتب على الأستاذ داغر طويلا ، وأن نلومه كثيراً على الرغم من أنه كان مفضلا ومحسناً وكريماً إلى أبعد حدود الفضل والكرم والإحسان ...

محمد عبد الغنى حسن

المجلة التاريخية المصرية

المجلد الخامس لسنة ١٩٥٦ — ٢٠٤ صفحة — الثمن ٣٥٠ مليما

ظهر هذا المجلد حديثاً ، وقد أخرجته الجمعية المصرية للدراسات التاريخية ، فى نفس الرونق والإتقان الذى امتازت به مطبوعاتها .

وأهم محتويات العدد ستة بحوث تاريخية أو على هامش التاريخ .

أولها للدكتور عبد المنعم أبو بكر يعالج فيه موضوع التنقيب عن الآثار ، وما كان له من أثر فى الكشف عن حقائق التاريخ القديم . وبدأ بحثه بالإشارة إلى الأمثلة الأولى من البحث عن الآثار فى إيطاليا فى غضون القرن الثامن عشر ، ثم عرض بعد ذلك للبحوث الأثرية فى كل من مصر والعراق وبلاد الإغريق والأناضول وسورية وفلسطين ، كما أنه أشار إلى بحوث شليمان فى الكشف عن تاريخ طروادة . . . وبديهى أن موضوعاً كهذا لا يمكن استيعابه فى مقال واحد ، ولعل المؤلف لم يرد أن يستوعب جميع نواحى البحث ، ولكنه بلا شك قد حقق الغرض الذى كان ينشده وهو إظهار ما لعملية التنقيب والحفر من فضل فى تمكين المؤلفين من الكتابة عن العصور القديمة ، كتابة تستند إلى عمل دقيق ، وأدلة علمية واضحة ، وبديهى أن هذا له قيمة أكبر فى كتابة تاريخ العصور العريقة فى القدم ، ومع ذلك فإنه لا يخلو من فائدة كبيرة بالنسبة للعصور المتأخرة نسبياً .

والبحث الثانى للدكتور السيد الباز العرينى عن « الفارس المملوكى » ، وقد سبقت للمؤلف دراسات واسعة وبحوث عميقة فى تاريخ المماليك ونظمهم ، حتى أصبحت كتابته تصدر عن اطلاع غزير ، وهذا البحث لا يقل عما سبق للأستاذ العرينى تأليفه فى هذا الموضوع فهو يعرض لنا ضروب الفرسان المماليك ، وكيف كانوا يقتنون ، ويدربون ، ويعتقون ، وفضائلهم ورذائلهم ، وكل

ما يتصل بهم ، وقد أتبع بحثه بثبت وافٍ لأهم المراجع .

ويتناول البحث الثالث « صناعة السيوف الإسلامية في العصور الوسطى » والأستاذ المؤلف الدكتور عبدالرحمن زكي قد عني بهذا الموضوع عناية خاصة . وله تأليف سابق عن الأسلحة عامة والسيوف بوجه خاص .

والبحث الرابع للأستاذ حسين كامل أبو الليف يعالج فيه «مرحلة من مراحل التطور السياسي والاجتماعي في السودان». والكلام مقصور على السودان الشمالي ، ويعالج المؤلف خصائص القبائل التي مارست حياة البداوة ورعي الماشية .

والمقال الخامس للدكتور أحمد محمد عيسى الذي سبق له الاشتراك في أعمال البعثة الأمريكية المصرية التي بدأت في عام ١٩٥٠ في تصوير مخطوطات دير سانت كترين ؛ وهو يحدثنا في مقاله هذا عما اشتملت عليه مكتبات الدير من المخطوطات والوثائق ؛ وعني بوجه خاص بالمخطوطات العربية ، وموضوعاتها وأهميتها . وأشار إلى ما يهم الباحث من دراسة الخطابات والوثائق والحجج الشرعية المحفوظة بالدير .

والبحث السادس والأخير للدكتور محمد السيد غلاب الجغرافي ، موضوعه سكان فلسطين وتاريخهم الجنسي ؛ وقد عني الأستاذ غلاب بالدراسات الخاصة بالجغرافيا التاريخية لفلسطين منذ عدة أعوام ، ومقاله وإن كان على هامش التاريخ ، فإنه يصحح كثيراً من الأخطاء التي يقع فيها بعض كتاب التاريخ ، وعلى الأخص في الكلام على اليهود وأصلهم وتنوعهم .

وفي ختام المجلة عرض لبعض المؤلفات التاريخية الحديثة ؛ وقد ألحق بالمجلة ، النص الكامل للبحث الذي ألقاه الدكتور محمد جمال الدين الشيال في المؤتمر الذي عقد في بشاور بباكستان عام ١٩٥٤ . ولا شك أن هذا المجلد القيم سيفيد منه طلاب الدراسات التاريخية أجل فائدة.

م. ق.

أنباء وآراء

الآثار المصرية واهتمام الإيطاليين بدراستها

منذ عهد بعيد اهتم الإيطاليون بالآثار المصرية ، وكانوا فى طليعة الرحالة الأوروبيين الذين وفدوا على مصر لمشاهدة آثارها .

فى القرن الخامس عشر ، عصر النهضة وإحياء العلوم شغلت إيطاليا بإحياء آثار القدماء ، ووفد على مصر أول علمائها شرياكو دى أنكونا Ciriaco di Ancona طامحاً إلى كشف القناع الذى كان يخفى وجه مصر أشهر بلاد العالم وأقدمها مدنية ، وهو أول من يسر السبيل لمعرفة الكتابة المصرية القديمة وترجمتها ، وقد زار الإسكندرية وشاهد آثارها ووصل فى النيل إلى القاهرة وزار أهرامها العظيمة وصوّرها ، ورأى إيطالى آخر كان معاصراً لشرياكو ، واسمه ليوناردو فريسكوبالدى Leonardo Frescobaldi تلك الصورة فظنها خزائن يوسف .

وقد ذكر «شرياكو» فى كتابه الكثير عن الآثار المصرية التى رآها فى رحلته ، وزوّده بالصور والرسوم ، وكان إذا سئل عن سرّ اهتمامه بهذه الآثار قال : إنه يريد أن يحيى الموتى ! .

على أن الذى جاء حقيقة لإيقاظ الموتى الوادعين من سباتهم العميق فى مقابر سقارة منذ آلاف السنين إيطالى آخر اسمه بيترو دبلا فالى Pietro della Valle الرحالة فى القرن السابع عشر ، وتمتاز رحلته عن رحلة سابقيه بأنها كانت أشبه ما تكون بالبعوث التى فى أيامنا هذه ، فقد جاء وترك وراءه تقارير ويوميات عن مشاهداته تقرؤها اليوم بسرور وإعجاب ، حتى يمكننا أن نقول : إنه لم يكن بين الرحالة الأوروبيين من نقّب أكثر منه فى مصر ، أو وصف آثارها كما وصفها هو .

هذا وبعدُ «بلسونى دى پادوفا « Belsoni di Padova » أعظم العلماء فى العاديات المصرية بلا شك ، فقد اكتشف تمثال أجاممنون وعدداً من التماثيل والمسلاّت القيّمة ، كما اكتشف معبد أبى سنبل ، وقد كتب رحلته بالإنجليزية . ومن ثم ترجمت إلى سائر اللغات ، فبعثت فى أوروبا الرغبة فى الوقوف على تاريخ مصر القديم .

أما الذى أزاح القناع عن حياة مصر القديمة وخصائصها فكان روزلينى دى بيزا Rosellini Di Pisa ولا يزال مؤلفه القيم (آثار مصر والنوبة) يحتفظ بأهميته مع تقدم علم الآثار المصرية على أيدى كبار العلماء : أمثال ماريت ، وماسبيرو ، وإسكياباريلى الذى اكتشف كثيراً من الآثار .

ولقد كان روزلينى تلميذاً لمواطنه « متسوفانتى »الذى نشر اللغة الهيروغليفية فى إيطاليا فى الوقت الذى فسرها وحلّ رموزها « شامبليون » العالم الفرنسى .

وكتب روزلينى عند زيارته مقابر الملوك فى طيبة إلى حكومته يقول : « هنا الكائنات البديعة الأنيقة الصنع ، هنا غرائب الفن ، هنا الصورة العجيبة التى تملأ النفس روعة ودهشة ، هنا الأشياء التى تفوق كل وصف ، والتى أرى من الواجب علىّ أن أنقل إليكم صورها ، وأنا على يقين من أنه لم تلمسها يد مخلوق من قبل » .

وهناك من العلماء الإيطاليين غير هؤلاء كثيرون اجتذبتهم آثار مصر إلى الاهتمام بدراستها ، وقد استؤنفت تلك الدراسات فى إيطاليا بعد فترة ركود قصيرة فى النصف الثانى من القرن التاسع عشر ، وعادت سيرتها الأولى فى النصف الأول من القرن العشرين بفضل من قاموا

بالبحوث الفرعونية ، وحلّوا رموز أوراق البردى على أحسن وجه من أمثال إسكيابارلي وجوليو فارينا .

ويقوم جوزيبي بوتي وإرنستو سكاموتزى ومعهما سيرجو دونادوني ببحوث فى المتون الهيراطيقية والديموطيقية والقبطية ، ولقد شهد الجيل الحاضر نشاط جماعة من التلاميذ اقتفوا آثار أساتذتهم الإيطاليين ووصلوا إلى مراتبهم .

وكان من نتيجة ذلك كله أن أعيد تنظيم المتاحف المصرية المتعددة ، التى أنشئت فى القرن الماضى فى مدن تورينو وفلورنسة والفاتيكان ، وزوّدت بمجموعات جديدة من الآثار القيمة .

ولم يقف الأمر عند هذا فحسب ، بل أنشئت مراكز لجمع أوراق البردى الخاصة بمصر القديمة ودراستها ، فى مدن فلورنسة وميلانو وبولونيا الإيطالية .

وفى السنوات الأخيرة قامت بمدينة «فلورنسة» جمعية للتنقيب عن أوراق البردى الإغريقية والرومانية فى مصر ، ثم تحولت هذه الجمعية فى الآونة الأخيرة إلى معهد كبير للآثار أطلق عليه اسم « معهد جيرولامو فيتلى » ، كما أنشئت فى سنة ١٩٢٠ مجلة « اجيبتوس » ولاتزال هذه المجلة حتى الآن هى الوحيدة من نوعها فى العالم ، ويشترك فى تحريرها علماء من شتى بلاد العالم ، ومنشئها العلامة أريستيدى كالدريني Aristide Calderini ، وهو عالم جليل اشتهر بغزارة مادته ، وقد أسندت إليه الحكومة المصرية منذ سنوات تحرير « القاموس الجغرافى والطبوغرافى لمصر الإغريقية الرومانية » .

هذا ولعل المؤلفات الإيطالية الجديدة عن مصر القديمة وزيادتها المستمرة فى النصف الأول من هذا القرن ، مما يبشر بالخير . ولم تكن الدراسات فيها مقصورة على الناحية الفنية العميقة ، بل ظهرت مؤلفات كان الغرض منها تسجيل المعلومات والمعارف عن مصر القديمة وإذاعتها بين الطبقات المثقفة وعامة الشعب ، فظهر عدد كبير من هواة هذا الفن ، وأصبحوا لا يقلون شأناً عن علماء المادة ، نفسها كتبوا المقالات الضافية والبحوث الشائقة ، وأذاعوا فى الراديو والتليفيزيون عن تاريخ مصر وآثارها محاضرات استرعت الأنظار والأسماع .

ومن هؤلاء الدكتور لورنتزو براسكى Lorenzo Braschi . وقد زار مصر فى أوائل شهر أكتوبر الماضى ، ونزل ضيفاً على مصلحة السياحة المصرية .

والدكتور براسكى من أكبر هواة التاريخ المصرى والآثار القديمة ، وهو طبيب إخصائى فى أمراض الكبد والمعدة فى مدينة « بيلا Biella » بالقرب من « تورينو » ، ومع ذلك فقد أخذ منذ حداثة سنه فى أن يعنى بدراسة علم الآثار المصرية والتاريخ المصرى ، ويواظب على المحاضرات التى تلقى عنهما فى جامعة « تورينو » ومعهد الآثار هناك . وكان دائم الاطلاع على كل ما يوضع فيهما من الكتب والرسائل فى إيطاليا وغيرها من البلاد ، وزار المتاحف المصرية التى فى إيطاليا وبرلين ولندن وواشنطون ، وزار كاليفورنيا وبوسطون وغيرهما من البلاد للغرض ذاته ، ونشر بحوثاً فى مجلة الآثار المصرية التى تصدر فى إيطاليا ، وفى عدد آخر من الصحف الايطالية .

وقد نال الدكتور لورنتزو شهرة كبيرة فى هذا المضمار ، وحصل فى شهر سبتمبر من العام الحالى على الجائزة التى خصصها أحد برامج الإذاعة التليفيزيونية بإيطاليا ، وهذا الركن يذاع من الساعة التاسعة إلى العاشرة من مساء كل خميس ، ويقبل على الاستماع إليه الملايين من الشعب الإيطالى .

ومما يسترعى الأنظار حقاً أن جميع دور السينما والملاهى تبدأ برامجها بعد نهاية هذا الركن ، وتكاد الطرقات فى إيطاليا تخلو من روادها بسبب إقبالهم على مشاهدته والاستماع إليه ويطلق عليه اسم Lascia o Raddoppia ، ومعناه : « اترك مكانك أو ضاعف ربحك ! » ، وهو أشبه ما يكون بركن « جرب حظك » الذى تعده محطة الإذاعة المصرية .

ويتقدم إلى هذا الركن من يأنس فى نفسه الكفاية للرد على ما يوجه إليه من أسئلة؛ كل فيما تخصص فيه، فإذا استطاع الإجابة على ما يقدم إليه منها نال جائزة ذهبية ، وتبلغ زنة مجموع الجوائز التى يمنحها الفائزون سبعة ونصف كيلو جرام على شكل أنواط « ميداليات » كالريال الفضى المصرى القديم .

وقد حصل الدكتور «لورنتزوبراسكى» على جائزة هذا الركن فى سبتمبر ، فقد أجاب عن أكبر عدد ممكن من الأسئلة . واسترعى هذا العالم بما أظهره من علم واسع بالتاريخ المصرى القديم والآثار المصرية ، نظر السفارة المصرية فى روما، ورأت فى إذاعاته دعاية واسعة لمصر، ونشراً لتاريخها القديم ، فأشارت على مصلحة السياحة المصرية بدعوته إلى زيارة مصر ومشاهدة آثارها ليزيد معلوماته ومعارفه عنها .

• • •

وحين قابل مندوب هذه المجلة الدكتور براسكى قال له : إنه سبق له الحضور إلى مصر منذ أشهر ، ورأى بعينيه ما كان قد قرأه عن آثارها وأهرامها ومعابدها وهياكلها، وإنه ليسعده أن تتاح له فرصة لزيارة آثار مصر العليا فى الأقصر وكوم أمبو وأسوان وأبى سنبل وجزيرة فيلة وغيرها مما قرأ عنه الشىء الكثير ، كما يود أن تتهيأ له فرصة السفر إلى الولايات المتحدة الأمريكية ، لكى يذيع بالتليڤيزيون معلوماته عن الآثار المصرية فى محطات الإذاعة هنالك ، إذ يقبل الجمهور الأمريكى إقبالا عظيما على الإذاعات التليڤيزيونية ، وعلى الأخص ركن الأسئلة والأجوبة الذى يشاهده أكثر من خمسين مليوناً من الأنفس ، والذى يخصص للفائزين فيه جوائز تبلغ أربعة وستين ألفاً من الدولارات فى إحدى المحطات .

• • •

مكتبات الأفلام واتحادها الدولى

مثّل السيد فريد المزاوى مصر فى المؤتمر الدولى لأرشيف الأفلام الذى انعقد فى يوغوسلافيا فيما بين ٩ — ١٦ من سبتمبر سنة ١٩٥٦ وقد جاء فى تقريره أن من بين بحوث هذا المؤتمر المكتبات الفيلمية واتحادها الدولى ، وقال : إن الدول بدأت تنشئ هذه المكتبات فى اليوم الذى تبين لها فيه أن حق الملكية لنسخ الفيلم يختلف عن حق استغلاله وأن حق ملكية النسخة يثبت بالحيازة ، فظهر ما كان يخفيه بعض الهواة ، وتجمّع من ذلك مراجع للبحوث العلمية والإنسانية لأن الأفلام من أدق المراجع فى دراسة الإنسان وعاداته . وأقدم هذه المكتبات تلك التى أنشأتها فرنسا باسم السينماتيك سنة ١٩٣٤ ثم اقتفت آثارها أمريكا وإنجلترا وألمانيا وروسيا. ومن ثم أنشئ الاتحاد الدولى ليسهل تبادل نسخ الأفلام الموجبة والسالبة والسماح بطبع نسخة من أى فيلم لمن شاء الاحتفاظ به فى مكتبته .

وذكر أن ثمة خلافاً بين إدارات المكتبات الخاصة بالأرشيف الرسمى للدولة وبين ندوات الأفلام ، ذلك أن إدارة الارشيف لا تملك حق الاستغلال ولكن لها فقط حق العرض لأعضائها وللدراسة ، فى حين أن ندوات الأفلام تقوم بالعرض المستمر الذى يعرّض الأفلام للتلف والضياع ، وأن هناك بلاداً ليس فيها أرشيف أهلى لحفظ الأفلام قد اتخذت وسيلة هى أن تضم بين الأعضاء جميع روّاد الندوات، وأن الاتحاد يحرم تبادل الأفلام مع مثل هذه المكتبات .

وقال : إن هناك طائفة من الأفلام أصبح استغلالها حقّاً للجميع سواء أكان أصحابها غير معروفين أم كانت ملكاً للدولة ، فتسمح إدارة الارشيف بإعارتها إلى ندوات الأفلام ، وكذلك الحال فى الأفلام التى يسمح أصحابها بأن تعرض للتثقيف لا للتجارة فتُطبع منها نسخ خاصة

للتداول وتحفظ النسخ الأصلية فى الأرشيف .

وبدأت بعض هذه المكتبات تتخصص بجانب نشاطها العام فى أفلام ذات طابع خاص ؛ فالدانيمارك لها فرع خاص بأفلام الباليه ، والمجر متخصصة فى أفلام المسرح . وتحتفظ المكتبات إلى جانب الأفلام بالصور والخزازات وقصاصات الجرائد والبرامج والسيناريوهات ، وتحتفظ السينماتيك الفرنسية بنسخة التقطيع التى يستعملها المخرجون داخل الاستديو وبها جميع ملاحظاتهم أثناء العمل . وتضم المكتبات الفيلمية أكبر مجموعة من الكتب والمجلات ومقالات الصحف حول السينما .

أما الوسائل التى تحصل بها هذه المكتبات على نسخ الأفلام ، فهى إما بالاستيلاء عليها ، عن طريق قانون يفرض على كل منتج أو مستورد إيداع نسخة من فيلمه للحصول على التصريح بالعرض وذلك فى إيطاليا وأمريكا وإنجلترا ، أو بطريق التبادل بين المكتبات الفيلمية المختلفة ، أو بالشراء ، وقد أمكن بذلك الحصول على أفلام قديمة ، ثم بطريق الهبات من الشركات بشرط عدم العرض العام تجارياً أو غير تجارى .

وتكونت لهذه المكتبات معاهد للبحوث تلقى منها الاتحاد بحوثاً وافية عن تاريخ السينما . كما تقرر إنشاء معهد لأمناء المكتبات الفيلمية تتراوح الدراسة فيه بين أسبوعين أو ثلاثة فى كل مكتبة ، ونظراً إلى امتياز بعض المكتبات فى نواح معينة تقرر تحديد المواد الدراسية التى يتلقاها الطالب فى كل مكتبة على الوجه الآتى :

فى تشيكوسلوفاكيا : الفنون الصناعية والمعامل ؛ فى باريس : التاريخ السينمائى ؛ فى لندن : طرق حفظ الأفلام ؛ فى ألمانيا الغربية : المكتبة السينمائية ؛ فى الدانيمارك : إنتاج الأفلام العلمية ؛ فى روما أو موسكو : التعليم بوساطة السينما ؛ فى المجر : الإدارة ؛ وفى بولونيا : البحوث الخاصة بالفنون الجميلة .

معرض الفن الصينى

عرضت الصين فى القاهرة فى يناير الماضى وتعرض فى الإسكندرية فى شهر فبراير مجموعة من التحف الفنية تشمل : صوراً جذابة من الورق المقصوص الملون تشبه أشغال الخيام إلا أنها صغيرة الحجم -تجمع ما بين الدقة والسذاجة والفرح بالحياة- لطيور وزهور وشخوص ذات ثياب فضفاضة ملونة ؛ ومنسوجات قطنية مطبوعة عليها صور بسيطة تقليدية أنيقة قليلة الألوان ؛ ومجموعات من الخزف الجميل، خزف الصين بلاد الحكمة وهى متباينة الأحجام والأشكال والألوان والبريق تذكرنا بتلك العلاقة القديمة بيننا وبين الصين منذ فجر الإسلام ، وسُتُراً حريرية مزركشة تحسبها لدقة العمل فيها رسماً بالقلم بالغ الإتقان، ودمى صغيرة مسلية ما بين باسمة وعابسة ، وأمثلة رائعة من تصوير القرن الحادى عشر هى آيات من الشعر ، وعوالم بأرضها وسمائها ومخلوقاتها منحوتة تحتويها راحة الكف ، وأشغالاً مطعمة بالذهب والفضة ، وسلالا جميلة من الغاب والخيزران، وصوراً مطبوعة بعناية فائقة – لطيور تمرح وخيول شاردة وأسماك وصقور وأشجار وأزهار ، وما إلى هذا من أشكال ذلك العالم السحرى العجيب الذى أخرجه الفن الصينى إلى حيز الوجود منذ قرون عدة، وما زال يواصل إخراجه إلى اليوم كما يشهد بذلك هذا المعرض الزاخر ببدائع الفن الصينى .



→
من الفن الشعبى الصينى
(معرض الفن الصينى)

←
من الفن الشعبى المصرى
(المتحف الزراعى)



فلاحات مجريات يزين حوائط منزل فى قرية كالوتشا
بالزخارف بطلاء الزيت وزخرفة الحوائط بالفن الشعبى المجرى

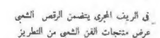
•

بمناسبة ما عرضته المجر من مجموعة قيمة لفنها
الشعبي بالإسكندرية والقاهرة فى هذا الموسم

•

تزيين العروس على طريقة شيو بالمجر وهو الزى الشعبى للعروس الفلاحة فى هذا الإقليم

نموذج رائع من القنانى المنقوشة بالزخرفة من ثمار القرع من صنع الفلاح
انتال كابول من كبار فنانى إقليم دونا لتول المجرى قرية شوموج هارشاج



فى الريف المجرى يتضمن الرقص الشعبى
عرض منتجات الفن الشعبى من التطريز





● تقوم بعثة من العلماء الإيطاليين بالبحث والتنقيب فى الشمال الغربى من الباكستان، وقد وفقت هذه البعثة إلى العثور على آثار سبع حضارات قديمة، وهى تعمل الآن للبحث عن آثار أخرى ترجع إلى عهد ما قبل التاريخ.

وقد ذكر الأستاذ جوزيبى توتشى Giuseppe Tucci المشرف على هذه البعثة أن هذه الحضارات السبع يرجع تاريخها إلى ما قبل ميلاد المسيح بأربعمائة عام حتى القرن السادس الميلادى.

والأستاذ توتشى عضو بالمجمع العلمى الإيطالى، وهو أستاذ الديانات والفلسفات الخاصة بآسية الوسطى فى جامعة رومة، وله مؤلفات عن الهند والصين والتبت، أهمها «تاريخ الفلسفة الصينية القديمة» و «الديانة البوذية ومنطق بلاد التبت ودياناتها»، وهو يضمن مؤلفاته معلومات ووثائق لم يسبق نشرها مما اكتشفه وحل رموزه. وقام برحلات علمية فى بلاد الهند والتبت بتكليف من الجمعية الجغرافية الإيطالية استطاع خلالها أن يصل إلى لهاسا عاصمة التبت فكان أحد الأوروبيين القلائل الذين سمح لهم بزيارة هذه المدينة المحرمة.

وقد ولد الأستاذ توتشى بمدينة ماشيراتا Macerata الإيطالية فى عام ١٨٩٤ وتتلمذ على المستشرق كارلو فورميكى Carlo Formichi وكانت أولى بحوثه ودراساته موضع الإعجاب حتى عين بمرسوم خاص أستاذاً بجامعة نابولى بالرغم من حداثة سنه.

ويتقن الأستاذ توتشى جميع لغات آسية الوسطى ولهجاتها، ويرأس إلى جانب مركزه الجامعى المعهد الشرقى فى رومة، حيث تدرس جميع تلك اللغات واللهجات وقد أقيم أخيراً فى هذا المعهد تحت إشراف الأستاذ توتشى معرض للفن الفارسى واشتركت فيه جميع المتاحف العالمية بعرض تحفها.

● بلغ الأستاذ ليڤى ديلاڤيدا أستاذ اللغة العربية بجامعة روما السبعين من عمره، فرأى زملاؤه تكريمه بوضع مؤلف ضخم باسمه يضم بحوثاً قيمة لخمسين من المستشرقين والأساتذة المقدرين جهوده، ومن بينهم الأستاذ جابرييلى أستاذ الأدب العربى بجامعة رومة، والأستاذ الدكتور أمبرتو ريتزيتانو المدرس بجامعة عين شمس، والدكتور مراد كامل أستاذ اللغات السامية بجامعة القاهرة وعميد مدرسة الألسن.

وللأستاذ ليڤى مؤلفات وبحوث قيمة، وقد قام بتدريس تاريخ الإسلام والنظم الإسلامية فى السنوات الأخيرة قبل اعتزاله عمله فى تلك الجامعة، وهو يعتبر من أقطاب الاستشراق فى العالم.

● قررت جامعة پاليرمو إنشاء كرسى للغة العربية بها أسوة بالجامعات الإيطالية الأخرى التى تدرس هذه اللغة، وذلك رغبة منها فى إحياء ذكرى تلك الفترة المجيدة من تاريخ جزيرة صقلية حيث ازدهرت الحضارة العربية ثلاثة قرون، ومنها انتقلت إلى إيطاليا فأوروبا.

وسيختار لشغل هذا الكرسى أحد المستشرقين الإيطاليين الكبار.

ومما هو جدير بالذكر أن كثيراً من أبناء هذه الجزيرة ما يزالون يفخرون بأصلهم العربى، ويتسمون بأسماء عربية، كما يطلقونها على بعض الأماكن والشوارع هناك. فمن أسماء الصقليين: Fatima و Mustafà و Ali و Zacallà وهى فى الأصل: فاطمة ومصطفى وعلى وزكا الله. ومن أسماء الأماكن Calataziza وأصلها «القلعة العزيزة»، و Calatanissetta وأصلها «قلعة النساء»، و Rasicansir وهى «رأس الخنزير» و Rasigelbi وهى فى الأصل «رأس القلب». أما أسماء الشوارع فمنها Cassaro وأصلها «القصر»، وهو أكبر شارع فى پاليرمو.

● أصدرت دار النشر الحكومية للقصص والشعر فى موسكو مجلداً ضم منتخبات من كتاب «ألف ليلة وليلة» ترجمها عن العربية م. ساليه؛ ويشتمل هذا المجلد على عدد من القصص، اختيرت من الطبعة الكاملة التى تتألف من ثمانية أجزاء، وكانت أول ترجمة روسية

عن العربية تمّت فى العهد السوفيتى .

وقد صدره المترجم بمقدمة تناول فيها تاريخ هذه القصص وحلل مستواها الفنى العالى .

● عرض فى العام الماضى بانجلترا فيلم ملوّن ممتاز فى إخراجه وتصويره، ويعدّ من أحسن الأفلام الثقافية، تناول حياة الشاعر وليم شكسبير فصوّره فى شبابه فى مدينة ستراتفورد ، ثم بعد أن أصبح رجلا وتزوج ، وحين فقد ابنه، ثم صوّر كيف وصل إلى الشهرة ككاتب مسرحيات وممثل إلى أن بلغ الشيخوخة . ويعتبر هذا الفيلم صورة صحيحة للحياة فى القرن السادس عشر .

● صفوة ما يمكن أن يقال فى تعريف ندوة الفيلم Cine club أنها مركز إشعاع للثقافة السينمائية الحقيقية لنشر الوعى السينمائى المهذب فى الجماهير ، وتقريب السينما إلى الأذهان الشعبية كأداة جديدة للتعبير الفنى . وقد كثر تكوينها فى البلاد الأوروبية والأمريكية لسبقها فى الإبداع السينمائى . كما أنشئ لها مركز فى مصر ، ولكنه نبع من مصادر إفرنجية ، واقتصرت زيارته بصفة عامة على الأجانب ، وكان كثير من المثقفين يدعون إلى إنشاء ندوة فيلم للجمهور المصرى، وظلت هذه الدعوة أملا يتردد فى النفوس ، ويظهر من حين لآخر على صفحات المجلات الفنية ، حتى أنشئت مصلحة الفنون ، فاستجابت للدعوة عن اقتناع وإيمان ، وحققتها دون إبطاء ، وعملت من بادئ الأمر على أن تتيح فرص الإفادة من الندوة للجمهور العام ، فجعلت أسعار الدخول زهيدة ، بل تكاد تكون اسمية ، وعرضت نخبة من الأفلام الممتازة على اختلاف جنسياتها وتباين أساليبها الفنية . ولكى تتم الفائدة من العرض على أكمل الوجوه تقرر أن يسبق بتقديم فنى من أحد السينمائيين الواعين ، وأن يختتم بمناقشة عامة يشترك فيها الجمهور ، وفى هذا وذاك ما يعين على الفهم والتذوق، وحسن التلقى ، وصدق الاستجابة .

وفى فترة قصيرة من الزمن أصبح لهذه الندوة أسرة متكاملة من الحاضرين والمناقشين والرواد ، يرصدون اجتماعاتها باهتمام ، ويشتركون فيها فى تسابق ، وينصرفون منها فى رضا وحماس .

والمرسوم لندوة الفيلم أن يتضاعف نشاطها ليشمل بلداناً غير القاهرة حتى تحقق رسالتها فى نشر الوعى السينمائى الراقى فى جميع أنحاء البلاد .

● يمتاز المسرح الشعبى عن المسرح المألوف بثلاثة أمور جوهرية :

أولا : أنه بالمجان .

ثانياً : أنه ينتقل إلى الجمهور ، وليس الجمهور هو الذى يتجشم الانتقال إليه .

ثالثاً : أن فنه يسير مبسطاً حتى يسهل هضمه واستساغته .

وكان الاتجاه فيه يسير نحو عرض تمثيليات للدعاية أو الوعظ دون اهتمام ذى بال بالجانب الفنى ، غير أن مصلحة الفنون دفعت بالمسرح الشعبى نحو نهضة جديدة تجمع بين الفن والموعظة ، وتهدف فى النهاية إلى رفع المستوى الأخلاقى والفنى معاً . لذلك كونت به لجنة قراءة من فنانين ممتازين لاختيار الأعمال الفنية الممتازة ، كما قررت أن يشمل نشاطه الفنى تقديم تمثيليات مصرية رفيعة أو عالمية بعد اختصارها وتيسيرها . وبذلك يتاح لرجل الشارع تذوّق آثار شوقى وشكسبير وغيرهما .

وأخيراً — وليس آخراً — أقيمت للمسرح الشعبى ندوة كندوة الفيلم المختار ، أقبل عليها الجمهور إقبالا منقطع النظير ، وهى بداية طيبة لتجديد الصلة بين الشعب والمسرح نرجو أن تواصل نجاحها ، وأن تحقق المأمول من آثارها يوماً فيوماً ، وجيلا بعد جيل .